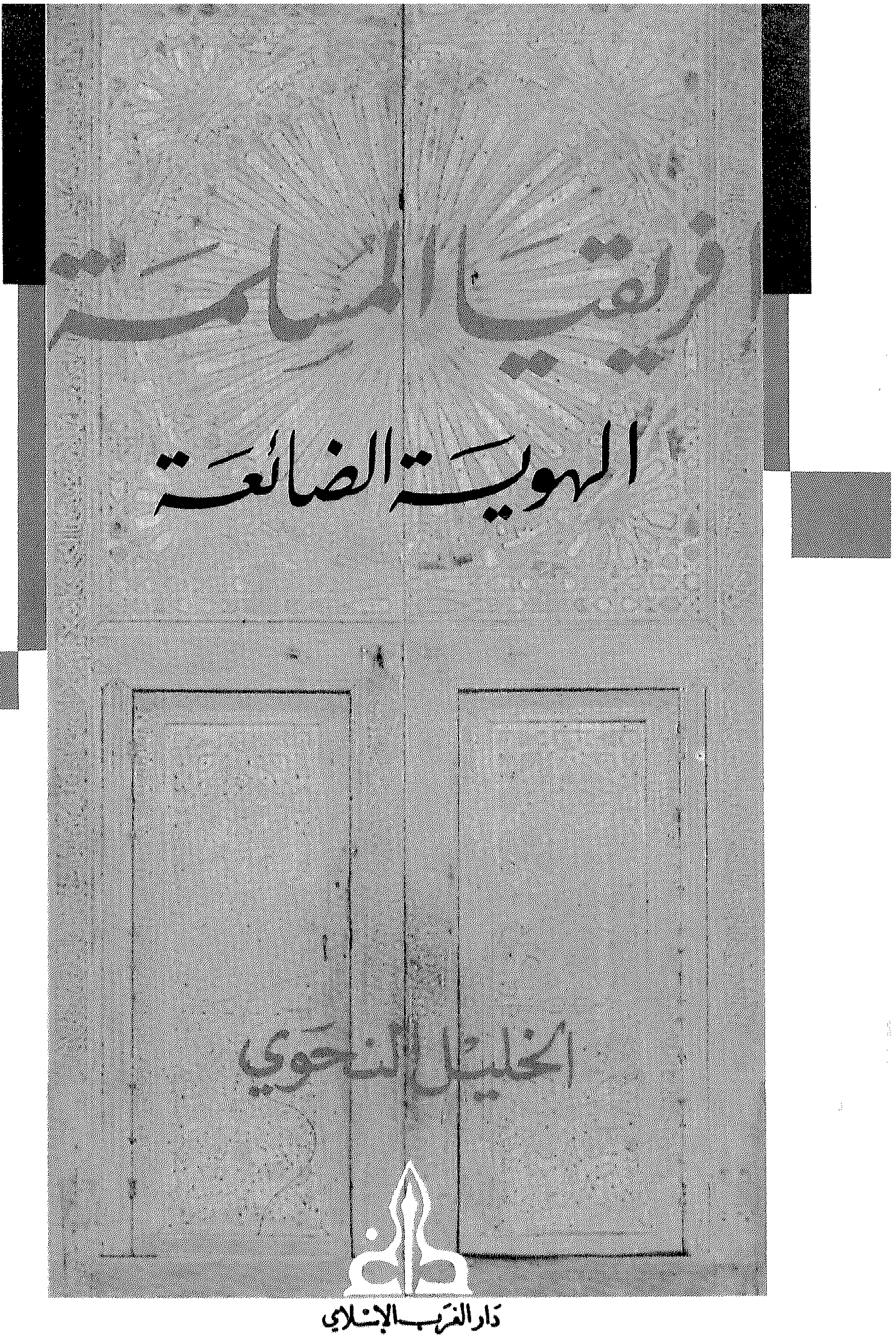


دار الغرب الإسلامي

إفريقيا المسلمة

الخليل النحوي

إفريقيا المسلمة

الهوية الضائعة



الطبعة الأولى

1993

دار الغرب الإسلامي
ص.ب :5787/113
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تـوطئـة :

كان الإسلام ، من وجهة نظر تأريخية صرف ، الحدث الأكبر ، بدون شك ، في تاريخ القارة الإفريقية ، فقد دخل القارة في عهد البعثة الأول ، واستقر بها في عهد الفتوحات (أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما بعدها) ، وانتشر فيها على مدار قرون من بعد .

ومع انتشار الإسلام حدثت في القارة أكبر التحولات ، فعلى الصعيد الروحي والثقافي تخلص الأفارقة من وحشة الوثنية ، فاستأنسوا بعقيدة التوحيد واطمأنوا إليها ، وخرجوا من ظلمات الجهْل إلى نور المعرفة ، وسادت فيهم اللغة العربية ، لغة القرآن ، فاستقوا بها معارف الدين وعلوم اللغة والآداب وفنوناً أخرى كثيرة ، وبدأ تاريخ إفريقيا يُدَوَّن ، لأول مرة ، فكتب الرحالة والجغرافيون العرب الأوائل عن تاريخ الدول والأعيان والوقائع والمجتمعات الإفريقية ووصفوا جغرافية البلاد ، فلم تعد نكرة مجهولة ، وتضاءلت الحاجة إلى استنطاق شواهد الطبيعة ـ وهي نادرة ـ لاستكناه ماضي الأرض والبشر . ولمَّت اللغة العربية شتات الأعراق والقبائل الإفريقية ، بما يَسَّرت من سبل التخاطب المباشر والتعارف ، وَأَغنْتْ أو ساهمت في تكوين لغات إفريقية واسعة الانتشار ، وفي تدوين تلك اللغات ، بواسطة الحرف العربي ، وفي تطوير آدابها وصيانتها من الضياع .

وعلى الصعيد الاقتصادي نشطت المبادلات التجارية بين الجزيرة العربية وشرق إفريقيا ، وبين شرق إفريقيا وغربها وبين شمالها وجنوبها

الأدنى ، وازدهرت تجارة القوافل، تنقل السلع الثمينة جيئة وذهاباً، وشجعت هذه التجارة تنامي العمران البشري، فتكونت من محطات القوافل مدن ومراكز عامرة .

وعلى الصعيد الاجتماعي حوّل الإسلام شعوب القارة إلى أسرة كبيرة لم تفتأ تتمازج ، بتأثير الهجرات المتزايدة من الشرق إلى الغرب ، وحركة القوافل، ورحلات الحجيج، وامتزجت بالصهارة دماء العرب والأفارقة في ظل دين يهدم كل الحواجز ويحطم كل العقد التي تفاضل بين البشر على أساس من اللون أو العرق أو النسب ، فنمت أسباب الأُلفة والتعارف بين شعوب القارة .

وعلى الصعيد السياسي ، شهدت القارة الإفريقية في ظل الإسلام ، ميلاد دول وممالك كبيرة مزدهرة ، وحّدت أجزاء كانت متفرقة من البلاد والعباد .

وعموماً ، فإن تاريخ إفريقيا الكبير ، تاريخ الدول والرجال والشعوب ذات الأمجاد والثقافة والفكر، هو ـ بالدرجة الأولى ـ تاريخ الإسلام فيها ، لا لأن المسلمين هم الذين دونوه فحسب ، بل لأن الإسلام أيضاً هو الذي صنع أو احتضن أبرز وقائع إفريقيا وأهمَّ أحداثها وتحولاتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، منذ قرون كثيرة .

ومنذ خمسة قرون ، مع انطلاق تجارة المحيطات ، سيئة الذكر، شهدت إفريقيا ثاني حدث حضاري خطير ، يتمثل في ظاهرة الاستعمار الغربي، الذي يشكل، حقاً، أخطر ـ وأنجح ـ حملة صليبية على بلاد الإسلام .

وكان للاستعمار في القارة أثر كبير ، بالغ الخطورة ، نأمل أن نسلط عليه الضوء، في الورقات التالية، بعد أن نلم إلمامة سريعة بتاريخ الإسلام وحركة الاستعراب في إفريقيا . .

ونحن في ذلك، نرحل، ما بين محطة ومحطة، تأصيلاً للشخصية الإفريقية، وبحثاً عن هويتها الضائعة .

فإن وفق الله إلى ما نبغيه من استنهاض الهمم ، وإنارة السبل ، وإبراز

الحقائق ، في هذه الورقات، فبفضل منه سبحانه ، وهو أهل الفضل، وعليه التكلان .

الخليل النحوي

الفصل الأوّل

انتشار الإسلام في إفريقيا

استضاءت إفريقيا بنور الإسلام منذ عهد النبوة الأول ، ففي السنة الخامسة من البعثة النبوية كان المسلمون الأول ـ والإسلام بعد غريب ـ مستضعفين في مكّة المكرمة ، يلقون صنوفاً شتّى من الأذى والعذاب لصدّهم عن دين الله ، وكان أمام المدينة المنوّرة سبع سنين أخرى ، قبل أن يفيء قوم من أهلها إلى مكّة المكرمة فيبايعوا النبي ﷺ (بيعة العقبة الأولى) ثم تصبح المدينة بعد سنة أو تزيد دار هجرة الرسول ﷺ .

في السنة الخامسة إذاً ، كان المسلمون بحاجة إلى ركن يأوون إليه فراراً بدينهم من الفتنة ، وليأمنوا بطش سادة قريش وكبرائها فكانت الهجرة إلى أرض الحبشة أول هجرة في الإسلام .

يروي ابن إسحاق . . . . . عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنّها قالت : « لمّا ضاقت علينا مكّة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم . . . . قال لهم رسول الله ﷺ : « **إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلَم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتّى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً ممّا أنتم فيه** »، فخرجنا إليها أرسالاً حتّى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار . . . . »[1] .

وذُكِرَ أنه ﷺ لما أمر أصحابه بالمهاجرة إلى الحبشة قال لهم : « **إنَّ بها**

---

(1) سيرة ابن إسحاق ، ص 213 .

معايش وسعة ومَلِكاً عادلاً لا يسلم جارَه »[1] .

وكان ممّن هاجر إلى الحبشة من أكابر الصحابة عثمان بن عفّان وزوجه رقيّة بنت رسول الله ﷺ وجعفر بن أبي طالب والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ، وسيّدتان كريمتان صارتا بعدُ من أمهات المؤمنين : أم سلمة وأم حبيبة .

وقد وجد المسلمون بأرض الحبشة الأمنَ والسعة ، وأقاموا بها عشر سنين . وذكر أصحاب السير أن النجاشي سيّر وفداً من قومه إلى النبي ﷺ ، فأصغى إليه وهو يتلو عليه القرآن ، ففاضت أعينهم بالدمع ، ففيهم ـ على رواية ـ نزل قوله تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممّا عرفوا من الحق يقولون : ربّنا آمنا به فاكتبنا مع الشاهدين ﴾[2] .

وكان للنجاشي جزاؤه عند رسول الله ﷺ حين تُوفي فصلّى عليه صلاة الغائب .

وهكذا كانت هجرة المسلمين الأولى هجرة إلى إفريقيا ، وكانت للإسلام بها سفارة جليلة الشأن ، قبل أن يبعث النبي ﷺ البعوث ويسيّر الوفود ، وقبل أن ينطلق الفاتحون لنشر الإسلام خارج جزيرة العرب .

وفي السنة السادسة للهجرة بعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه فيه إلى الإسلام ، فقبل المقوقس الكتاب ، وأهدى إلى النبي ﷺ جواري أربعا منهن مارية أم إبراهيم[3] ، فكانت هذه سفارة ثانية تمهّد لفتوح لاحقة تنشر الإسلام في ربوع القارة .

فتح إفريقيا :

امتاز عهد الخليفة الأول أبي بكر (رضي الله عنه)، على قصر مدّته ،

---

(1) الشيباني / حدائق الأنوار ـ ج 321/1 .

(2) ابن إسحاق ـ ص 218 ، 219 .

(3) المقريزي / إمتاع الأسماع ـ ج 307/1 ، 308 .

بقتال أهل الردّة ومانعي الزكاة ومسيلمة الكذّاب[1] ، فتوطّدت أركان الدولة الإسلامية بعدما كادت تتمزّق بعد وفاة النبي ﷺ .

أمّا في عهد الخليفة الثاني ، عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) فقد توسّعت دار الإسلام ، وامتدت الفتوح إلى مناطق من إفريقيا ففتح عَمْرو بن العاص مصر سنة 20 هـ والإسكندرية وبرقة سنة 21 هـ وطرابلس الغرب سنة 22 هـ[2] .

ويروى أن عَمْراً لمّا فتح طرابلس كتب إلى الخليفة عُمَر : «إن الله قد فتح علينا طرابلس . . . وليس بينها وبين إفريقية [تونس] إلاّ تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » ، ولكن عمر (رضي الله عنه) لم يأذن ، حتّى إذا آلت الخلافة إلى عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) عزل عَمْرو بن العاص عن مصر وولّى عليها عبد الله بن أبي سرح وأذن له في فتح إفريقية ، ففتح قاعدتها قرطاجة سنة 27 هـ . وفي سنة 50 هـ/ 760م دخل عقبة بن نافع الفهري إفريقية فاختط مدينة القيروان، وكانت له ولاية ثانية على إفريقية (62 ـ 64 هـ/ 681 ـ 683 م) تابع فيها فتوحه حتى وصل بلاد السوس الأقصى وبنى بها مسجداً .

وذكر ابن عذاري أن عقبة نزل من درعه إلى بلاد صنهاجة ثم إلى بلاد هسكورة ثم نزل أغمات وريكة ثم نزل منها على وادي نفيس وسار حتى نزل إيجلي بالسوس .

وفي بعض الروايات أن عقبة تابع سيره حتى وصل مدينة « ولاته » (بشرق موريتانيا اليوم)، وتدعى يومئذٍ «سير» أو «بيرو» وخلّف بها ابنه العاقب[3] .

وعلى كل ، فقد تواترت روايات المؤرخين عن حملة سيّرها عبيد الله بن الحبحاب والي هشام بن عبد الملك على إفريقية والمغرب لنشر

---

(1) السيوطي / تاريخ الخلفاء ـ ص 67 .
(2) المصدر نفسه ـ ص 124 .
(3) الشيخ سيدي محمد الكنتي / الغلاوية (مخطوط) .

الإسلام وحفر الآبار، تمهيداً للطرق ، في السوس الأقصى وبلاد مسوفة .

ففي سنة 114 هـ (أو 116 هـ) قاد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع (أو عبد الرحمن بن حبيب) تلك الحملة التي شقت طريقها إلى تخوم السودان .

وعلى مدى قرون من بعد، كان الإسلام ينساب في أزجاء القارة دون أن تعضده ـ في كثير من الحالات ـ قوّة أو سلطان ؛ كان ينتشر بانتشار النّاس ، يسلك مسالكهم ويحل أينما حلّوا فيتلقاه الأفارقة بالقبول ، ويعتنقونه بإيمان واقتناع .

فبفضل اتصال موانىء إفريقيا الشرقية بالجزيرة العربية ، كانت حركة التجارة نشيطة بين الطرفين، وكانت سواحل الصومال وكينيا وتنجانيقا مراكز للتجارة العربية ، لم تلبث أن تحوّلت، مع الإسلام إلى مراكز إشعاع ديني تنطلق منها الدعوة إلى الله ، وعزّز انتشارَ الإسلام هجرة بعض القبائل العربية ، إلى أريتريا والصومال وأثيوبيا .

وقد أسّس العرب الوافدون مدينة مقاديشو، ونفذوا من الصومال إلى سواحل تنجانيقا وكينيا في القرن الثالث الهجري[1] .

كذلك كان النيل معبراً للدين إلى السودان حيث أسلمت مملكة دنقلة المسيحية ، وكانت طرق القوافل ما بين طرابلس الغرب وتشاد مسالك للإسلام[2]، وكان التجار المسلمون يمخرون في البحار إلى الجزر النائية، فقد نشر التجار العرب الإسلام في جزر القمر وبقية جزر المحيط الهندي (مدغشقر، السيشيل، موريس . . . . إلخ)[3] ، وسار في القوافل التي تربط شرق القارة بغربها أو شمالها بجنوبها ، دعاة لا تلهيهم التجارة عن الدعوة إلى الله .

---

(1) أنور الجندي/ العالم الإسلامي والاستعمار . . . ص 142 .

(2) Mamadou Dia/Islam, Sociétés africaines... P. 65.

(3) أنور الجندي/ المصدر السابق ـ ص 145 .

كانت القوافل تجبي معها صوب الغرب أو الجنوب خيرات حسّية ومعنوية ، غَنِيَت بها وقامت عليها ـ في فترات متباينة ـ حواضر إفريقية عتيدة .

ولنا في أوداغست وغانة[1] نموذج للحواضر التي دخلها الإسلام في وقت مبكّر ونعمت في ظلّه برخاء اقتصادي كبير .

تحدّث البكري عن أوداغست فقال : « إنّها مدينة كبيرة آهلة (. . . . .) بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلّمون للقرآن وحولها بساتين النخيل ويزرع فيها القمح (. . . . . .) والمقاثي تجود عندهم (. . . . .) وعسلها أيضاً كثير يأتيها من بلاد السودان (. . . . .) وسوقها عامرة الدهر كلّه لا يسمع فيها الرجل كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله ، وتبايعهم بالتبر (. . . . .) وذهب أهل أوداغست أجود ذهب أهل الأرض وأصحّه »[2] .

أمّا غانة فهي : « مدينتان سهليتان ، إحداهما المدينة التى يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يجمعون فيه ، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون ، وفيها فقهاء وحملة علم (. . . . .) ومدينة الملك على ستّة أميال من هذه (. . . .) وفي مدينة الملك مسجد يصلّي فيه من يفد من المسلمين (. . . . .) وتراجمة الملك من المسلمين ، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه »[3] .

ويقول صاحب الروض المعطار إنّها: « أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً ، وإليها يقصد المياسير من جميع البلاد المحيطة بها من سائر بلاد المغرب الأقصى ، وأهلها مسلمون (. . . . .) وملكها يخطب لنفسه، لكنّه تحت طاعة الخليفة العباسي ، والذي يعلمه أهل المغرب الأقصى علماً يقينياً أن في قصره لبنة ذهب وزنها ثلاثون رطلاً ، نقرة

(1) أوداغست مدينة توجد أطلالها في شرق موريتانيا ، أما غانة فالراجح أنها ـ أو عاصمة الدولة ـ هي كومبي صالح الموجودة أيضاً بشرق موريتانيا .
(2) البكري/ المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ص 158 ، 159 .
(3) المصدر نفسه ـ ص 174 ، 175 .

واحدة ، خلقها الله تعالى خلقة تامّة من غير أن تسبك في النار ، وقد ثقب فيها ثقب ، وهي مربض لفرس الملك »[1] .

لقد انساب الإسلام بيسر وسهولة إلى هاتين المدينتين وإلى حواضر أخرى عتيقة ، مثل موقاديشو وتمبكتو وجنة وكانو وكشنة ، وغيرها من الحواضر الإفريقية التي أدّت في نشر الإسلام وبثّ العلم أدواراً مكمّلة لأدوار القيروان وتونس (الزيتونة) وفاس (القرويين) والقاهرة (الأزهر) وشنقيط ـ المدينة والبلاد .

وعلى ضفاف نهر السنغال وخلفه كان الإسلام ينساب أيضاً بشكل عفوي وتلقائي .

يقول جوزيف كيوك (Joseph Cuoq) إن « الإسلام لم ينتشر على ضفاف السينغال بصورة منظّمة ، أو عن طريق الفتوح ، كما حدث في بلاد المغرب، وإنّما انتشر عفوياً، كما تنماع قطرة الزيت (. . . . .) لقد سلك الإسلام ، بشكل طبيعي هادىء ، طرق القوافل وحل معها في محطّاتها وفي مراكز التجارة »[2] .

ويؤكد عدد من المؤرخين والباحثين الأفارقة الطابع السلمي والعفوي المميّز لانتشار الإسلام في إفريقيا فيرى ممادويا أن هذا الطابع السلمي يشكل سمة فارقة بين الإسلام وبين الاستعمار الذي يطبع العنف حركته[3] .

ويقول آدم عبد الله الألوري: «أمّا ما يتمشدق به النصارى أن الإسلام قد انتشر بالقهر فعليهم أن يفسّروا بقاء الوثنيين الذين ظلوا يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين تحت كنف الدولة الإسلامية في كل قطر من الأقطار التي حكمت تلك الدول منذ قرون . . . ومع ذلك بقي فيها الوثنيون إلى يومنا هذا مع تعاقب الدول والحكومات الإسلامية فيها منذ خمسة قرون في بعض

---

(1) الخليل النحوي/ بلاد شنقيط ص 67 .

(2) Joseph Cuoq, Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest - P. 47.

(3) Mamadou Dia, Idem - P 65.

الجهات نحو كانو وكشنة أو نحو سبعة قرون في الجهات الأخرى كبرنو ونحوها . . . »[1] .

والحق أن هذا الطابع السلمي ـ والإسلام دين السلام ـ لا يلغي فريضة الجهاد التي شرعها الله لردّ العدوان والظلم : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ ، ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنّهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾ ، ولدرء الفتن وإعلاء كلمة الله وإقامة الدولة الراشدة التي تصون حقوق الذميين (غير المسلمين) وتكفل حرّيتهم كما تصون حقوق المسلمين .

لقد انتشر الإسلام ـ وهو دين الفطرة ـ بشكل شبه عفوي ، وكان المسلمون ، أياً كانوا ، وحيثما حلّوا دعاة إلى الله ، خير سلاحهم القدوة الطيّبة ، والأسوة الحسنة ، ينشرون الإسلام فرادى وجماعات عزلاً غير مسلّحين ، ولكن ربوع الإسلام في إفريقيا لم تفتأ تشهد من حين لآخر ظهور حركات أو دول مجاهدة ، تتوطّد بها أركان الإسلام في دياره وتتجدّد بها قوّته وهيبته إزاء أعدائه ، خاصّة عندما تكون الدولة الإسلامية في مواجهة خطر ماثل .

جهاد الأفارقة . . . دول وحركات :

خاض الأفارقة غمار الجهاد ، في ظل الإسلام وباسمه في أطر مختلفة ، وفي مراحل شتّى من التاريخ ، خاضوه دولاً وأفراداً (أو مجموعات) فأسّسوا به دولاً بعد أن لَمْ تكن ووطّدوا أركان دول قائمة ، أو طلبوا ذلك فلم يدركوه ، وواجهوا به أعداء مختلفين في مراحل مختلفة (وثنيين ، صليبيين جدداً . . . . . إلخ) .

ففي القرن الثالث الهجري أو قبله كانت لقبائل صنهاجة (لمتونة، كُدالة، مسوفة) دولة ذات صولة ، اتّخذوا أوداغست عاصمة لها ، وكانت

---

(1) الألوري/ الإسلام . . اليوم وغداً في نيجيريا ـ ص 56 .

لملكهم تيلوكـاكين فتوحـات في بلاد السـودان (تـوفّي ابنـه تيلوتـان سنـة 222 هـ)[1] .

ويتحدّث البكري عن « صاحب أوداغست في عشر الخمسين وثلاثمائة تين يروتان بن ويسنو بن نزار ، رجل من صنهاجة ، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلّهم يؤدي إليه الجزية »[2] .

وقاد الزعيم الصنهاجي «ترسين» حركة جهاد ضد دولة غانة التي كانت تهدّد التجارة الصحراوية ، وتوفّي سنة 414 هـ وهو يحارب الوثنيين[3] .

وبعـد سنين معدودة كـانت دولة المـرابطين تتـأسس على شـواطىء الأطلسي أو غير بعيد منها ، وعاصرتها في مناطق السودان المجاورة مملكة «التكـرور» التي أسلم زعيمهـا وارجيبي (Wara Diabie) (ت 432 هـ/ 1040 م) وكان بين الدولتين حلف وثيق .

وقد اجتاح الإسلام بعض الدول الإفريقية القديمة وقـامت عليه دول أخرى ذات شأن ، مثل :

- دولة غانة التي أقامتها قبيلة الصوصو (من الصوننكية) .

ويبدو أن سيطرة المرابطين على مدينة أوداغست سنة 477 هـ/ 1055 م قد مهّدت للاستيلاء على غانة سنة 469 هـ/ 1067 م ، وبذلك ساد الإسلام فيها .

- **دولة مالي** : أسستها قبائل الماندينغ ، في ظل الإسلام حوالى 597 هـ/ 1200 م .

ومن أعـظم قادتها السلطان مانسـا موسى الـذي حجَّ سنـة 724 هـ/ 1324 م ، وكان مجاهداً في سبيل الله ومُصلحاً كبيراً ، امتد سلطان الدولة في

---

(1) المختار بن حامد/ حياة موريتانيا - ج 1 (تحت الطبع) .

(2) البكري ، مصدر سابق - ص 158 ، 159 .

(3) الخليل النحوي/ بلاد شنقيط ص 19 .

عهـده إلى بلاد التكـرور غربـاً وإلى حدود كـانم وبرنـو شرقـاً وإلى أروان وتادمكت شمالاً .

ـ **دولة السنغاي**: وقد قامتْ في «غاو» ، بعد وهن دولة مالي وتوسّعت على حسابها وتدعَّم سلطانها في عهد سني علي (873 هـ/ 1463 م ـ 898 هـ/ 1492 م) ، ورغم أن سيرته الدينية لم تكن محمودة فإن رقعة دولته بدأت تتّسع حتّى شملت المنطقة الممتدة من سيغو على نهر النيجر إلى ما يعرف اليوم بداهومي (بنين)، وهي مساحة تعادل مساحة العراق وإيران معاً .

ولعلَّ أطيب قادة هذه الدولة ذكراً السلطان أسكيا محمد بن أبي بكر الطوري الذي حجَّ سنة 902 هـ/ 1490 م ومنحه مولاي العبّاس شريف مكّة لقب « خليفة » .

وقد أحكم أسكيا محمد تنظيم الـدولة واتّخـذ حاضـرة العلم تمبكتو عاصمة لها واستقدم العلماء وأغدق عليهم عطاياه ، تجلّة لهم وتشجيعاً على نشر العلم .

ـ **دولة الفونج الإسلامية في السودان** (ق 10 هـ/ 16 م) .

ـ **دولة كانم وبرنو** ، وقد تأسست حول بحيرة تشاد ، ولم تفتأ تتوسّع حتّى وصلت حدود فزّان شمالاً وامتدت من واداي شرقاً إلى حوض النيجر غرباً .

وقد حكمتها سلالة مسلمة تعرف ببني حومي أو السيفاوة (نسبة فيما يروون إلى سيف بن ذي يزن) .

وكـانت لها في عهـد سلطانها إدريس بن علي الأومـا عـلاقـات مـع السعديين والعثمانيين .

ـ **إمارات الهوسا**: تشمل بلاد الهوسا المناطق الواقعة شرقي نهر النيجر والممتدة إلى الحدود الغربية لِبلاد برنو .

وقد دخل الإسلام هذه البلاد ما بين القرن 7 و 8 هـ/ 14 و 15 م .

وقامت فيها إمارات متعدّدة من أعظمها شـأناً إمـارة العالم المجـاهد

عثمان دان فوديو (ت 1232 هـ/ 1817 م) الذي سيطر على منطقة واسعة من بلاد الهوسا ، مثل كشنة وزاريا ونوبة وكانو واتخذ سكوتو عاصمة له ، وقد انتشر الإسلام على يده في هذه البلاد وفي الكاميرون .

وكان من تلامذة الشيخ عثمان ورفاقه في الجهاد حمادُ وباري (أحمد سيكو) الذي حكم في بلاد ماسنة ، وسيطر على تمبكتو وجنة واتخذ لنفسه عاصمة سمّاها « حمد الله » .

- وفي جنوب موريتانيا الحالية، قاد الإمام ناصر الدين (ت 1085 هـ/ 1674 م) حركة لنشر الإسلام وإقامة الدولة الراشدة ، كان لها أثر واسع على مناطق إفريقيا المجاورة .

فقد فتح ناصر الدين « فُوتَة » ، وحرض الرعايا المسلمين في ممالك ما خلف النهر على الثورة فأطاحوا بالملوك الوثنيين في « والو » و « ديـولوف » واستبدلوا بهم حكّاماً مسلمين .

- إمامة فوتة : شهدت منطقة نهر السينغال قيام حركات إسلامية في بلاد فوتاتُورُو وفوتابيدو وفوتاجاللون ، كان من أبرزها الحركة الإمامية في بيدو بقيادة مالـك سـي (1690 م) والثورة الألمـامية (الإمـامية) بقيـادة كارمـوكا مؤسس مملكـة الفلان التي تـألقت في عهد خليفتـه إبراهيم تـوري ممادو (1751 ـ 1784 م) ، وحـركـة تــورودو بقيـادة سليمــان بـال (ت 1183 هـ/ 1769 م) .

- حـركـة الحـاج عمـر ، يعتبـر الحـاج عمـر بن سعيـد تـال (ت 1280 هـ/ 1864 م) من أكبر علماء إفريقيا ومجاهديها ، وقد قاد حركـة كبيرة لنشر الإسلام وتوحيد مناطق مختلفة من بلاد السودان في دولة جامعة فاستولى على تمبكتو وسيطر على بعض بلاد البمبارا وماسنة وفـوتاتـورو ، وحاول الحدّ من الحضور الفرنسي في السينغال فدعـا إلى مقاطعـة السلع الأوروبية ، وأعلن معارضته لإنشاء مراكز تجارية أوروبية على الأرض أو مرور البواخر الحربية في مياه نهر السينغال .

- ومن بعد الحاج عمر ، حاول محمد الأمين درامي توحيد الصوننكية

واصطدم بالفرنسيين عند بكّل على الضفة السنغالية فاستشهد عـام 1887 م دون أن يحقّق مشروعه .

ـ وفيما يعرف اليوم بغينيا حاول الساموري توري في القرن الماضي أن يقيم دولة جديدة ، وأخضع بعض البلدان ، إلا أن الفرنسيين اعترضوا سبيله ، فقاومهم سبع سنينٍ إلى أن حاصروه في شمال ليبيريا الحالية وأسروه ونفوه إلى الغابون حيث توفّي سنة 1900 م .

ويقول عنه فيـدرب (Faidherbe) الحاكم الفـرنسي في سان لـويس (اندر) بالسنغال ، إنه كان يحترم العلماء ، ويشيّد المساجد في جميع القرى الكبيرة ويمنع الأشربة الكحولية (وذلك ما لا يرضي المستعمرين طبعاً) .

ويذكر أن الساموري تلقّب « أمير المؤمنين » ثم تخلّى عن هذا اللقب احتراماً للسلطان العثماني .

ـ وفي شرق القارة، قاد المهدي محمد بن عبد الله في ثمانينيات القرن 19 م حركة جهاد ضد الإنجليز وفي سبيل إقامة الدولة الإسلامية وامتدّ جهاد خليفته عبد الله إلى الحبشة .

ـ وقـاد محمد بن عبـد الله حسن ، بالصـومال ، حـركة جهـاد ضد البريطانيين والإيطاليين استمرت نحو عشرين سنة (1880 ـ 1900 م) .

إن هذه القائمة الوجيزة تكفي لإبراز مـا كان لـلإسلام من قبـول في إفريقيا ، وما اتّسم به من حيوية وهو يتوسّع وينتشر ، مـع التّجار والقبـائل المهاجرةٍ ومع دول تقوم عليه ، وفي غيابها . . . . ولم يفتأ الإسلام ينتشر في القارة حتّى عندما كانت جيوش الغزو الاستعماري تجول فيها وتصول .

الفصل الثاني

الاستعراب في إفريقيا

لم يكد العرب يخرجون من الجزيرة العربية ، حتى جاء الإسلام فحملوه فاتحين إلى بلادهم ثم إلى ما دنا من جوارهم ، ولم يفتأ الإسلام ينتشر فتتسع مضارب أهله ، حتى كان بين الفاتحين الجدد قوم كثر من أرومة غير عربية ـ لكن هؤلاء ، وقد دانوا بالإسلام ونطقوا بالعربية ، وأصهروا إلى العرب ، وأصهر العرب إليهم ، أصبحوا عرباً بالاستعراب ، وانضافت بهم مواطن كثيرة إلى بلاد العرب ، كما امتد بهم إشعاع العربية مديداً إلى مواطن أخرى لم تتعرب كلياً .

وكان لإفريقيا حظ وافر من حركة الاستعراب ، فمن مصر إلى موريتانيا كان للعرب مواطن جديدة خارج جزيرتهم . وفي بلاد إفريقيا ، وخاصة في غربها امتد سلطان العربية امتداداً . وكان الإسلام دستور حياة جديدة لا يتفاضل فيها العربي والعجمي بعرق أو لغة أو لون ، وإنما بما يقر في القلوب ويسري على الجوارح من تقوى الله . وتمهدت في ظل الدين الحنيف سبل التواصل ، والتمازج بالمصاهرة بين الشعوب المختلفة ، فنشأت سلالات جديدة اختلطت فيها دماء الإسلام تحمل بصماته الموحدة ، فاستعربت أقوام نسباً ، أو انتساباً أو لغة ، لكن أقواماً من العرب أيضاً تأفرقوا ، انصهاراً في مجتمعات جديدة اندمجوا فيها بعقلية مسلم يصل المسلم ويراه أقرب الأقربين وإن لم يدن بسبب من نسب أو حسب أو جوار .

ولعله من الخير ألا نقصر النظر على « الاستعراب » لئلا يظن ظان أننا نحصر فيه أثر التواصل الاجتماعي بين العرب والأفارقة في ظل الإسلام ،

ذلك أن « التأفرق » هو الوجه الآخر ، تجلياً بالضد ، لحركة « الاستعراب ». وكلاهما يدعمان ما نذهب إليه من تأكيد الدور الفاعل للإسلام في صياغة هوية إفريقية متميزة ، ذات جذور اجتماعية وسلالية وثقافية تضرب في الأرض والتاريخ .

وللاستعراب مدخلان : أحدهما ثقافي لغوي ، وهو المدخل الأهم وفيه غنى عن الثاني ، وهو سلالي اجتماعي . . ولهذا المدخل أيضاً دلالات عميقة وأهمية لا تنكر .

المبحث الأول

التعرب والتأفرق

ونحن واجدون لدى مجموعات إفريقية كثيرة نزوعاً إلى ذلك الاستعراب الذي يقوم عادة على الانتساب إلى أصل عربي ، إما بدعوى أن أسراً عربية هاجرت من الجزيرة العربية أو من بلد عربي آخر ، وحطت رحالها بالمنطقة الإفريقية واستقرت بها ، فهؤلاء أحفادها . . . أو بدعوى أن فرداً (في العادة شخصية ذات شأن) حلَّ بالمنطقة وتزوج من أهلها ، فهؤلاء سلالته . وقد يجد المؤرخون لهذه الدعوى شواهد إثبات، وقد لا يجدون، وفي كلتا الحالتين تظل المعطيات السلالية ثانوية إزاء معطى حضاري أعمق وأقوى منها ، وأقوم حجة . فالمهم في نزعة الاستعراب هذه هو أن هؤلاء الأفارقة، سواء أصحَّ انتماؤهم السلالي أم لم يصح، قد دخلوا فعلاً دائرة العروبة الحضارية من بابها الواسع : الإسلام. وليس انتماؤهم العربي ـ الذي يتمسكون به ـ إلاَّ تعبيرا صادقاً عن تعلقهم بالإسلام ورغبتهم في أن يكونوا من أهله الأقربين ـ وليس في أهله بعيد أو غريب ـ وشعورهم الفطري بأن العروبة (ولنقل نحن الثقافية وليس السلالية فحسب) تقربهم إليه زلفى .

ثم إن هذا الانتماء يعكس حتى وإن لم يثبت ، نظرة الود والإكبار التي كان الأفارقة ينظرون بها إلى العرب الذين نزل فيهم وبلغتهم القرآن ، وحملوا الإسلام أول ما حُمِل .

ولنا على ظاهرة « الاستعراب » النِّسبِي هذه لدى الأفارقة أمثلة يمكن أن نعرض بعضها .

ففي تشاد مثلاً كانت قبيلة «تونجور» تدعي أنها قبيلة عربية نزحت من تونس . وكانوا يحكمون منطقة من البلاد تخضع لهم فيها قبيلة «مابا» ، ولكن الغريب أن «التونجور» كانوا وثنيين في عهدهم ذلك (القرن 10 هـ/ 16 م) . وكان من حظ « المابا » أن وصل إليهم عربي من أصل عباسي يدعى جامي

وتزوج منهم ، وصار أميرهم . وانضافت عوامل أخرى لاحقة فانتشر الإسلام في «المابا» . وتأسست دولة إسلامية في منطقة الواداي التي يشكلون جل سكانها . ولوحظ مع انتشار الإسلام في المنطقة تباهي بعض فصائل «المابا» بأصلها العربي . وتنامت هـذه النزعـة من بعد في أوسـاط «المابـا» معززة باختلاط أعراق فعلي ، حيث اختلطت أقوام من العرب بالسكان ، واندمجوا فيهم اجتماعياً، وانتشرت اللغة العربية في القبائل الإفريقية ، فتكون بذلك «شعب» عربي يدعى «الهبريون». ويقول بعض الباحثين: إن قادة العشائر في «المابا» كانوا يحرصون على الانتساب إلى أرومة عربية ، وأنهم يذهبون في ذلـك عادة إلى الانتمـاء إلى الرسـول ﷺ أو إلى أحد الخلفـاء الأربعـة . وعموماً، فقد أصبح المابيون (نسبة إلى المابا) كلهم مصرين على الانتماء إلى العرب ، والتحدث بلغتهم ، والبحث عن كل ما يقربهم إلى الشعوب العربية أو الإسلامية(1) .

وفي المناطق الإفريقيـة المجاورة لمـوريتانيـا ، امتزج الـدم العربي الصنهاجي بالدم الإفريقي منذ عهود بعيدة ، وحرصت شعوب وقبائل إفريقية احتضنت الإسلام على تأكيد نسبتها العربية والارتفاع بها أحياناً إلى أصول محددة ، مثل الانتساب إلى الفاتح عقبة بن نافع الفهري ، أو إلى أمراء أو أفراد نازحين من مصر أو سوريا أو الجزيرة العربية أو ليبيا .

وينتسب اندادیان انجاي ، أول ملوك «والو» إلى أمير المرابطين أبي بكر بن عامر من زوجة إفريقية له . وينتسب التكارير والفلان المنتشرون حول ضفاف نهر السنغال ، ومنها إلى نيجيريا ، إلى أصول عربية . وهم مجموعة بشرية كبيـرة ذات تاريـخ عريق وإسهـام جليل في نشـر الإسلام والثقـافة العربية . وألوانهم فاتحة تميل إلى السمرة مما يرجح أن يكونوا ثمرة امتزاج عرقين : إفريقي وعربي ؛ ومن هؤلاء قبيلة تعرف عند الشناقطة (الموريتانيين) باسم « أهل راشد »، وتتعرف هي ، ويعرفها التكارير ، باسم «دمنتاب» نسبة

(1) D. Dramani- issifou - in: Les relation entre les langues africaines et la langue arabe/ ALECSO - p 46-47.

إلى قرية من قراهم «دمت» . وفي تراثهم الشعبي أن «دمت» هي تحريف لكلمة «دمشق» أو «دمياط» وأن أسلافهم نزحوا من دمشق ، ونزلوا أرض فلسطين ثم ارتحلوا منها إلى بور سعيد فالإسكندرية فتونس ، فالسوس من أعمال المغرب، ومنها افترقوا فرقتين : توجهت إحداهما صوب السودان «مالي» فنزلت أرض «ماسي» وبها سموا ماسنة ، وتوجهت الأخرى نحو مدينة شنقيط فمكثت بها أربع سنوات ، ثم ارتحلت إلى «تندكسم» وضواحيها في أرض «القبلة» (جنوب موريتانيا) حيث مكثوا قرناً ، ثم امتدت رحلتهم شيئاً قليلاً باتجاه نهر السنغال فنزلوا «دمت» ومنها أخذوا اسمهم .

وإلى الفاتح عقبة بن نافع الفهري، فيما يذكر، تنتسب أسرة «آل نياس» السنغالية ، ذائعة الصيت ، وهي التي ينحدر منها شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم نياس الكولخي . وكان والده الحاج عبد الله نياس من أجلّ علماء السنغال في عهده . وكان أخوه الحاج محمد نياس ـ وهو عالم جليل وشاعر مفلق ـ يقول : « نحن عرب سودتنا الأمهات »، ويستدل مادحهم بشمائلهم على عروبتهم :

أبناء انياس قد دلت شمائلهم
بأن عنصرهم ينمى إلى العرب[1]

وقد زوّج الشيخ إبراهيم نياس جلّ بناته لعرب موريتانيين .

ولم يفتأ أعيان الموريتانيين يتزوجون من نساء إفريقيات ، فالشيخ محمد المامي (1292 هـ) تزوج مباركة بنت الشيخ عمر الفوتي . والشيخ أحمد حماه الله ، وهو من أوسع مشايخ مطلع القرن العشرين الميلادي ، أثراً في إفريقيا، وأصلبهم عوداً في مواجهة الاستعمار الفرنسي ، ولد لأب عربي وأم فلانية[2] .

ويذكر والد بن خالنا (1212 هـ) أن أحد أبناء الشريف سيدي إلياس

(1) الخليل النحوي/ بلاد شنقيط . ص 263, 264.
(2) البصائر ـ عدد 2 ـ جمادى 2 ـ 1412 هـ .

الولاتي خرج إلى أرض السنغال وتزوج بها إحدى النساء الإفريقيات ، فكانت جدة للعالم عبد الله دينغ (دينغ : العالم)، والد المقرىء مودي مالك الذي دخل بلاد شنقيط (موريتانيا) موطن جده الأكبر، فأقام بها يدرس القرآن، في القرن الحادي عشر الهجري ، وبرز من صلبه علماء كثر . وقد تزوج أمير الترارزة (جنوب موريتانيا) محمد الحبيب بن أعمر أميرة والو الإفريقية جمبت ، فولد له منها ابنه الأمير اعلي[1] .

ومن شأن علاقات من هذا النوع ، مدعومة بالهجرات البشرية المتصلة ، أن تثمر في ذات الوقت حركتي استعراب وتأفرق . فقد « تأفرق » عرب كثيرون، نزلوا بلاد الأفارقة، فانصهروا فيهم، مندمجين كلياً في البيئة الثقافية والاجتماعية الإفريقية أو مكونين وإياها سلالة جديدة ، ذات خصائص مميزة .

فقد ذاب عرب بني كنز في نوبيي شمال السودان[2] ، وكان السواحيليون والفلان والهوسة واليوروبيون مزيجاً - فيما يرى المؤرخون - من العرب والأفارقة، بحيث أن أقواماً من العرب قد انصهروا في المجتمع الإفريقي الذي نزحوا إليه . وقد هاجرت أحياء عربية من موريتانيا إلى السنغال ، فتوطنت هذا البلد. وكان منها أحياء من قبائل : إدولحاج والترارزة والبراكنة وإدوعيش واكمليلن والمثلوثة وتاشدبيت والركاكنة ، وطوائف أخرى من أولاد أبي السباع وكنته وادوعلي والقلاقمة . وقد انصهر جلّ هؤلاء في المجتمع السنغالي ، حتى فقدوا سحنتهم ولغتهم العربيتين ، وتسموا أسماء محلية مثل دار مانكور (ومعناها الاتحاد) وسوغوفارا ودياخومبا . . . إلخ .

حقاً ! كان الإسلام إكسيراً لصهر المجتمعات ولم تكن حركة الاستعراب في إفريقيا ، إلا مظهراً لتعلق الأفارقة بهذا الدين الذي ساوى بين الناس ، وألّف بينهم في كنف الإخاء والمودة ، فجمعهم على بساط واحد،

---

(1) النحوي ، م س ـ ص 264 .
(2) مدثر عبد الرحيم في (دراسات إفريقية عدد 1 ، رجب 1405 هـ) .

لذلك كان التأفرق، في أوساط العرب، توأماً طبيعياً للاستعراب في أوساط الأفارقة .

وفي ذلك يقول د . ادوارد بلايدن ، وهو مسيحي إفريقي، وأحد الأباء المؤسسين للقومية الإفريقية : « إن الديانة المحمدية تبحث عن الإنسان في حقيقته فتتجاوز العرض إلى الجوهر ، وتترك الطّارىء للباقي . ولذلك فإنها تخمد كل نعرات التمييز القائمة على العنصر واللون والجنسية ، فالإفريقي يجد في الدين الإسلامي أعظم العزاء وكل الحماية » .

ويقارن بلايدن بين الإسلام والمسيحية قائلاً : « أعتقد أن الإسلام قد قدم لمجموعات كبيرة من القبائل الإفريقية ما عجزت المسيحية على أيدي الأوروبيين عن مضاهاته حتى الآن[1] .

وبنفس المنطق يتحدث الكاتب الكيني بارميناس موكيري : «علّمت المحمدية الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام أن الشعائر الدينية تستطيع أن تساوي بين الأجناس وتجعلها تعيش كإخوة . فالمسلمون الهنود والعرب مثلاً لا يشجعون قيام مساجد مختلفة بين الأجناس ، بينما شيد المبشرون المسيحيون كنائس منفصلة للأفارقة والأوروبيين عندما بدأ تأثيرهم يحس في كينيا[2] .

هذا ولعل المظهر الأهم لحركة الاستعراب في إفريقيا ينجلي بوضوح أكبر عندما ننظر في أوضاع اللغة العربية وآثارها في القارة .

---

(1) ن . م في (دراسات إفريقية عدد 5 ، ربيع 1 ـ 1410 هـ) .

(2) ن . م في (دراسات إفريقية ، عدد 1 . . . . .) .

المبحث الثاني

اللغة العربية في إفريقيا

كانت اللغة العربية ، قبل الإسلام ، لغة قوم ، تتوزع بهم إلى لغات قبائل . وكان ظهور الإسلام انقلاباً كبيراً في تاريخ اللغة العربية ، فقد أخذت لغات القبائل العربية تتجمع وتنصهر في لغة واحدة . ولكن اللغة الواحدة الجامعة ، لم تعد لغة قوم ، بل أصبحت لغة إنسانية ، لا يختص بها قوم دون قوم ، منذ أن اختارها الله مفصحة عن خطابه الأزلي للناس أجمعين . فمن قبل كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، فإذا نزلت عليه صحف أو كتاب من الكتب السماوية ينزل ما نزل بلغة قومه ، أما وقد بعث محمد بن عبد الله ﷺ للناس كافة ، ونزل عليه القرآن بلسان عربي مبين ، فقد حُرِّرت اللغة العربية من الطوق الجغرافي والبشري ، الذي كانت فيه لسان قوم دون قوم ، ورفع الله من شأنها لتكون لغة إنسانية تحمل دعوة التوحيد ، والكلمة الطيبة ، والحكمة النافعة ، والقيمة الفاضلة إلى البشرية جمعاء . . .

لذلك لا نخطىء حين نقول إن لِلُّغَة العربية هذه الميزة النادرة ، إنها لغة كونية لا يجسد انتشارها سلطان قوم وسطوتهم على غيرهم ، ولا يعكس سلطانها نزوع عرق من الأعراق للتفوق والهيمنة على غيره ، وإنما تعلو بكلمة الله وتعلو بها كلمة الله ، وتتوثق بها علائق الوحدة والوئام بين الشعوب والأعراق المختلفة ، وترتاد بها الأمم ـ وقد كان ذلك فيما سبق ـ آفاق العلم والمعرفة والسبق الحضاري .

ولأنها كذلك ، انفردت اللغة العربية عن غيرها من لغات العالم بحياة متصلة وحيوية دائمة تطوي القرون والمسافات ، فتختصر أبعاد الزمان والمكان لتصل بين أقوام شتى في بلاد شتى ، ولتربط الماضي البعيد بالحاضر المعيش ، حتى إن السلف ليتحدث إلى الخلف ـ وبينهم القرون ـ حديث المعاصر إلى معاصره ، ذلك أنها لغة محفوظة بالقرآن ﴿ إنا نحن نزلنا

الذكر وإنا له لحافظون ﴾ . . أما اللغات التي نزلت بها الكتب السماوية السابقة ، فقد انحسر ظلها جميعاً، وانزوت بعيداً، لئلا يبقى من اللغات التي نزل بها الوحي ، إلا لغة حية واحدة ، شاهدة بأن الإسلام هو الدين الخاتم الناسخ للأديان كلها . . لغة كونية لدين كوني . .

وقد ورد في الأثر أن النبي ﷺ قال ما معناه : ليست العربية من أحدكم بأم ولا بأب ، وإنما العربية اللسان. . . من تكلم العربية فهو عربي .

وبخاصيتها هذه أتيح للغة العربية أن تسود العالم وتعلو على لغات الشعوب والأمم الأخرى ، لتكون لغة الحضارة البشرية الأولى لحقب طويلة . فمنذ أن نزل بها القرآن، وقبل أن ينقضي قرن واحد « أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والأرامية واليونانية والقبطية (. . . . .) وفي القرن الثالث الهجري تحولت إليها كل أعمال الدين والدواوين ثم كتبت بها (بحروفها) اللغات التركية والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودانية والإيجية والساحلية كما كتبت بها لغة أهل الملايو »[1] .

وعلى ما كان من عداء المستشرق أرنست رينان للإسلام ، فقد صدع بهذه الحقيقة مستغرباً شاكياً: « إن أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره : انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء ذي بدء، فبدأت في غاية الكمال سلسة أي سلاسة غنية أي غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومها هذا أي تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة . ظهرت لأول أمرها تامة محكمة، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى . ومن أغرب المدهشات أن نبتت تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها ، نبتت في وسط الصحارى عند أمة من الرحل . وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم . ومن يوم علمت ظهرت لنا في أطوار حياتها لا طفولة لها ولا شيخوخة ، ولا تكاد تعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى . ولا نعلم شيئاً عن هذه اللغة

(1) أنور الجندي/ اللغة العربية . . . . ص 7 .

التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة»[1] .

ويتلمس جان وسيمون لاكوتير سر انتشار اللغة العربية وعظمتها حين يقولان : « العربية ليست عرقاً ولا وطناً ولا شعباً ، وإنما هي لغة برزت مسلحة بكتاب عظيم مقدس ، يتلوه الناس . . . . »[2] .

إن لغة هذا شأنها « ليست بلغة إخضاع واستلحاق ، وإنما هي لغة تكوّن الناس وتحررهم »[3] . وبذلك كانت طريقها إلى إفريقيا سالكة ، قبل أن تعترض سبيلها لغات ولدت بعدها بقرون وانتشرت بحد السيف .

لغـة إفريقيـا الأولى

لا يجد بعض الكتاب الأفارقة[4] أي حرج في وصف «المجتمعات الإفـريقيـة التقليـديـة» بـأنهـا «هشـة ثقـافيـاً ممـزقـة». . وفي ذلـك بعض الحقيقة . فبالنظر إلى عدد اللغات واللهجات المنطوقة في إفريقيا ، لا نكاد نجد أساساً ثقافياً للوحدة الإفريقية التي ينادي بها الساسة والمثقفون » .

فهنـاك أكثر من 600 لغـة يتحدثهـا سكان القـارة ، فضلاً عن آلاف اللهجات التي لا يتكلمها أحياناً إلا مجموعات صغيرة تحسب بالمئات[5] .

ولنشر على سبيل المثال إلى 350 لغة في زائير ، بينها 4 لغات فقط يتحدثها عدد كبير من سكان البلد : السواحيلية ولينغالا Lingala والكيكونغو Ki-Kongo وتشيليبا Tshiluba[6] .

---

(1) ن م . . . . ص 6 ، 7 .

(2) L'égypte en mutation P 3

(3) Mamadou Dia/ Islam et Civilisations Negro-Africaines P. 37.

(4) كي زربو ـ انظر V. Monteil/ Islam noir P. 53.

(5) M. Cornevin/ Histoire de L'Afrique P. 349.

(6) Monteil P. 325 .

وفي غانا تمَّ إحصاء ما بين 47 و62 لغة وأكثر من 800 لهجة . وهناك 150 لغة صغيرة في نيجيريا ، و72 لغة في ساحل العاج و62 لغة في الكاميرون[1] .

إن هذا الواقع يؤكد الحاجة إلى لغة أو لغات كبرى تجمع الشتات وتمد جسور الخطاب والتواصل الثقافي بين المجموعات العرقية واللغوية ، المختلفة . وقبل أن تتطلع اللغات الغربية إلى هذا الدور وتحاول انتزاعه كانت اللغة العربية قد تبوأت ، بجدارة ، مكانة اللغة الأولى ، الموحدة الجامعة ، في عدد كبير من أقطار إفريقيا . وتمَّ لها ذلك بسيرورتها المباشرة وانتشارها الكبير في القارة ، ثم بإسهامها الخاص في تكوين اللغات الإفريقية الكبرى وتنميتها ورعايتها رعاية الأم الحنون .

ولا يهمنا في هذا المقام أن نتتبع الجذور البعيدة لحضور اللغة العربية في إفريقيا ، سواء من خلال تاريخ السلالات اللغوية الكبرى والرحم التي تجمع بينها وبين الأمهرية (الحبشية) مثلاً ، أو من خلال الاقتراض المتبادل ، لمفردات اللغة ، وما كان للتجارة من دور في التواصل الثقافي في عهود سحيقة . إنما يهمنا هنا موقع اللغة العربية الذي كان لها بعد أن نزل بها الوحي وشرفت بحمل رسالة الله إلى الناس جميعاً . فقد كان ظهور الإسلام مولد اللغة العربية الأكبر ، وبه كان لها أن تخرج حدود الجزيرة العربية لغة تلم شتات الشعوب والأمم .

لقد هاجر العرب إلى إفريقيا فاتحين منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ر) فكان فتح مصر ثم كان فتح إفريقية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (ر) ثم توالت الفتوحات لتصل ، ولما يمضِ قرن على فتح مصر ، إلى تخوم بلاد السودان، وسرعان ما تحولت الشعوب والقبائل التي تقطن شمال إفريقيا وجزءاً من شرقها وغربها إلى شعوب مستعربة ، اتخذت اللغة العربية، لا لغة عبادة فحسب، وإنما لغة خطاب وتواصل في شؤون الحياة كلها . . وكانت تلك إحدى معجزات اللغة العربية بحق ، فما كتب

(1) ن م P. 276 .

للغة من لغات الأمم الأخرى أن تسود وتنتشر بهذه السرعة ، وما حظيت لغة من لغات الأمم الأخرى بالحب والترحاب الذي حظيت به اللغة العربية في مواطنها الجديدة . . والملمون بتاريخ إفريقيا يدركون أن حجم هجرة العرب ـ ولم يكونوا كثراً إذ ذاك ـ غير كافٍ لتحقيق الانقلاب الثقافي الكبير الذي حصل في المنطقة ، فلا عددهم كان أربى من عـدد الأقوام الـذين عمروا الأرض قبلهم، ولا هم عمدوا إلي إبادة هؤلاء، لينفردوا بالأرض دونهم، ولم يكونوا يحملون الناس على العربية بالسيف حتى يتحدثوا بها حديث الأقحاح من أبنائها وينسلخوا من لغات آبائهم وأجدادهم ؛ بل إن ما حدث كان تعرباً جماعياً طوعياً مدفوعاً بحرارة الإيمان معززاً بالألفة الحميمة في ظل الإسلام بين العرب وغيرهم من الأقوام والشعوب .

وبهذا الإنقلاب الثقافي الكبير ـ وليس بالهجرات البشـرية وحـدها ـ أصبحت إفريقيا موطن جل العرب اليوم ، فثـلاثة أربـاع العرب ـ تقـريباً ـ أفارقة ، ونحو 28% من الأفارقة عرب . ويشغل الوطن العربي اليوم مساحة 13,700,000 كم^2 ، منهـا 3,500,000 كم^2 فقط في آسيا . وبـذلك أصبحت اللغة العربية أكبر اللغات وأوسعها انتشاراً في القارة . . ولم يفتأ موقعها يتعزز في ربوع إفريقيا المسلمة غيـر العربيـة ، حيث كانت لغـة العبادة والإدارة والتجارة والحضارة بوجه عام .

وفي ذلك يقول توماس أرنولد: « إن اللغة العربية ، وهي لغة الديانة الإسلامية قد بلغت حداً يفوق كل وصف » فقد « أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الإفريقية »[1] . . .

وقد نشط الأفارقة أنفسهم في نشر اللغة العربية وتعليمها ونشر المعارف بها . فلم يعتبروا ذات يوم ـ فيما قبل الاستعمار ـ أن نشر اللغة العربية شأن العرب دون غيرهم . . ولهذا انتشرت العربية حيث لا يوجد القحطانيون ولا العدنانيون ، وفي مساحات واسعة من إفريقيا ومن العالم .

ولعلّ مما يؤكد عمق حضور اللغة العربية في إفريقيا خاصة أن نجد لها

---

(1) انظر : أنور الجندي / العالم الإسلامي والاستعمار . . . ص 371 .

بصمات واضحة في لغات تتحدثها شعوب لا يشكل المسلمون منها إلاَّ نسبة قليلة . فقد تناول عدد من الباحثين أثر اللغة العربية في اللغة الملغاشية . وجمع حلمي شعراوي نماذج مما كتب حول هذه العلاقة ، معززة بمشاهدات ميدانية .

ولئن كان حضور المسلمين اليوم ضعيفاً في جزيرة مدغشقر ، إذ لا تتعدى نسبتهم 7,7% من السكان حسب بعض التقديرات ، فإن الشواهد ما تزال قائمة على قوة حضور عتيد للغة العربية في الملغاشية . . وقد ذكر « أن أول حاكم فرنسي لقلعة فورت دوفين بالجنوب الملغاشي عام 1648 قد أدهشه استعمال الملغاشيين للعربية فكتب يقول : إن الملغاشية ترتبط كثيراً بالعربية ، وقدم بهذا الانطباع قاموسه للملغاشية (1658 م) وأن معاصراً له هو يوتوبي ذكر أن الملغاشيين يتحدثون العربية ، وذكر آخرون (1722 م) أن المغاشية مشتقة من العربية بسبب التشابه الكبير الذي يلاحظونه بين اللغتين » .

ويبدو تأثير اللغة العربية واضحاً في مجالات عديدة منها :

ـ مصطلحات التجارة : الميزان ـ الكيس ـ وجاهة .

ـ أسماء أيام الأسبوع : السبتوس، الأحدي، الاتسينيني، الثلاثا، الأربعاء، الخميس، الزّوما .

ـ تسمية الأشهر الاثني عشر بالأسماء العربية للبروج الفلكية : الحمدي (الحمل) ، ادااورو (الثور) ، الجاوز (الجوزاء) ، أسورتاني (السرطان) ، الهاساتي (الأسد) ، أسنبلا (السنبلة) ، أد ميزان (الميزان) ، ألكربا (العقرب) ، ألكاسوي (القوس) ، أديزدي (الجدي) ، الدّلو (الدلو) ، الحوتسي (الحوت) .

كما نجد مفردات عربية مثل بلادي (بلاد) ، سكاني (سكان) ، فازيري بي (وزير ـ حاكم)، مربي (مرأة) ، سيكيلي (أشكال) ، أرحاب (مرحبا) ، كراما (كرامة) ، بندقية ، عبلي (عبد) .

وتشهد تسمية الكُتّاب في الملغاشية بـ «كاتب» Katibo ، على النشأة

العربية للكتابة والثقافة القلمية في تلك البلاد .

وقد ظلت الملغاشية ، قروناً طويلة ، تكتب بالأبجدية العربية[1] .

وإلى ذلك كان عطاء العربية موفوراً فيما يسرت للغات الإسلامية الإفريقية الكبرى من أسباب النماء . ففي ظل الإسلام تكونت لغات إفريقية رضعت من لبان العربية .

اللغات الإفريقية الكبرى :

كان للإسلام الأثر البالغ في تنمية اللغات الإفريقية ، وتيسير التواصل بين مجموعات كبيرة من أبناء القارة ، ففي كنف الدين الحنيف تكونت وتنامت لغات جامعة ، هي إلى اليوم، أوسع اللغات الإفريقية انتشاراً وأرسخها قدماً في تاريخ الإنسان الإفريقي ، وأعلقها بوجدانه ، وأمكنها في حياته اليومية .

ولنضرب لذلك مثلاً بست لغات كبرى هي : السواحيلية والهوسية والفلانية واليوروبية والماندنكية والولفية . فهي لغات تحمل كلها بصمة الإسلام ولغة القرآن ، وتشترك في أنها لغات اتصال في أكثر من بلد إفريقي ، وإن كانت تتوزع أحياناً إلى لهجات تختلف من بلد إلى بلد .

ولننظر أولاً في التوزيع الجغرافي لهذه اللغات لنتبين مدى انتشارها :

ـ فالسواحيلية : لغة واسعة الانتشار في أقاليم تمتد من شرق إفريقيا إلى غربها . فهي اللغة الوطنية الرسمية الوحيدة في تنزانيا التي يربو عدد سكانها على 27 مليون نسمة (تقديرات الأمم المتحدة لعام 1990) . وكان لها دور أساسي في توحيد هذا البلد الذي أحصيت فيه 120 مجموعة لغوية ، منذ أن قررت الحكومة سنة 1967 اعتبارها اللغة الوطنية الوحيدة . وهي اللغة الرسمية في أوغندا منذ سنة 1973 وفي كينيا منذ سنة 1974 . وهي لغة منتشرة في زايير ، وبها تصدر الصحافة هناك ، وتتحدث الإذاعة ، وبها تتحدث

---

(1) حلمي شعراوي/ مدغشقر . . . وانظر : إفريقيا ، كتاب غير دوري/ عدد 2 . . يوليو 1988 ص 56 . . . .

مجموعات بشرية في شرق الكونغو وزامبيا (روديسيا الشمالية سابقاً) ، وجزر القمر ومدغشقر وبعض سكان مقديشو . ولسعة انتشارها دعا الأديب النيجيري سوينكا Wolesoyinka إلى تعليمها في إفريقيا كلها . (فهي تبدو اللغة الثانية للقارة بعد اللغة العربية) .

وتدرس السواحيلية في 12 جامعة أوروبية بفرنسا وألمانيا وبريطانيا وبولونيا وإيطاليا وهولندا ورومانيا والسويد وسويسرا[1] .

ـ والهوسا : لغة اتصال منتشرة في نيجيريا والنيجر والكاميرون ، والسودان وغانا ، وهي لغة قضاء وإدارة وتعليم في شمال نيجيريا . وتدرس في 10 مؤسسات جامعية أوروبية بألمانيا وفرنسا وبريطانيا وهولندا وبولونيا ورومانيا وسويسرا[2] .

ـ والفلانية : لغة ذات لهجات تختلف تسمياتها باختلاف المناطق والشعوب التي تتحدثها ، ومن أشهر تسمياتها الأخرى «البولارية» و«الفلفلدي» وبالفلانية على اختلاف لهجاتها تتحدث أقوام وشعوب كثيرة في غينيا والسنغال وسيراليون وغامبيا ومالي وبوركينا فاسو (فولتا العليا) والنيجر ونيجيريا والكاميرون وتشاد وموريتانيا ، وغيرها؛ وهي تدرس في ثلاث جامعات بألمانيا وفرنسا وبريطانيا[3] .

ـ اليوروبية : هي لغة اليوروبيين وهم واحدة من أكبر المجموعات البشرية بنيجيريا ، ومنهم أقوام يوجدون في بنين وتوغو . ولئن لم تكن هذه اللغة منتشرة في مجموعة من بلدان إفريقيا فإن عدد المتكلمين بها في نيجيريا

---

(1) انظر : - Cornevin, - P. 50.

- J. Cuoq/ Histoire de l'Islamisation de L'Afrique de l'Ouest - P. 284.

- V. Monteil - P 284.

وانظر : أحمد العايد في (العربية في اللغات الإفريقية/ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ ص 122).

(2) انظر أحمد العايد ، ويوسف الخليفة أبوبكر في (العربية في اللغات الإفريقية ـ ص 122 و 21) و V. Monteil- P. 284 .

(3) انظر : أحمد العايد وأبو بكر خالد با في (العربية. . . م س ، ص 122 و 52 ، 53).

وبنين يقدر بما يربو على 20 مليون شخص . وتتفرع هذه اللغة بدورها إلى لهجات كثيرة[1] .

ـ الماندينكية MANDINGNE : لغة اتصال منتشرة في مالي وغينيا وساحل العاج والسنغال وغامبيا وسيراليون وليبيريا وغينيا بيساو وبوركينافاسو ، وهي ذات لهجات كثيرة منها البمبارا ، وديانغرتي ، وكالونغو ، وكوغورو والمالنكية والبمبارية وديولا .

وكانت في عهد امبراطورية مالي ، قديماً ، لغة إدارة وتجارة ويبلغ عدد الذين يتكلمون الماندينكية اليوم ، بمختلف لهجاتها أكثر من 5 ملايين شخص[2] .

ـ الولفية : تنتشر الولفية ، بشكل خاص في السنغال وغامبيا حيث تتحدث بها أغلبية السكان . وتكتسي أهميتها الخاصة ، في سياق عملنا هذا من المكانة المتميزة للإسلام وثقافته في هذين البلدين ، فضلاً عن احتكاكها الخاص باللغة العربية بحكم الجوار مع موريتانيا . وتوجد في موريتانيا ذاتها مجموعة من الولوف الناطقين بهذه اللغة .

وهكذا يتبين أن اللغات الست المذكورة أعلاه تغطي أغلب مناطق القارة الإفريقية ، وتحتل موقع الصدارة بين لغاتها ، وسنعود إليها لغة لغة لنستطلع في إيجاز بعض مظاهر القرابة اللغوية بينها وبين العربية .

ـ السواحلية :

تختلف الآراء حول نشأة اللغة السواحلية ، ولكنها تكاد تجمع على أنها ثمرة امتزاج اللغة العربية ببعض لغات البانتو أو اللهجات الإفريقية التي كان يتحدث بها سكان شرق إفريقيا . وكان للعرب ، وهم يؤدون الأعمال التجارية والإدارية في المنطقة ، دور مشهود في نشر السواحلية في أقاليم

---

(1) I.A. Ogunbiyi in/ The relations between African languages and arabic language/ ALECSO - P 132.

(2) انظر : يوسف الخليفة وأحمد دياب وأحمد العايد في (العربية. . . م س ـ ص 21 و 105 و 121) .

واسعة تمتد على طول الساحل الشرقي إلى موزمبيق جنوباً ، وتذهب في عمق القارة غرباً إلى منطقة كاتنغا في زائير . وكان طبيعياً أن تترك العربية آثارها في هذه اللغة التي ساهم العرب أنفسهم في نشرها . وتتفاوت الإحصاءات (أو التقديرات) بشأن نسبة المفردات ذات الأصول العربية في السواحلية . فبينما نجد بعض الباحثين يحددون نسباً متدرجة من 20% في لغة التخاطب إلى 30% في السواحلية المكتوبة إلى 50 % في لغة الشعر السواحلي القديم ، نجد آخرين يميلون إلى الاقتصاد في التقدير ، فيرجحون أن تكون نسبة 72,01% من مفردات السواحلية مقتبسة من لغة البانتو ، بينما تقتصر نسبة المفردات المقترضة من العربية على 22,09% . وهي ـ في واقع الأمر ـ نسبة كافية لتبيان قوة العلاقة بين اللغتين ، خاصة إذا لاحظنا أن أثر اللغات الأخرى : الإنجليزية والفارسية والبرتغالية والهندية مجتمعة لا يتعدى نسبة 6% .

ويمكن أن نسوق ـ تمثيلاً ـ جملة من المفردات المقتبسة من العربية والعائدة إلى حقول وظيفية دلالية مختلفة :

دكان Duka ، تاجر Mtajiri ، مال Mali ، غالي Ghali ، سوق Soko ، رخيص Rahisi ، بيع (و) شراء Biashara (تجارة)، عيب Aibu ، إكرام Akram ، عاشق Ashiki ، خطيئة Hatia ، حكاية Hikaya ، هبة Hiba ، جلال Jalili ، محكمة Mohakma ، غفلة Ghafula ، حق Haki ، نعمة Neema ، عابر Abiri ، نفس Nafasi ، ورقة Waraka ، غرامة Gharama ، غرفة Ghorofa ، دواء Madawa ، نشاط Nishati ، مادة Maada ، معقولات Maakuli ، عرس Arusi ، سياسة Siyasa ، جمهورية Gamhuri ، رئيس Raisi ، رأس المال Rasilimali ، جيش Jeshi ، جماعة Jamii ، تعريف Taarifa ، طائفة Taifa ، كاتب Katiba (بمعنى دستور) ، تحقيق Hakiki ، علامة Alama ، ظن Dhana ، ذهني Dhahania . وتوجد في السواحلية كذلك أسماء بعض الأعداد مثل ستة وسبعة وتسعة والعقود من العشرين إلى التسعين ، والمائة والألف ، وكلمات مثل كما ، ولكن ،

وحتى ، وبلا ، وقبل ، وبعد ، وبعض ، وكل[1] . . .

الهوسية :

اقترضت الهوسية من اللغة العربية الفصيحة ومن اللهجات العربية الدارجة معاً ، تحت تأثير انتشار الإسلام وحركة التجارة في القارة .

وقد لاحظ الأستاذ عبد القادر بن الشيخ أن التشابه بين الهوسية والعربية لا يقف عند حد اقتراض المفردات ، بل يتناول البنية الصرفية أيضاً ، وضرب لذلك من الأمثلة ما نحن موردون بعضه. فهناك تشابه في بناء الفعل المضارع من الفعل الماضي ، إذ تسبق المضارع (المستقبل) الأداة الهوسية za الشبيهة بالأداة العربية (سـ) . ويبنى المؤنث من المذكر بلاحقة تشبه نظيرتها في العربية . فاللاحقة iya - a في الهوسية تشبه اللاحقة ـة أو ـ ية في العربية . مثال ذلك في الهوسية : Bahausha للمذكر ـ Bahauahsiya للمؤنث (بهوش ـ بهوشية : هوسي ـ هوسية) ، و Mahaifi للأب و Mahaifya للأم (والد ـ والدة) و Majemi (دَبّاغ) ـ Majemiya (دباغة) . وتشترك الهوسية أيضاً مع العربية في البناء الجذري لكل منهما، حيث تشتق من الجذر الواحد مفردات كثيرة ، تتعدد معانيها باختلاف الزيادات التي تطرأ على جذرها . وتستعمل الهوسية تضعيف حرف من الفعل لتقوية المعنى ، كما يحدث في تضعيف عين الفعل العربي ففي نحو كسر ـ كسّر نجد في الهوسية Kakkarye-karye (كري ـ ككري) . وتوجد في الهوسية صيغتا جمع التكسير والجمع السالم . ومن بين اللواحق الدالة على الجمع لاحقة (أُنَ una) الشبيهة بأداة جمع المذكر السالم في العربية (ـ ون)، ففي نحو سركي (Sarki) بمعنى رئيس نجد الجمع : سراكـ ؤن (Sarak-una) .

وتستخدم الهوسية السابقة : (مـ) على نحو ما تستخدمها العربية في بناء أسماء الآلة (بود Bude بمعنى فتح بُنِيت منها ma-budi بمعنى مفتاح) ، والمكان (كرنتا Karanta بمعنى قرأ ودرس ، ومنها مكرنْتا ma-karanta بمعنى «مقرأ» = مدرسة) والمصادر الميمية (فارَ Fara بمعنى بدأ ، منها :

(1) انظر : سيد حامد حريز في (العربية. . . م س ـ ص 82-91) و Mohamed. H. Abdelaziz in/ The relations... p 71-77.

مفار ma-fari بمعنى مبدأ) ، وكذلك يستخدم الميم في بناء اسمي الفاعل والمفعول في الهوسية ، كما هو الشأن في العربية .

ويرى أحمد إبراهيم دياب أن الشعر الهوسي متأثر كثيراً بنموذج الشعر العربي . وفي اللغة الهوسية مفردات كثيرة مقترضة من اللغة العربية ، فصيحها وعاميها . من ذلك على سبيل المثال : جاهل (في الهوسية جاهيلي) ، قرأ (Karanta) ، الخلق (Halika) ، البصل (Albasa) ، السكر (Sukar) ، الصندل (Sandal) ، صابون (Sabulu) ، القبر (Kabari) ، المجلس (Majalisa) ، العادة (Al'ada) ، الجمعة (Juma'a) ، الأحد (Lahadi) ، القلم (Al kalami) ، المقص (Al makashi) ، الرصاص (Pharsashi) ، اللؤلؤ (Lu'lu'u) ، الكعك (Al kaki) ، الخبز (Al khubuz) ، الطاقية (Tagiya) ، اللجام (Linzami) ، الحلاوة (Alewa) ، الكتان (Kittani) ، الصندوق (Sanduki) ، البارود (Albarushi) ، الفندق (Alfindiki) ، الطاسة (Tasa) [1] .

الفلانية :

الفلانية هي ـ كما ألمحنا إلى ذلك من قبل ـ لغة واسعة الانتشار ، تتعدد تسمياتها (البولارية ـ الفولفلدي ـ الفلانية . . . إلخ)، وتختلف لهجاتها من منطقة إلى منطقة. وهي لغة عريقة غنية ، اختلف الباحثون ، في تحديد أصلها ، في نشأتها الأولى ، اختلافاً لا حاجة بنا للخوض فيه في هذا المقام . ويعتز الفلانيون بلغتهم هذه اعتزازاً كبيراً ، نلمس أثره عند الشيخ عبد الله فودي الذي قال : إن على الفلانيين ألا يهجروا لغتهم أبداً ، مؤكداً أن مثل من يهجر لغته ليُعْنَى بلغة أخرى ـ غير العربية ـ مثل من يهمل والديه ويهتم بوالدي غيره . ويرى الشيخ عبد الله أن بين اللغتين الفلانية والعربية تشابهاً كبيراً. ويذهب في ذلك، بدءاً ، إلى أن مصطلح «الفلاتة» الذي يطلق أيضاً على الفلان (أو الفلانيين)، هو مصطلح عربي مشتق من الجذر العربي (فلت) ، فهم قوم يفلتون ، فينجون بأنفسهم عندما يرون ما يسوؤهم .

---

(1) انظر : أحمد دياب في (العربية. . . . م س ـ ص 113 ، 114) و Abdelkader Ben Cheikh in/ Les relations... P 27-30.

وقد نقل أحمد دياب عن الشيخ عبد الله قائمة تتضمن جزءاً من رصيد المقترضات العربية في اللغة الفلانية ، منها : مودبو (من العربية مؤدب) ، دفتري (دفتر) ، دواء، أفام (فهم) ، سدم (سد) ، قبري (القبر) ، اسما (السماء) ، فجري (الفجر) ، حقي (الحق) ، حسيدي (الحسود) ، مصيبة (المصيبة) ، سبابو (السبب) ، است (السبت) ، الت (الأحد) ، التين (الاثنين) ، تلاتا (الثلاثاء)، الربع (الأربعاء) ، الخميسا (الخميس) ، هيبا (الهيبة) ، إلا (العلة) ، فايدا (الفائدة) ، تاريخ ، الرزق .

وتحدث الأستاذ أبو بكر خالد با عن أثر اللغة العربية في البولارية المنطوقة في منطقة فوتا بحوض نهر السنغال ، موضحاً أن للعربية تأثيراً مماثلاً أو أكبر في لهجة سكان فوتا جاللو (غينيا). ومن المفردات العربية التي أوردها الأستاذ أبو بكر : أسماء أيام الأسبوع عدا السبت ، وكلمات أخرى منها : أولا ، آلا (من العربية : لا) ، لاجل (الأجل) ، أبداً ، برص ، بحر Baar (من بحر الشعر) ، بيتي (بيت) ، آلبنونا (البنون)، بورو (البوار) ، تاريخ ، تمّي (ثم)، سيّبو (ثيب)، جيبَ (جيب) ، جماعة ، جنايزا (جنازة) ، جيبه (جيفه) ، جدًّا ، هيسا (حساب)، هكيكة (حقيقة)، هاجّو (حاجة) ، هرمة (حرمة) ، هرفير (حرف) ، هار (حرب) ، كبارو (خبر) ، جمانو (زمان) ، سترو (ستر) ، سكرد (سكر) ، سرّو (سر) ، سردي (شرط) ، سكي (شك) ، سديدا (شديدا) ، عافية ، عقيل Haqqille (عقل) ، عيب Ayiiba (عيب) ، فترا (فترة) ، فتحُ (فتح) ، فنُّ (فن) ، فاتاد (فات) ، قاولو (قوّال) ، قربوس ، كجالك (كذلك) ، كلمي (كلمة) ، كاس ، لولو (لؤلؤ)، مُدُّ (مُدّ) ، مرجنو (مرجان) ، مصلحة ، مرحبا ، المالو (المال) ، مسلا (مثلا) ، نَعَمْ ، نسمة (نعمة) ، نفقة ، وقت ، هيمةْ (همة) ، هَمُّ (همّ) ، هلكاد (هلك)[1] .

اليوروبية :

توصف اليوروبية بأنها « سلسلة من اللهجات المتواصلة والمتقاربة

---

(1) انظر : أحمد دياب وأبو بكر خالد با في (العربية . . . م س ، ص 107-110 و 57-60) .

لغوياً » ، التي يبلغ عددها نحو عشرين لهجة . وتوحد لغة التعليم والكتابة بين مختلف هذه اللهجات . ويرى المؤرخون والباحثون أن اليوروبيين هم سلالات كنعانية نزحت من العراق قديماً ، أو صنهاجية نزحت من اليمن ، قبل الإسلام بمئات السنين . وقد يبدو من الإمعان في التكلف الاستناد إلى تلك الأصول البعيدة المفترضة في البحث عن علاقات القربى بين اليوروبية واللغة العربية ، فيما يتجه النظر ـ بادي الرأي ـ إلى ربط أي علاقة ذات شأن بدخول الإسلام بلاد اليوروبا ، وهو حدث ، يعيده المؤرخون إلى نشاط التجار ـ الدعاة ، منذ نحو خمسة قرون فقط . وعلاوة على ذلك ، ظلّ الإسلام في قبائل اليوروبا ، محصوراً في نطاق ضيق ، ولم يتسع انتشاره إلا بعد أن أسس عثمان بن فودي (ت 1232 هـ) دولته وخاض جهاده ، فهل تكون العلاقة بين اليوروبية والعربية محصورة في مساحة زمنية محدودة كهذه ؟ .

إن الباحثين يرون ـ على خلاف هذا التصور ـ أن في اليوروبية فئتين من المفردات العربية المقترضة : فئة جلبها الأسلاف معهم ، في هجرتهم القديمة (قبلَ الإسلام) من بلاد العرب ، وفئة حملها الإسلام معه قبل قرون قليلة أو أقل .

وقد أحصى د . إسحق أو جنبيي ، من الفئتين مئات المفردات التي تغطي حقول الحياة المختلفة ، مصنفة في 7 أبواب : 1 ـ الدين ، 2 ـ الأخلاق ، 3 ـ القراءة والكتابة والتربية والزمن ، 4 ـ الصفات البشرية : المزايا والعيوب ، 5 ـ أعضاء الجسم ، 6 ـ شؤون المنزل ، 7 ـ مجالات أخرى .

وسنكتفي بإيراد نماذج من بعض الحقول :

الكاواني (من العربية : القوانين) بمعنى قول الحق ، هكيكة (حقيقة) ، مكرو (مكر) ، مرابا (مرحبا) ، سبب ، البوسة (البصل) ، أسارُ (خسارة)، جنماء (جماعة) ، سكني (سكن)، ألماني (المال) ، أرا (الربح) ، فدك (فضة) ، ألمس (الخميس) ، جمو (الجمعة) ، ستيد (السبت) ، ساء (ساعة)، وكتي (وقت) ، إمُو (علم) ، ألافيا (العافية) ،

ألابــو (العيب) ، لـدبي (الأدب) ، وهله (وهلة) ، أوجــو (وجـه) ، أري (رأس) ، أبرو (إبرة) ، أصن (حصان) ، قاص (كاس) ، أومي (ماء) ، دَبِرَ (دبّر) ، سما (سماء) ، آني (أعني) ، إيال (عيال)[1] .

المالندكية :

تنقسم المالندكية إلى لهجات عديدة تتكلمها شعوب شتى في عدد من الأقطار الإفريقية . وفي جميع تلك اللهجات التي تتحدثها شعوب مسلمـة نجد أثر اللغة على جانب من الوضوح .

ومن أبرز لهجات الماندنكيـة : البمباريـة المنتشرة في مـالي . وقد تحدث دمستر Gerard Dumestre في بحث مستقـل عن الألفاظ البمبـارية المقترضة من اللغة العربية ، فأحصى منها نحو 375 مفردة . وتناول الأستاذ عبد الله بالدي ، في بحث خاص ، أثر اللغة العربية في الماندنكية المنطوقة في بعض مناطق السنغال، موزعة بين مجالات مختلفة :

1 ـ الدين والتربية ، 2 ـ السياسة والقانون والحياة المدنية ، 3 ـ الأماكن والأشياء ، 4 ـ الأيام والأوقات ، 5 ـ ألفاظ أخرى .

ومن المفردات التي ساقها نختار العينة النموذجية التالية :

حقي (من العـربية : الحق) حـرامـو (احتـرام) ، حينـو (حـزن) ، كتاب ، آفية (عافية) ، حاجو، (حاجة) ، كاكيلي (عقل)، خيرا (خير) ، نآم (نعم)، سُتُرَة (سترة) ، آده (عادة) ، دارجة (درجة) ، جمان (زمان) ، سَبَبُ (سبب) ، سيره (سيرة) ، با (بحر)، كافورا (كافور) ، سُكَرُ (سكر) ، تمـار (تمـر) ، واتي (وقت) ، صوبـا (صبح) ، أبَـدًا (أبـداً) ، واقتـرضت الماندنكية جميع أسماء أيام الأسبوع . وقد أثرت العربية في النظام الصوتي للمندنكية فدخلها صوت القاف مع مفردات عربية مثل : (قبر) ، واتضح صوت الحاء كما في نحو (حق ، حينو)[2] .

---

(1) i · A Ogunbiyi/ idem- p 136-144

(2) انظر : عبد الله بالدي / دراسة مخطوطة عن الاقتراضات العربية في لغة الماندينك بالسنغال .

الولفيـة :

ليست الولفية من أوسع اللغات الإفريقية انتشاراً في الساحة ، أو في عدد الناطقين بها ، لكن الولوف المتحدثين بها يعتبرون من أعرق الشعوب الإفريقية في الإسلام ، وأعظمهم إسهاماً في الثقافة العربية الإسلامية . والولفية هي اللغة الكبرى ـ ولغة الاتصال ـ في السنغال : ومن أهمية هذا البلد في إفريقيا تكتسب هذه اللغة بعض أهميتها أيضاً .

وقد أسلفنا الإشارة إلى حديث الشيخ إبراهيم نياس الكولخي عن المنزلة التي اكتسبتها اللغة الولفية بفضل الإسلام .

وليست لدينا معلومات أكيدة حول نشأة اللغة الولفية، إلاَّ أن بعض السنغاليين يرى أنها نشأت قبل قرون في عهد أمير قوي ، يدعى انداديان انجاي ، تقول هذه الرواية: إنه ينحدر من سلالة أمير المرابطين أبي بكر بن عامر اللمتوني من زوجة له إفريقية ، وإن هذا الأمير (انداديان) سعى لتوحيد لهجات إفريقية كثيرة في لغة واحدة ، ذات جذور عربية أيضاً، فكانت الولفية ، وكان نحو نصفها من مفردات ذات أصل عربي ، إلاَّ أن تحريفاً كبيراً أدرك جلها[1] .

ولئن كان من الصعب ـ أولاً ـ الجزم بنشوء لغة معينة في عهد رجل معين ، و ـ ثانياً ـ إثبات علاقة تكون بها الولفية فرعاً ، على هذا النحو ، من العربية ، فإن ثمة صلات ذات شأن لا يجد الباحث صعوبة في اكتشافها وإثباتها .

وقد اهتم عدد من الباحثين السنغاليين بتتبع أثر اللغة العربية في الولفية ، فكان ذلك من اهتمامات الباحث الكبير الشيخ آنتا ديوب الذي تحمل جامعة دكار اسمه ، والأستاذ ساليو كانجي الذي يرى أن اللغة العربية تركت في الولفية ـ وفي البولارية ـ أثراً بيناً ، أجمله في عدة نقاط منها :

- تثبيت البنية النحوية للغتين وتهذيبها .
- إغناء اللغتين بالمفردات ، وزيادة دقتهما في التعبير .

---

(1) الخليل النحوي / بلاد شنقيط . . . ص 262 .

ـ تنمية طاقة اللغتين البلاغية ، باستعمال المجاز اللغوي ، والتنوع في طرائق تركيب الكلام .

ـ وضع سلسلة من المصطلحات ، النحوية والقانونية والفلسفية ، والكلامية والغيبية . . . إلخ ، التي استقرت في تينك اللغتين .

وقد أورد الأستاذ كانجي قائمة من المفردات ذات المنبت العربي ، موضحاً أنها من أكثر المفردات شيوعاً في الولفية ، ومنها نجتزىء العينة التالية :

آجو (حاجَة) ، آدّينا (الدنيا) ، آدّية (هدية) ، آلكو (هالك) ، أرف (حرف) ، السمان (السماء) ، اللوا (اللوح) ، أيب (عيب) ، بايمة (بهيمة) ، دابّة ، درجة ، فات (وفاة) ، فايدة ، جيبَ (جيب) ، كسارا (خسارة) ، لرّ (ضرّ) ، مرتبا (مرتبة) ، نآم (نعم) ، نُودْ (نداء) ، راية ، سك (شك) ، صوبا (صبح) ، سُتَرا (ستْرَة) ، تفلي (تفل) ، خلم (قلم) ، خيمة ، وخت (وقت)[1] .

وقد نشر محمد مختار سيسي مقالة في « اللسان العربي »[2] حول (تأثير اللغة العربية في إفريقيا)، عرض فيها المفردات العربية في اللغة الولفية ، فأحصى عدداً نورد منه الكلمات الإضافية التالية : أنَ (أين) ، بطاقل (بطاقة) ، براده (برّاد) ، بغل ، جالاب (جلباب) ، جوّ، جافران (زعفران) ، جمن (زمن) ، خر (خروف) ، دائماً ، در (درع) ، درم (درهم) ، سجادة ، سطل ، كأس، لغة ، مصلا (مصلحة) ، ناغة (ناقة).

تلك بعض الشواهد القائمة: على رحم ـ ماتّة أحياناً ـ بين اللغة العربية واللغات الإفريقية وقد أوردنا قائمة المفردات المذكورة ، لمجرد الاستشهاد ، إذ ليست بضع عشرات من الكلمات كافية لإثبات علاقة ذات شأن ، فللعربية في اللغات الأوروبية آلاف من المفردات[3] ، فما بالك باللغات التي

---

(1) انظر : Saliou Kandji in/ les relations..., p 60-65

(2) المجلد 13 - 1396 هـ/ 1976 م .

(3) نسوق تأكيداً لذلك هذه المعطيات المستقاة من بحثي د . مناف مهدي الموسوي

وُلِدَت ، ـ أو بعضها ـ من رحم العربية ، منصهرة بلغات أخرى ، أو كان لها في العربية غذاء استمدت منه بعض أسباب النماء .

وقد سلكنا مسلك مصادرنا أحياناً في إيراد المفردة الإفريقية مكتوبة بالحرف اللاتيني ، بينما اكتفينا في حالات أخرى بكتابتها ـ مشكولة حيث تأتّى ذلك ـ بالحروف العربية . ولم نُعْنَ بإيراد المعنى الدقيق للمفردة المقترضة في مستقرها اللغوي الجديد ، فلئن كانت بعض المفردات تكتسب في اللغات الإفريقية دلالات مغايرة ـ بعض الشيء ـ لدلالاتها الأصلية في العربية ، فإن جل المفردات تحتفظ بمدلولها الأصلي أو ببعض فروعه القريبة . ومن المعلوم أن المفردة قد تتضمن صوتاً عربياً لا وجود له في اللغة الإفريقية المقترضة . وفي هذه الحالة قد تكتب المفردة الإفريقية على نحو ما يكتب أصلها ، إلاَّ أن صوت الحرف العربي يعوض بصوت إفريقي قريب منه : مثل نطق القاف كافاً فارسية (أو جيماً مصرية) أو نطق العين همزة . . . إلخ .

= (المعرب والدخيل في اللغة العربية) ومحمد السيد علي بلاسي (اللغة العربية بين التأثر والتأثير) . وهما منشوران في مجلة اللسان العربي (عدد 34 ـ 1410/ 1411 هـ ـ 1990 م) .

ففي الإنجليزية عدد كبير من المفردات العربية ، أحصى منها الباحثان جيمس بيترز وحبيب سلوم نحو 2500 كلمة . وتعقب الدكتور فيليب حتي الألفاظ الإنجليزية ذات الأصل العربي ، فبلغت عنده خمسة آلاف كلمة اعتمدتها مؤسسة وبستر Webster الأمريكية في معجمها .

ويقدر بيير جيرو في كتاب Les mots etrangers من سلسلة Que sais-Je? عدد المفردات العربية في اللغة الفرنسية بنحو 280 كلمة .

وذكرت زيغريد هونيكةْ نحو ذلك من المفردات العربية في اللغة الألمانية ، وذلك في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » (هكذا عرّب عنوانه وهو بالفرنسية Le soleil d'Allah brille sur l'occident) .

ويقدر دوزي عدد المفردات العربية في الإسبانية والبرتغالية بما يربو على 1500 كلمة . وقد صنفت كتب ونشرت بحوث كثيرة حول أثر اللغة العربية في مجموعة أخرى من اللغات الأوروبية ، وغيرها من لغات العالم .

وقد تجنبنا في جميع النماذج التي أوردناها قاموس المفردات الدينية ، فمن الطبيعي أن تكون كل أو جل الألفاظ المتعلقة بشعائر الإسلام ومفاهيمه الخالصة مستمدة من العربية . وهذا باب واسع يكفي وحده لإبراز متانة القرابة اللغوية . ومثله في ذلك قاموس أسماء الأعلام البشرية ، وقد أهملناه ، أيضاً ، حتى نحصر النظر في أثر العربية ، في الحقول الدلالية الأخرى التي تعكس تأثيراً أعمق ، أي أوسع في ميادين الحياة ، يتعدى الدين إلى شؤون الدنيا ، ويشف ـ أحياناً ـ عن طبيعة العلاقة التي كانت سائدة منذ عصور بين المجتمعات العربية والمجتمعات الإفريقية (المفردات التجارية مثلاً) .

ولا يضير بعض المفردات التي أوردناها أن تكون ذات أصل غير عربي ، ما دامت قد دخلت العربية ، فتحدثت بها أجيال من العرب ، وأقرتها المجامع وانتقلت من اللغة العربية إلى اللغات الإفريقية .

ومن المعلوم أن اللغات الإفريقية اقترضت من العربية عبارات مركبة ، وليس مفردات فقط . ومن تلك العبارات ما يكاد يكون مشتركاً بين كل الشعوب الإسلامية مستخدماً في لغات التخاطب اليومية : مثل : (بسم الله) ـ و (السلام عليكم) . . .

ونحن عندما نتأمل النماذج المحدودة التي أوردناها من الألفاظ العربية في اللغات الإفريقية الست ، وننظر بشكل خاص إلى المفردات التي تواترت ـ مع اختلافات بسيطة ـ في جميع هذه اللغات أو في عدد منها ، نستطيع أن نستشف أثر الإسلام في بناء قيم حضارية جديدة وإغناء حياة شعوب القارة بما يتجاوز حدود ممارسة الشعائر الدينية .

فمن خلال مفردات زمنية تواترت في هذه اللغات (أسماء أيام الأسبوع ، وقت ، زمان ، ساعة . . . إلخ) يتضح أن الإسلام هذب إحساس الإنسان الإفريقي بالزمن ، ونظم له حياته ، ونمى وعيه بقيمة الوقت .

ومن خلال مفردات متواترة مثل : حق ، حقيقة ، عقل ، سبب ، عيب ، جماعة . . . إلخ ، نلاحظ أثر الإسلام في إشاعة قيم خلقية وعقلية واجتماعية جديدة ، فقد تهذبت الأخلاق ، وبرزت مفاهيم مجردة جديدة

ذات أثر في تقويم سلوك الإنسان ، وتنامت اجتماعية الإنسان الإفريقي : ارتباطاً بالجماعة وتقديراً لمنزلتها ودورها في الحياة . كما رسخ الإسلام اهتمام الإنسان الإفريقي بالطبيعة العلوية (السماء) ، وشده إلى التأمل في ملكوت الله الفسيحة .

ولم يحمل الإسلام معه القيم وحدها ، بل نجد في تواتر المفردات الدالة على أشياء الحضارة المادية (بصل ، سكر ، لؤلؤ . . إلخ) ، فضلاً عن مفردات الحياة التجارية ، ما يكشف الأبعاد الواسعة لحياة متكاملة مادية ـ روحية خاصة، فتح الإسلام رحابها أمام الإنسان الإفريقي ، بما يسر للشعوب العربية والإفريقية من أسباب التواصل وتبادل المنافع .

وكان للإسلام ، من قبل ومن بعد ، عطاؤه الأول في إقامة ملة التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد ، ونشر العلم والمعرفة ، مما نجد أثره ماثلاً في المصطلحات الدينية والثقافية الكثيرة المتواترة في اللغات الإفريقية الست .

ولعله باستطاعة علماء السلالات اللغوية أن يثبتوا اليوم ، بتتبع مفردات اللغات الإفريقية الكبرى « ايتمولوجيا » ، أن هذه اللغات على تفاوت في النسب والدرجات ، تنتمي في جزء هام من رصيدها المعجمي إلى اللغة العربية ، انتماء قد يرقى إلى ما يشبه انتماء الإنجليزية إلى اللاتينية والجرمانية أو انتماء الفرنسية إلى اللاتينية . هذا مع فرق أساسي (غير وحيد) هو أن معين اللاتينية قد نضب وأصبحت اليوم لغة ميّتة لا يتعلمها أو يعلمها إلاّ قلة من أهل الاختصاص ، بينما أعطت العربية الكثير وظلت حية خصبة متجددة .

وقد ذهب ممادوديا نحواً مما ذهبنا إليه حين قال إن اللغة العربية أمدت اللغات الإفريقية برصيد يصل أحياناً إلى 50% من مفرداتها وضرب مثلاً بالسواحيلية والهوسا والولوف والبلارية (الفلانية) والماندنكية .

ويمضي ممادوديا[1] في تقييم أثر العربية قائلاً : « إن تعريب اللغات الإفريقية ، وبعيداً من أن يكون ابتلاعاً لها ، قد خلصها من الشفوية وحولها

---

(1) م . س ـ ص 38 .

إلى لغات مكتوبة . وقد دعم التعريب شخصية هذه اللغات ومكنها أن تنمو وتشع ، كما يشهد بذلك الأدب الإسلامي الناطق باللغات الإفريقية» .

ويلجأ أحمد إبراهيم دياب[1] إلى المقارنة ، فيقول إنه «في الجزء الأكبر من القارة الإفريقية ليس للغات الأوروبية أثر في اللغات الإفريقية يستحق الذكر ، مقارنة بالأثر العربي » .

ويُجمل فينسان مونتي[2] أثر العربية في اللغات الإفريقية فيرده إلى أوجه منها :

١ ـ تثبيت اللغات الإفريقية بالكتابة .

٢ ـ إغناؤها بالمفردات العامة .

٣ ـ وبمفردات الأشياء خاصة .

ومن المؤكد أن الحرف العربي يشكل ـ أكثر من المفردة العربية ـ الأثر الأكبر والأبرز للغة العربية في اللغات الإفريقية ، إلا أن للحديث عن هذا الأثر شجوناً آثرنا أن نفرغ لها في مبحث مستقل .

على أن أثر العربية لم يكن ليقتصر على الحرف والكلمة ، فبقدر ما كان الحرف والكلمة وعاء للثقافة ، كان أثر العربية واسعاً في شتى مناحي الحياة الثقافية والحضارية للشعوب الإفريقية .

وقد كانت العربية في خدمة القارة الإفريقية قبل أن تتداخل الشعوب ويسود الإسلام في مواطنه الجديدة وتتفاعل العربية مع لغات الأفارقة ، فمنذ انتشار الإسلام في شمال إفريقيا أخذ العرب يستكشفون القارة ويدونون سماعاتهم عنها ومشاهداتهم فيها بقدر كبير من الأمانة . وغطت كتابات العرب قروناً عديدة من تاريخ إفريقيا قبل الإسلام وفي ظله .

وهكذا قبل أن يصل الأوروبيون إلى الشواطىء الإفريقية ليسترقوا أبناء القارة ويدونوا تقارير استخبارية ومذكرات عن شعوبها كان التجار والرحالة

---

(1) م . س ـ ص 102 .

(2) م . س ـ ص 309 .

العرب قد جابوا مناطق واسعة من إفريقيا واستوطنوها وصاهروا أهلها ، وكتبوا عنها ما لولاه لكادت أن تكون قارة بدون تاريخ مكتوب . ولن يجد الباحث في تاريخ القارة اليوم مصادر أهم من تلك التي تركها العرب ، أو المستعربون من أبناء إفريقيا ، مثل المسعودي وابن حوقل والبكري والإدريسي وأبي الفداء والعمري وابن بطوطة وابن خلدون ، والحسن الوزان (ليو الإفريقي) ومحمود كاتي والسعدي . .

وفي ذلك يقول كي زربو : إن المثقفين العرب ، الجغرافيين والمؤرخين ، قدموا لإفريقيا خدمة لا تقدر بثمن ، إذ عرّفوا كتابياً بالإنجازات الاجتماعية السياسية لبلاد السودان إلى حد أننا قد نأسف لكونهم [العرب] لم يصلوا [إلى القارة] قبل الوقت الذي وصلوا فيه[1] .

وحسبنا أن نشير ـ تبعاً للدكتور أحمد إلياس ـ إلى بعض المصادر العربية التي تحدثت عن إفريقيا فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجريين (9-12 م) ، ففي القرن الثالث الهجري نجد اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب (ت 284 هـ/ 897 م) يكتب في تاريخه عن الطرق الصحراوية والنشاط التجاري والممالك القائمة في القارة ، مثل غانه وكانم ومالي وكوكو . وكذلك نجد معلومات عن ممالك القارة وبلدانها ومجموعاتها البشرية ونشاطها لدى ابن الفقيه ، أبي بكر أحمد إبراهيم (ت 290 هـ/ 903 م) في كتابه «البلدان» ، والخوارزمي أبي جعفر محمد بن موسى (ت حوالى272 هـ/ 885 م) في كتابه «صورة الأرض» ، وابن الصغير المالكي (ق 3 هـ) في كتابه «تاريخ أئمة الدولة الرستمية» .

وفي القرن الرابع الهجري يكتب آخرون عن إفريقيا ، مثل ابن حوقل ، أبي القاسم محمد (ت بعد367 هـ/ 977 م) في كتابه «صورة الأرض» ، والبلخي أبي زيد أحمد بن سهل (أوائل ق 4 هـ) في كتابه « صورة الأقاليم »، والاصطخري أبي إسحق محمد بن إبراهيم (النصف الأول من ق 4 هـ) في كتابه المسمى « مسالك الممالك » أو « كتاب

(1) J. Ki-Zerbo/ Histoire de L'Afrique noire - P. 14, 104 .

الأقاليم »، والمسعودي أبي حسن علي بن الحسين (ت 346 هـ/ 957 م) في كتب منها «مروج الذهب» ، والمقدسي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 390 هـ/ 999 م) في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » .

وفي القرن الخامس الهجري تحدث البكري ، ابو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ/ 1094 م) عن بلاد إفريقيا - في كتابه «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، وكذلك البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت 440 هـ/ 1048 م) في كتابه «صفة المعمورة» ، والمنجم إسحق بن الحسين (ت آخر ق 5 هـ) في كتابه « آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان » .

وفي القرن السادس الهجري : الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 560 هـ/ 1164 م) في كتابه : « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » و « أنس المهج وروض الفرج » ، وأبو حامد الغرناطي ، أبو عبد الله محمد عبد الرحيم بن سليمان الأندلسي (ت 565 هـ/ 1170 م) في بعض كتبه ، مثل مخطوطته التي تحمل نسخة منها عنوان « عجائب البلدان »، وتحمل نسخة أخرى عنوان « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » .

وقد وصلتنا كتب أخرى تتحدث عن بلدان القارة ، جنوب الصحراء ، مثل الكتاب المعروف بـ «جغرافية المأمون» ، وهو - فيما يبدو - كتاب أعده علماء في عصر الخليفة العباسي المأمون (ت 218 هـ/ 833 م) وأضيفت إليه مواد في العصور اللاحقة. وكذلك «كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار» لمؤلف مجهول ويبدو أنه كان في خدمة الموحدين وعاصر أبا يوسف يعقوب بن يوسف المنصور (ت 595 هـ/ 1199 م). وهناك كتب متقدمة لم تصلنا، وإن نقل عنها بعض من وصلتنا أعمالهم. ومن تلك الكتب المفقودة: «كتاب المسالك والممالك» لأحمد بن محمد الرازي (ت 344 هـ/ 955 م) و «كتاب مسالك إفريقيا وممالكها» لأبي عبد الله محمد بن يوسف (ت 362 هـ/ 973 م)، و «المسالك والممالك» للحسن بن أحمد المهلب (ت 380 هـ/ 990 م)[1] .

(1) انظر : د . أحمد إلياس في (دراسات إفريقية/ عدد 2/ شعبان 1406 هـ) .

والحق أن العرب حين وصلوا لم يكونوا مجرد حفظة تاريخ بل كانوا حملة رسالة سماوية ذات مشروع حضاري كبير في إصلاح المجتمعات وعمران الأرض، وعبادة الله دون غيره. ولم يتفرد العرب بحمل لواء هذه الدعوة إلاّ ريثما يلتحق بهم دعاة أفارقة جدد تشربت قلوبهم رسالة الإيمان وتشبعت بقيم الدين الجديد، فقامت على أيدي هؤلاء وأولئك من دعاة الإسلام الناطقين بلغته دعائم مجتمع جديد ينمو حضارياً من غير إكراه ولا استلاب.

لنتأمل هذه الفقرة من تقرير عرض على مجلس العموم البريطاني في سنة 1802 م:

« منذ سبعين عاماً استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في الشمال من سيراليون وفتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد ﷺ وجروا على عادة المسلمين في عدم بيع أبنائهم بيع الرقيق. وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن وجلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة. وقد تمتع المتعلمون بكثير من الاحترام ثم أصبحوا معلمين يبجّلهم الناس »[1].

لقد أدرك الإنجليز هذه الحقائق ولم يفت غيرهم من المستكشفين الاستعماريين الأوّل أن يلاحظوا أن القبائل والشعوب الإفريقية التي وصلها الإسلام، وانتشرت فيها اللغة العربية، قد تحررت من بدائية المجتمع الإفريقي، وتهذبت طباعها وارتقت آدابها، وأخذت من المدنية ومن عطاء الحضارة بقسط وافر.. وقد رأينا من قبل أن أهم الدول والممالك التي قامت في إفريقيا هي تلك التي قامت على الإسلام أو استندت إليه. وكانت اللغة العربية لغة الإدارة والمراسلات في هذه الممالك، كما كانت في حالات كثيرة لغة الحضارة كتابة وفكراً وصناعة وإبداعاً.

وفي ذلك يقول إيبادير تيام - وهو وزير تربية سابق وأحد كبار المثقفين في السنغال - إنه « بفضل اللغة العربية كان لنا [الأفارقة] في العصور الحديثة

---

(1) أنور الجندي/ العالم الإسلامي... ص 371، 372.

شعراء منا وكتّاب وفلاسفة ومفكرون وموسيقيون ملحنون ، وأخلاقيون، وتربويون، ومصلحون، ودبلوماسيون، واقتصاديون، ومعماريون، ومهندسون، ولغويون، وحقوقيون، وكيميائيون، وفيزيائيون، وعلماء فلك . وباختصار كان لنا بعض من أوائل باحثينا وأوائل شخصياتنا ذات القيمة الإنسانية الكبيرة ، ممن لا يغبطون ليوناردو داڤنشي وأمثاله بشي[1] .

كذلك كانت العربية ـ كما يقول فينسان مونتي (الذي أسلم وتسمى منصور الشافعي) ـ « أداة لنقل الحضارة الإفريقية »، بل إننا نذهب أبعد من ذلك إلى أنها كانت أداة لصنع الحضارة . كذلك كانت بالفعل ، وكذلك ارتسمت صورتها في الذاكرة الشعبية الإفريقية ؛ ومن المفارقات الدالة أن نجد كلمة «عربي» تطلق في بعض البلاد العربية (تونس مثلاً) صفة لما هو تقليدي وغير حديث من المصنوعات وأشياء الحضارة المادية (وهو استعمال مولّد طبعاً)، بينما نجد كلمة Ustaarabou (استعراب) في لغة الهوسا ، حاملة لمدلولات مثل الحضارة والثقافة .

وقد كان الاستعراب فعلاً طريق الشعوب الإفريقية لاكتساب قيم حضارية جديدة وصوغ قيم أخرى وتنميتها ، في تفاعل وتكامل ، لتعتمل بذلك كله شخصية إفريقية مستنيرة ، غير مِسخ ، فتتحدد ملامحها على نحو أفضل ، ويتسع إسهامها في الحضارة البشرية .

ولقد كان للأفارقة المستعربين شأن كبير في صناعة التاريخ العربي الإسلامي ، وبلورة الصيغة المتكاملة لحضارة جديدة كانت العربية لغتها ، ولم يكن العرب وحدهم بناتها ، بل شارك فيها الأفارقة المسلمون كما شارك مسلمون آخرون تعربوا من شعوب آسيا المختلفة .

وبحسب المرء أن ينظر في كتب تاريخ إفريقيا ، مثل تاريخ السودان للسعدي ، والفتاش لمحمود كاتي ، وفتح الشكور للبرتلي ليطلع على أسماء كثرة من العلماء الأفارقة الذين تعربوا فكان عطاؤهم للعربية وأهلها موفوراً ، على مر العصور .

---

(1) Les Relation, idem, p 196

إن الصيت الذائع والذكر الشائع لعلماء أجلاء مثل الشيخ عمر الفوتي والشيخ عثمان بن فودي ، والشيخ إبراهيم نياس الكولخي ، والشيخ أحمد بمبا والحاج مالك سي ، وآخرين من اضرابهم ، هو شهادة حية على العطاء الثر الذي قدمه علماء إفريقيا للغة العربية والثقافة الإسلامية ، علماء ، مربين ، معلمين ، شعراء ، ومجاهدين .

وقد ترك الشيخ إبراهيم نياس وحده أكثر من 70 كتاباً طبع منها عدد هام وانتفع به الناس في مجالات شتى كالفقه ، وعلوم اللغة العربية ، والتصوّف .

وكانت فتوى هذا الشيخ الجليل مرجعاً فيما أخذت به السلطات السعودية من الإبقاء على مقام إبراهيم بالبيت الحرام في موقعه ، بعد أن فكرت حيناً في نقله .

وبمبادرة من الشيخ إبراهيم انتظم في أعماق السنغال ، بمدينة كولخ ، مهرجان لم يتخلف منذ نحو 50 سنة عن موعده السنوي (ذكرى المولد النبوي الشريف) وهو يبدو المهرجان الدوري الأكبر ـ وربما الوحيد ـ للشعر الموريتاني لكثرة الشعراء الموريتانيين الذين يشاركون فيه كل عام . ولعله مهرجان الشعر العربي الأكثر جمهوراً ، إذ يحضره ويتابع وقائعه عشرات آلاف الأشخاص يجتمعون في الساحة التي تؤويه وتغص بهم الشوارع المجاورة لها .

وكان لهذا المهرجان حضوره الغُيّب ، في سنوات القطيعة بين السنغال وموريتانيا ، حيث كانت القصائد ترسل من موريتانيا وتقرأ بالنيابة في السنغال .

وفي سنة 1412 هـ صدر ديوان « العرف الذكي » للأستاذ محمد يحيى بن خيري . وهو من نوادر دواوين المديح النبوي المنشورة في موريتانيا . وقد تكرم صاحب الديوان فأهداني نسخة منه ، وقال : إنه محاولة للتعويض عن مواسم «مدينة» (وهي علم على حاضرة الشيخ إبراهيم نياس) . فكانت «مدينة» ملهمة في الحضور والغياب . وكان المهرجان متصلاً أيام القطيعة .

وقد لاحظت مجلة العربي الكويتية[1] أن حاضرة الشيخ إبراهيم نياس تعربت كلياً ، حيث لا يوجد فيها من لا يتحدث العربية الفصحى أو الحسانية وهي اللهجة العامية العربية في موريتانيا .

وقد خصص الدكتور عامر صعب كتاباً من مجلدين للأدب العربي في السنغال وحدها ، أحصى فيه عشرات الشعراء ، وقدم نماذج من إنتاجهم الأدبي ، فكان فيها شذرات كثيرة مضيئة ، مما يحق للأفارقة المستعربين أن يباهوا به العرب العاربة .

وكان عطاء أولئك عطاء إفريقيا للحضارة العربية . ومن قبل كانت اللغة العربية ذاتها قد أخذت من اللغات الإفريقية ، ولم تكن أبداً ـ على ما انفردت به من قدسية الوحي الذي نزل بها ـ لغة تعطي عن استعلاء وترفض أن تأخذ .

ولو صح ما ذهب إليه عدد من العلماء الأجلاء من احتواء القرآن على لغات عديدة غير عربية ، لوجدنا القرآن يشرع علاقة التداخل والتبادل تلك تشريعاً ما وراءه وراء .

ونحن لا نرى كبير حرج في أن يتضمن القرآن مفردات حبشية المنبع ، أو يونانية، أو عبرية، فمن شأن الكلمة أن تصطبغ بهوية مستقرها الجديد ، حتى وإن كانت أجنبية المنبت. والقرآن الكريم ـ فوق ذلك ـ مصدر للتشريع اللغوي كما هو مصدر للتشريع الديني . ولعله بلغات الأقوام التي وردت فيه يؤسس لعالمية اللغة العربية ، فضلاً عن الدين الذي بعث به محمد ﷺ إلى الناس كافة . . فقد نزل القرآن بلسان عربي مبين ، وبالقرآن أعِدَّ اللسان العربي ليكون لساناً كونياً بما يقتضي ذلك من أخذ وعطاء ، تظل العربية معهما محفوظة الرصيد متجددة المتن .

وقد كان لتعايش الأعراق البشرية المختلفة في ظل الإسلام أثر في تحقيق التداخل اللغوي ذي الاتجاهين . وحسبك أن يكون التمازج البشري بين العرب والأفارقة قد أفرز مجتمعاً ولغة جديدين (السواحيلي ـ السواحيلية) .

---

(1) عدد فبراير 1982 .

وقد بلغ التداخل اللغوي بين العربية وبعض اللغات الإفريقية نحواً من مبلغه في المشرق بين العربية والفارسية أو التركية . وكان أثر هذا التداخل بارزاً في اللهجات العامية العربية بشكل خاص . ثم إنه كان مصدراً لنوع طريف من أنواع الأدب (الملمع) يمزج بين العربية واللغات الأخرى في متن عروضي عربي سليم .

لقد ظهر هذا النوع من الأدب في المشرق وفي الأندلس ، وكان له ظهور متأخر في التخوم الغربية للبلاد العربية حيث تتعانق موريتانيا والسنغال .

ولعلّ نماذج منه توضح ما نذهب إليه . ولنختر نصين أحدهما لسنغالي مستعرب والثاني لعربي موريتاني .

يقول ابن المقداد :

يا خودُ إنَّ غراب البين منك (سَوَخْ)
فَزُرْتُ أطلب من وصل لديكِ (سَرَخْ)

ضننتِ بالوصل حتى بالحديث، ولا
أرى ضنيناً سواك [الدهْرَ] ضنَّ بِـ(وَخْ)

لا تمنعي الوصل ممن يستهام به
أتمنعين وصال المستهامِ (لُتَخْ؟)

لم تعلمي أن خير الناس أكرمهم
والخير أبقى وإن طال الزمان. . إلخ(1)

لم يكثر الشاعر السنغالي في أبياته من المفردات « الولفية » ، بل اقتصر على أربع كلمات . لكن الشاعر الموريتاني أحمد بن الشيخ محمد بن

---

(1) عامر صمب/ الأدب العربي في السنغال ـ ج 1 ص 100 .
المفردات الولفية (موضوعة بين قوسين) : سوخ : كلامك ، سرخ : صدقة ، وخ : الكلام ، الحديث ـ لتخ : لماذا؟ . وقد أضفنا (الدهر) في عجز البيت الثاني ليستقيم الوزن ، فلعلها ـ أو نحوها ـ سقطت من المرجع .

أحمذيه يذهب أبعد من ذلك في قطعته التالية :

قلت - وحيعل المنادي وابتهل -
(جُخْمَ مَجِسْلَ تُوتِ) قالت: حيهل
ثم انثنت ذات خصام وجدل
تقول - لا أبغي بقولها بدل -:
(دَمَارَ كَلْ صَفَرَ بَايَلْ [مَ] دَمَلْ
فانهل دمع العين مثنى وانهمل
قلت لها وجداً، وجوداً لم أخل:
(عَمْنَا تِيَوْ سُخَلَ) فقالت لي : (وَخَلْ)
فقلت (يَوْمَيْمَ مفون، انْيَوَلْ)
قالت، فلما جئت قالت: (تَخَوَلْ)،
قلت لها (فَيْمَ اسْمَبَرْ)، قالت: (خَمُلْ
دَرَ، دَمَلْ فَيْ دكنل سَفَيْ عَمُلْ)[1]

تبدو الولفية لغة السر ، أو المكتوم في هذا النص الغزلي ، بينما يكاد يقتصر دور العربية على الربط بين حلقات الحوار . ونحن واجدون في هذا الجدل الغزلي ، وفي سابقه ، شهادة على «الجدلية» - بالإصطلاح المحدث - التي طبعت حيناً من الدهر العلاقة بين اللغة العربية واللغات الإفريقية ، ممثلة هنا بالولفية .

وبالجملة ، فقد كانت العربية هدية ثمينة قدمها الإسلام لشعوب إفريقيا وقبائلها ؛ فبقدر ما كانت العقيدة الإسلامية طريق الأفارقة للم شتاتهم ، والخروج من الصراعات القبلية و« الإثنية » إلى فضاء رحب من التآخي والتآلف في ظل رسالة كونية تساوي بين المؤمنين ؛ كذلك كانت لغة الإسلام (العربية) الأداة الأولى التي استطاعت بها أمم من الأفارقة أن تحل مشكل

---

(1) المختار بن حامد/ حياة موريتانيا - ج 2 ص 148. وقد وضعنا الكلمات الولفية بين قوسين ، وهي مادة جدل غزلي تتمنع فيه المحبوبة خوفاً من النار ، وترفض الوفاء بوعدها .

التعدد اللغوي ، الذي يقف عائقاً أمام التواصل الثقـافي ، وتبادل المنـافع الاقتصادية ، والتعاون على شؤون الحياة عامة . . وكانت العربية بذلـك ، وحيثما وجدت في القارة لغة تحرير وتكوين لا لغة إخضاع واستلحاق[1] ، هذا إلى كونها لغة توحيد ، فباللغة العربية ، لا بغيرها من اللغات الإفريقية (فضلاً عن اللغات الغربية) كان باستطاعة مثقفي إفـريقيا المسلمـة ، من قبائل وشعوب مختلفة ومناطق متباعدة أن يتخاطبوا . . وبها دون غيرها من اللغات يستطيع الإفريقي المسلم اليوم أن يتصل بماضيه ويطلع على تراث آبـائه وأجـداده . لذلـك لا عجب أن نجد مثقفي إفـريقيا الغـربيـة ، ومن الفرنكفونيين بـالذات ، يـطالبون الإدارة الفـرنسية ، في خمسينيـات القرن العشرين ، بتعميم تعليم اللغة العـربية في المـدارس ، معللين طلبهم بأن اللغة العربية عامل وحدة في المنطقة .

وقد فسر المفوض السامي الفرنسي بغرب إفريقيا هذه المطالب بأنها « ترجمة لرغبة المثقفين المسلمين (في المنطقة) في التقـارب مع العـالم العربي وذريعة « للمتطرفين » لمحاربة الوجود الفرنسي ، وقـال إنها دعـاية انتخابية تسعى الأحزاب السياسية بواسطتها إلى توسيع قاعدتها الشعبية »[2] .

وبهذا التفسير تكون الإدارة الفرنسية قد اعترفت بأن القاعدة الشعبية في غرب إفريقيا كانت مع العربية ، وضدّ الفرنسية حتى بعد عقود طـويلة من محاولات التدجين في ظل الهيمنة الاستعمارية .

---

(1) Mamadou Dia, - P 37

(2) الخليل النحوي ، م س ـ ص 369 ، 370 .

المبحث الثالث

معركة الحرف: اللاتيني أو العربي؟

نزل القرآن بلسان عربي مبين ، فتوحد هذا اللسان بعد أن كان لغات أو لهجات ، لكل قبيلة لهجتها ، وتوحّد العرب أمةً ، بعد أن كانوا قبائل أشتاتاً . وتهذبت اللغة التي اتحدوا بها وحولها ، فنطقت بها الأفواه خصبة غنية ، سهلة محبّبة ـ ولم تلبث لغة القرآن أن انسابت في فجاج الأرض ، تحل حيثما حلت كلمة الشهادة ، وارتفع صوت المنادي بالصلاة ، فأصبحت العربية لغة شعوب كثر ، ألّف الإسلام بينهم ، ليكونوا أمة واحدة : أمة الإسلام .

وكانت المنزلة التي تبوّأتْها اللغة العربية ، منذ أن أصبحت وعاء خاتمة الرسالات تفرض عليها أن تطور أدوات التبليغ ، وخاصة الكتابة التي بها يتحدث الحاضر إلى الغائب في مساحتي المكان (القصي)، والزمان (الآتي). وتعين تطوير الكتابة العربية ، فكانت علامات الإعراب أولاً ، تلك النقط التي ابتكرها ـ فيما يذكرون ـ أبو الأسود الدؤلي (ت 69 هـ) والتي تطورت من بعد لتأخذ أشكال الحركات والسكون التي نعلم ، ثم كانت علامات الإعجام ، التي تنسب إلى نصْر بن عاصم (ت 89 هـ) . وبها تمايزت الحروف المتماثلة رسماً المختلفة نطقاً ، ليكون لِكُلٍّ شكل به يعرف ويمتاز . ثم لم يلبث الخط العربي أن اغتنى جمالياً ، وتنوعت أصنافه ، فقد كان للخطاطين في مرونة الحرف العربي وطواعيته للتشكل ما أمكنهم من ابتداع صنوف من الخطوط ، لكل منها قواعده وجمالياته ، وبلغت الأشكال الفنية للكتابة العربية نحو ثلاثين شكلاً .

وقد استجاب تطوير الكتابة العربية على هذا النحو لحاجات التبليغ التي اقترنت بظهور الإسلام، فكتب به القرآن (وإن كان مصحف عثمان قد

دون بالخط القديم ، قبل استحداث علامات الإعجام والإعراب) ، ودون به الحديث الشريف ، وأودع بـه المؤلفون علومهم في مصنفات مُيَسَّرة لمعاصريهم ، ولآخرين من بعدهم لما يلحقوا بهم يومذاك . . . ودونت دواوين الدولة ، ووثقت العقود ، وكتبت الرسائل ، ونسخت أعمال الآخرين . . . إلخ .

ودخلت الأبجدية العربية المكتوبة في خدمة لغات أخرى ، غير العربية ، أسلم أهلها ، فكانوا شركاء للعرَب في لغة لم تعد لهم خالصة دون غيرهم من المؤمنين .

عراقة الحرف العربي في إفريقيا :

وعلى امتداد القرون، وبتوسع دولة الإسلام (أو أمته) انتشر الحرف العربي ليؤدي وظيفة التبليغ تلك في عدد كبير من لغات المسلمين في آسيا وإفريقيا ، فبلغت جملة اللغات غير العربية التي كتبت بالحرف العربي نحو 80 لغة ، منها أكثر من 30 لغة ، من لغات إفريقيا ، بينها اللغات الكبرى التي تنتشر في عدة دول : السواحيلية ، والهوسا، والفلانية، والماندنكية ، (انظر قائمة اللغات المكتوبة بالحرف العربي المقتبسة من أبحاث د . يوسف الخليفة أبو بكر ، وقد نسب بعضها إلى مصادر أخرى ذكرناها) .

وقد الْتحقت اللغات الإفريقية ، بتبني أهلها الحرف العربي ، بركب من لغات الحضارة التي كُتبت (وما يزال بعضها يُكتب) بالحرف العربي ، مثل الفارسية ، والأردية والتركية ، فتخلصت اللغات الإفريقية تلك من إسار الشفوية ، وأصبحت لغات أدب وثقافة وتصنيف بعد أن كانت وظيفتها شبه محصورة في التخاطب الشفهي .

وقد نشر شيخ الإسلام إبراهيم نياس الكولخي مقالاً ، في مجلة « اللسان العربي » (المجلد 6 ، ص 174) بعنوان « اللغة الولوفية بالسنغال أصبحت بفضل القرآن أداة تثقيف وتربية » ذكر فيه أن المسلمين في السنغال استعملوا الحرف العربي منذ قرون لتدوين ما يريدون باللغة الولوفية . . « وقد ظهرت أخيراً بادرة طيبة تستحق التشجيع وهي أن بعض المثقفين المسلمين

من شبابنا قد جنحوا إلى وضع مؤلفات بلغة وولوف مستعملين الحروف العربية »[1] .

وقد عثر على مخطوطات إفريقية قديمة ، مكتوبة بالحرف العربي ، مثل « مخطوطة كلوة » التي عثر عليها البرتغاليون عام 1505 م ، خلال غزوهم لشرق إفريقيا . ولا يستبعد د . سيد حامد حريز أن تكون هذه المخطوطة السواحيلية قد كتبت خلال القرن الخامس عشر الميلادي[2] .

ومن قبل ، لاحظ برتغالي زار منطقة كازا مانص في جنوب السنغال سنة 1459 م أن اللغة الماندنكية هي لغة التجارة والإدارة في المنطقة ، وهي تكتب يومئذٍ بحروف عربية .

وكذلك توجد مخطوطات فُلانية مكتوبة بالحرف العربي ، منها ما هو مترجم إلى الفلانية من اللغة العربية ، مثل « مروج الذهب » الذي ترجمه إلى الفلانية منذ نحو قرنين العالم الغيني تيرنو صمبا موبيزاي[3] .

وقد لاحظت القوى الاستعمارية والبعثات التبشيرية في القارة قوة ارتباط المسلمين باللغة العربية وبالحرف العربي ، فاضطرت للتعامل مع هذا الواقع حيناً من الدهر ، في انتظار التمكن من تغييره .

ففي الثلاثينيات اضطر الفرنسيون للتعامل ، في بعض مستعمراتهم الإفريقية ، بالحرف العربي ، فكانت بعض المراسلات ترد وتصدر بلغة الهوسا والزارما مكتوبة بالخط العربي[4] . وكان الفرنسيون لأول عهدهم في السنغال يتعاملون مع السكان ، ليس بالحرف العربي فقط ، بل باللغة العربية أيضاً ، ويستعينون في ذلك بعلماء ودعاة من موريتانيا المجاورة .

وقد استفادت الإرساليات التنصيرية من الحرف العربي في سعيها لنشر

---

(1) أحمد العايد ـ في (العربية في اللغات ، م س ـ ص 126) .
(2) م. ن ـ ص 85 .
(3) أحمد إبراهيم دياب في م. ن ـ ص 108 .
(4) V. Monteil/ L'Islam noir - P. 149.

دعوتها في إفريقيا ، فترجمت الإنجيل إلى عدد من اللغات الإفريقية مكتوبة بالحرف العربي . وقد أحصى اي . نورث في كتابه The book of thousand tongues (كتاب الألف لسان) الذي نشرته جمعية الكتاب المقدس بالولايات المتحدة ، 46 لغة من لغات المسلمين في إفريقيا وآسيا ترجم إليها الإنجيل مكتوباً بالحرف العربي[1] .

ولم يكن استخدام الحرف العربي في مثل هذه الأعمال ، وفي بعض نشاط الإدارة الاستعمارية إلا حيلة مؤقتة لتيسير التواصل مع السكان في فترة كانت لغات المستعمرين تواجه فيها مقاومة صلبة . وكانت الكفة الراجحة ، بلا نزاع ، كفة اللغة العربية وحروفها ، ولنأخذ مثلاً نتائج دراسة ميدانية قام بها باحث غَرْبي في الثلاثينيات لتبين مدى إلمام سكان زنجبار وبمبا (الجزيرة الخضراء) بالكتابة وطريقتهم فيها . وقد أبرزت الدراسة النتائج التالية :

في الجزيرة الخضراء (بمبا) وجد أنه من بين كل مائة شخص هناك 36 يعرفون الكتابة : 32 منهم يكتبون بالحروف العربية ، وشخصان فقط يكتبان بالحروف الرومانية ، وشخصان يكتبان بالعربية واللاتينية معاً . والبقية (64%) أميون . وفي جزيرة زنجبار كانت نسبة الأميين أقل (37%) ، ونسبة الذين يكتبون بالحروف العربية أكبر (55%) ووجد شخص واحد من المائة يكتب بالحروف الرومانية ، و7 أشخاص يكتبون بالحروف العربية والحروف الرومانية معاً[2] .

وقد بيّن مسح أجرته الحكومة السنغالية سنة 1960 أن نحو 25% من سكان الريف يتقنون القراءة والكتابة بالحرف العربي ، مقابل 3% فقط يقرؤون ويكتبون بالحرف اللاتيني[3] .

ونجد حضوراً قوياً ـ فيما سبق ـ للحرف العربي في بلد إفريقي لا يشكل المسلمون إلاّ نسبة ضئيلة من سكانه : مدغشقر .

(1) يوسف الخليفة أبو بكر ـ في (العربية في اللغات. . . م س ـ ص 23).
(2) سيد حامد حريز في م. ن ـ ص 87 .
(3) عبد القادر سيلا/ المسلمون في السنغال ـ ص 154 .

فقد ظلت الملغاشية لعدة قرون تكتب بالحروف العربية المسماة عندهم سورابي Sorabi (من السورة)، حتى إن الباحثين ليتحدثون عن آلاف المخطوطات الملغاشية المكتوبة بهذه الأبجدية العربية (السورابي)، فقد ذكر الباحث النرويجي مونت Munthe أنه عاين سبعة آلاف صفحة من هذه المخطوطات في مدغشقر وفي مختلف مكتبات أوروبا . ويذكر من المراكز التي توجد بها هذه المخطوطات :

- مكتبة أكاديمية علوم البحار بباريس .
- المكتبة الوطنية بباريس .
- جامعة لندن ومدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بها .
- جامعة مدغشقر بتاناناريف والأكاديمية الملغاشية .

وقد بدأت الحرب على الحرف العربي في مدغشقر منذ عهد بعيد ، وخاصة بعد أن بسط الأوروبيون نفوذهم - وإن بشكل غير مباشر أحياناً - في الجزيرة ، فقد عرف عن الملك الملغاشي دراما الأول أنه استقبل المبشرين المسيحيين الأوروبيين منذ 1810 ، وأرسل أحد أبنائه إلى لندن عام 1818 م ليتعلم هناك ، وكانت « تمارين الكتابة » بالحروف اللاتينية شغله الشاغل ، ولهذا الغرض أسس عام 1819 م مدرسة بالقصر الملكي . وفي عام 1823 م تقرر رسمياً كتابة الملغاشية بالحرف اللاتيني . ولعلها - بذلك - كانت أول لغة إفريقية تنسلخ من الحرف العربي ، وتنحاز إلى الحرف اللاتيني .

ومع ذلك فقد كان الملك دراما الأول نفسه يحرر بعض مراسلاته بالسورابي ، ويوجد نموذجان من خطاباته تلك في لندن .

وتتأكد لدينا أهمية «السورابي» وانتشارها في المجتمع الملغاشي حين نعلم أن جمعية المبشرين بلندن قد كلفت أحد الشبان الملغاشيين الذين أوفدهم الملك دراما الأول إلى العاصمة البريطانية - أوائل القرن التاسع عشر - بترجمة بعض نصوص التوراة إلى الملغاشية العربية (السورابي) . وكانت سيطرة فرنسا على البلاد، وانتشار الإرساليات التنصيرية فيها ، وتضاؤل حركة التجارة بين مدغشقر والبلاد العربية - الإسلامية ، وقلة عدد المسلمين في البلاد عوامل كافية لإقصاء «السورابي» من الساحة الثقافية

الملغاشية حتى أصبحت الوثائق المحفوظة بها اليوم رموزاً قل أن تجد من الملغاشيين من يستطيع حل معمياتها[1] .

ومع مرور الزمن وتحكم الإدارة الاستعمارية تعززت مواقع اللغات الغربية في إفريقيا كلها ، وانتشر الحرف اللاتيني وحوصر الحرف العربي ، إلا أننا نجد ، على اختلاف المراحل ، في عهد الاستعمار وبعده ، مظاهر شتى لحضور الحرف العربي ، وحيويته ، وصموده وتمسك المواطنين ، والرسميين أحياناً ، به أداة لكتابة اللغات الإفريقية ، وخاصة في الصحف التي يراد لها أن تكسب جمهوراً أوسع . ففي الثلاثينيات صدرت عدة صحف بالعربية ، والسواحيلية المكتوبة بالحرف العربي ، في زنجبار ، وممباسا بكينيا ، مثل صحيفتي «الصحيفة» و«الإصلاح» في ممباسا ، وصحيفة «الفلق» في زنجبار[2] . وصدرت في إقليم «كانو» بشمال نيجيريا سنة 1981، صحيفة «الفجر» الناطقة بالهوسا المكتوبة بالحرف العربي[3] ، (ويسمونه «عجمي» ربما للتأكيد على أنه حرفهم أيضاً وليس حرف العرب وحدهم) . وكانت الحكومة الغامبية تصدر نشرة ناطقة بالماندنكية المكتوبة بالحرف العربي . ولهذه النشرة دور مهم في تعبئة السكان حول القرارات المهمة ، وفي بث الوعي وتقديم النصائح العملية للمزارعين والإرشادات الصحية للمواطنين[4] .

وقد صدرت في السنغال عدة صحف تتضمن مواد ولفية مكتوبة بالحرف العربي .

وما يزال الشارع الإفريقي إلى اليوم يحمل شهادة بقاء الحرف العربي في أسماء المحلات ولوحات الواجهات ؛ على أن من الحق الاعتراف بأن

---

(1) انظر : حلمي شعراوي/ مدغشقر على خارطة الثقافة العربية ـ وفي (إفريقيا ـ كتاب دوري عدد 2 ـ يوليو 1988 ـ ص من 56 . . .) .

(2) أحمد العايد في (العربية في اللغات. . . م س ـ ص 124).

(3) أحمد إبراهيم دياب في م. ن ـ ص 111 .

(4) يوسف الخليفة في م. ن ـ ص 22 .

الحرف اللاتيني قد كسب المعركة في الساحة السياسية، كما هي اليوم، وأنه حقق مكاسب كبيرة في الساحة الثقافية . وقد بدأت المعركة بين الحرفين مظهراً من مظاهر الصراع الحضاري الذي شهدته القارة منذ دخول الغربيين مستكشفين، وتجار رقيق، ومستعمرين، على أنها كانت أشبه بالهجمة من طرف واحد منها بالمعركة تحتدم بين طرفين فاعلين ، أو لنقل إن مثل قوى الاستعمار والتغريب في حملتها على الحرف العربي مثل من يحاول اجتثاث شجرة ثابتة ممّن أصلها ؛ فدون أن يتصدى له ـ بالضرورة ـ رجال يمنعونه مما يريد ، فإن الشجرة تقاوم ذاتياً برسوخها ، ويبقى منها ما يبقى ، حتى وإن أصيب جذعها وتقطعت بعض أغصانها وفروعها؛ نرى الأمر على هذا النحو، ونحن نلاحظ غياب الجهد المنسق الموصول لصيانة مواقع الحرف العربي في القارة ، رغم مبادرات عديدة ولكنها ضيقة الباع غالباً ، محدودة الأثر ، فردية في حالات ، جماعية منسقة ـ ولكن متأخرة ـ في حالات أخر .

الحملة على الحرف العربي :

كانت المواجهة أول الأمر حرباً على الحرف العربي ، كما هي على اللغة العربية والدين الذي ينطق بها، ثم كانت تمكيناً للحرف اللاتيني في الأرض الإفريقية . وكانت الدعوة لهذا الحرف دعاية ضد الحرف العربي ، فيها من المغالطات ما لا يخفى على ذي عينين . . . وكان للحرف العربي مواقعه ومنابره المحدودة ، التي عنيت ، وإن ببعض تأخير ، بالدفاع عنه ، والدعوة إليه .

أما الحرب على الحرف العربي ؛ فقد كان دخول الاستعمار إعلاناً لها ، إذ كانت المواجهة مع المستعمر مواجهة ثقافية بالدرجة الأولى . وكانت الجبهة الثقافية أقوى وأصلب من الجبهة العسكرية ، إذ بها تعتصم القلوب وتتحصن القيم والأخلاق . ولم يكن همّ المستعمر أي مستعمر ، أن يستحوذ على الأرض الجماد ، وإن حفلت بالخيرات ، أو الأجسام المتحركة وإن أظهرت الطاعة والانقياد . . لم يكن هم المستعمر منحصراً في ذلك ، بل كان يسعى للسيطرة على القلوب ، ليصنع العقول بيده وعلى عينيه ، ليتملك الإنسان في أقدس مكوناته ، فيما به يستحوذ عليه شبحاً وروحاً ، ويملك ما حوله . . لذلك كان الاستعمار مشروعاً لمسخ الأمم والشعوب المستتبعة

المستضعفة واستلابها فكرياً وثقافياً . وقد رأينا في صفحات خلت كيف احتدمت المواجهة بين نظم التعليم الأصلية ـ العربية الإسلامية ـ التي اختمرت بها ذات الإنسان الإفريقي وارتسمت بها هويته العميقة وبين نظام التعليم الوافد ، الذي حمله الغزاة الجدد معهم ، وحمّلوه رسالتهم : لغة وفكراً ومناهج وبرامج . وليس الحرف العربي من ذلك الصراع ببعيد . . فلئن رأى بعض أبناء جلدتنا المتأخرين أن الحرف مجرد شكل ، وأن لا أهمية له ، فلقد كان أولئك ـ المستعمرون ـ يرون أنه رباط مقدس ومعلمة من معلمات الهوية الثقافية المغايرة . . لذلك كان في برنامجهم ، منذ البدء ، أن يقطعوا ذلك الرباط ، ويطمسوا تلك المعلمة ، شأن من يهاجم مدينة فيقطع عنها الإمدادات ويحاصرها ليسهل عليه اجتياحها من بعد .

لنأخذ مثلاً السواحيلية ، فهي لغة ذات رحم ماتّة تصلها بالعربية . وقد اضطرت السلطات الاستعمارية ، وبعض الباحثين الغربيين ، إلى التعامل مع هذه الحقيقة بعض الوقت ، بل إننا نجد معجماً قديماً (معجم لرو Le roux)، وهو معجم فرنسي ـ هوساوي ـ فرنسي ، يكتب اللفظة الهوساوية بالحرف العربي أو لا ليصل إلى كتابتها باللاتينية ثانياً (تمهيداً له) ويورد مقابلها بالفرنسية . ولكننا نجد السلطات الاستعمارية البريطانية تقرر منذ 1907 فرض اللغة السواحيلية المكتوبة بالحرف اللاتيني في مدارس التعليم الابتدائي[1] . ولم تصل سنة 1948 حتى كان البريطانيون قد فرضوا ـ رسمياً ـ كتابة السواحيلية بالحروف اللاتينية[2] ، وليس في مناهج التعليم وحدها .

وفي سنة 1907 أيضاً قررت الإدارة الألمانية في شرق إفريقيا اعتبار استعمال الحرف العربي في الدوائر الرسمية والوثائق الحكومية أمراً يحرمه القانون[3] . ومنذ 1904 بدأت الهوسا تكتب بالحرف اللاتيني[4] .

---

(1) أحمد العايد ـ في م. ن ـ ص 125 .

(2) أنور الجندي/ العالم الإسلامي والاستعمار . . . ص 378 .

(3) سيد حامد حريز ـ في (العربية في اللغات . . . م س ـ ص 85).

(4) V. Monteil P. 248.

ولم يكن حظ الحرف العربي بعد استقلال الدول الإفريقية بأحسن من حظه في عهد الاستعمار ؛ بل إن العمل الذي كانت تقوم به كل دولة من الدول الاستعمارية على حدة ، وفي مواجهة مع أبناء البلد ، أصبح ـ بعد الاستقلال ـ عملاً جماعياً تعقد له المؤتمرات ويشارك فيه ، بل يقوده بادي الرأي أحياناً ، بعض أبناء القارة الذين ورثوا السلطة الاستعمارية ورعوا عهدها «خير» رعاية .

وكان المدخل الطبيعي للمرحلة الجديدة مدخلاً لا يثير حفيظة أحد ، إذ يقوم على الدعوة إلى تنمية اللغات الإفريقية ، ومن تنميتها كتابتها ، لكن بحرف دون حرف .

ففي سنة 1967 احتضنت باماكو، عاصمة مالي، اجتماعاً لدراسة طرق كتابة لغات إفريقيا الغربية . وتلت ذلك الاجتماع سلسلة من الملتقيات والندوات ، عقد بعضها في كوتونو (1975) ونيامي (1978) [1] . وقامت على هذا الجهد منظمات دولية مثل اليونسكو ، ووكالة التعاون الثقافي والتقني (ACCT) التي تعمل انطلاقاً من فرنسا ، وتهتم خاصة بالمحيط الفرنكفوني . وقد نشرت اليونسكو سنة 1980 أبجدية إفريقية مرجعية موحدة .

وقبل ذلك كانت مجموعات نشطة من الأفارقة قد نشرت بعض المصنفات الناطقة بلغات إفريقية مكتوبة بالحرف اللاتيني . وأصبح الهم الأساسي هو أن يُشَرَّع هذا التوجه ، فتتبناه الحكومات الوطنية ، وتضفي عليه صبغة الخيار الرسمي ، وترصد له الوسائل اللازمة ، مؤسسات وأموالاً ورجالاً . . . إلخ .

وقد ظهرت محاولات عديدة لرسم أبجدية إفريقية متميزة ، لا هي

---

(1) انظر : أحمد العايد في (العربية في اللغات. . . م س ـ ص 119) و
Z. Dramani issifou in Les Relations. idem, p 36-37.

بالعربية ولا باللاتينية ، منها ما هو قديم . ففي القرن الماضي ، وضع مثقف مسلم إفريقي أبجدية من 200 حرف ما تزال مستعملة في ليبيريا . ومن بعده وضع نجويا Njoya سلطان بانم Banoum أبجدية أخرى من 70 رمزاً صوتياً دونت بها أحداث المنطقة[1] .

ومع ذلك ، فقد انصب الاهتمام على الحرف اللاتيبي دون غيره ، رعاية لعهد المستعمرين أو انبهاراً (بريئاً) بالتكنولوجيا التي وضعها الغرب في خدمة لغاته (على أن العربية وغيرها من اللغات ذات الأسواق قد استفادت أيضاً من تلك التكنولوجيا) .

وإلى ذينك السببين ، وإن بصياغة أخرى ، يعيد راڤانس امبي R. Mbaye مدير المعهد الإسلامي بداكار ظاهرة العدول عن الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني لكتابة اللغات الإفريقية ، فالأمر في نظره يعود إلى سببين أساسيين : أحدهما يتمثل في كون المستعمرين الذين يحرصون على محاصرة الإسلام ووقف تقدمه في إفريقيا ، ينظرون إلى انتشار اللغة العربية ـ وهي تنقل الإسلام غالباً ـ بنفس العين التي ينظرون بها ، إلى انتشار الإسلام ذاته . أما السبب الآخر فيتمثل في الاستخدام الأكبر للوسائل المادية والتطور التكنولوجي لفائدة استعمال أكثر منطقية للحرف اللاتيني[2] .

وإنه لمن المفارقات حقاً أن نجد الصومال التي لم تلبث أن طلبت الانضمام إلى جامعة الدول العربية تقرر كتابة اللغة الصومالية ـ بالحرف اللاتيني سنة 1972 م .

ورغم أن الوضع مختلف في موريتانيا حيث يشكل العرب ـ ثقافة لا سلالة فقط ـ الأغلبية الساحقة من السكان ، وحيث تسود العربية في البلاد كلها، ويجمع الدين ولا يُفَرِّق، فإن الدعوة إلى كتابة اللغات الإفريقية قد

---

(1) Mamadou Dia/ Islam et civilisations nègro-Africaines - P. 37.

(2) LesRelations...,idem,p. 33.

أخذت شكلاً من الحدة لم تأخذه في الدول الإفريقية غير العربية، وتلك مفارقة أكبر!

ففي الدول الإفريقية غير العربية ، سادت لغات المستعمر السابق . ولم ترتفع دعوات متشنجة ضد تلك اللغات الأجنبية ، ولصالح اللغات المحلية . أما في موريتانيا ، فقد كانت خطوات محدودة ، متفاوتة ، لتعريب التعليم والإدارة ، بعد رحيل فرنسا ، كافية لجعل كتابة اللغات الثلاث التي يتكلمها بعض أبناء البلد من البولار والصوننكية والولوف واحدة من كبريات القضايا التي شغلت الساحة السياسية في السبعينيات والثمانينيات . ولم يكن من خلاف على مبدأ كتابة هذه اللغات وتنميتها ، وإن بدا الإلحاح في طرح القضية رد فعل ـ غير محتشم غالباً ـ على المنزلة التي تتبوّؤها العربية في الإدارة والتعليم . إنما كان الخلاف أساساً حول الحرف الذي تأخذ به الدولة (وليس الشعب الذي اختار الحرف العربي منذ قرون) في مسعاها لكتابة هذه اللغات وتعليمها وتنميتها . وكانت اعتبارات تاريخية ووطنية حاضرة في الوعي السياسي عندما قررت الحكومة المدنية في السبعينيات كتابة هذه اللغات بالحرف العربي . لكن ما إن وقع الانقلاب العسكري سنة 1978 ، وفتح ملف إصلاح التعليم من جديد حتى ارتفعت أصوات منادية بكتابة اللغات الثلاث بالحرف اللاتيني وليس بالعربي ، وبإدماج هذه اللغات في النظام التربوي الوطني ، خاصة في المناطق التي تعيش فيها أغلبية من المتحدثين بها . واستجابت الحكومة لهذه الدعوة (1979) ، فانضاف بذلك بلد عربي إلى قائمة الدول الإفريقية ، وغير الإفريقية التي آثرت حرفاً دخيلاً على حرف أصيل (لكتابة اللغات الإفريقية طبعاً ، وليس اللغة العربية) ، ولسنا نجادل في أن لكل أهل لغة الحق في كتابة لغتهم بما يشاؤون ، ولكننا نشك في أصالة الاختيار ـ إذ يقع على الحرف اللاتيني وفي صدق تعبيره عن رأي السواد الأعظم من إخواننا، خاصة حيث كانوا من المسلمين الذين لم يتربوا في المدرسة الغربية لغوية كانت أو فكرية . كما نشك في صدق الأطروحات التي يتذرع بها المحامون عن الحرف اللاتيني ، فليس هو بالحرف الأنسب لترجمة أصوات اللغات الإفريقية . وإذا لم يكن لبعض تلك الأصوات رموز في اللغة العربية فإن

أبجديتها تبقى أوسع وأكثر طواعية ـ وإن بتعديل ـ لكتابة اللغات الإفريقية .

وإذا كانت الكتابة بالحرف اللاتيني تشكل استمراراً في الزمان لعمل دام عشرات السنين في ظل الاستعمار ، وامتداداً في المكان لتجارب معاصرة في الدول الإفريقية الأخرى ؛ فإن البعدين ـ الزماني والمكاني ـ يمنحان الحرف العربي شرعية تاريخية وجغرافية أكبر وأصدق ، فهو حرف كتبت به هذه اللغات ـ أي بعضها ـ مئات السنين ، وعلى امتداد آلاف الأميال في طول القارة وعرضها ، ومن شأن هجرانه أن يضع حاجزاً بين الأجيال الإفريقية المعاصرة وبين جزء كبير وهام من تراثها المدون بهذا الحرف .

وإذا كان الحرف يجمع الشتات ويصل بين قوم وقوم فأي الرحمين أحق بأن توصل : «رحم» القوى التي استعمرت القارة وسلبتها من أجسادها وأرواحها ، أم رحم الأمة التي تدين بدين واحد وتعود إلى رصيد ثقافي وتاريخي ووجداني مشترك ، وما زال عربيها وفارسيها وهنديها يكتبون بحرف واحد ؟!

ولسنا ممن يتوهمون أن الحرف اللاتيني يقرب حتماً شقة التكنولوجيا البعيدة ، ويُلحق بركب الحضارة المُجَلِّية دون غيره ، فهل كانت تركيا بقطيعتها مع الحرف العربي واختيارها الحرف اللاتيني ، منذ 1926 أوفر حظاً في العلم والتقانة ، من اليابان والصين ـ مثلاً ـ اللتين احتفظتا بلغتيهما وأبجديتهما ، ولم يمنعهما ذلك من ارتياد آفاق التصنيع والعلم الحديث بقوة وجدارة . وتلك « دولة إسرائيل » التي اصطنعها الغربيون ، منذ عقود معدودة لم ترض أن تتبنّى لغة من اللغات الغربية ، عرفاناً لأهلها ، ولا حتى الحرف اللاتيني ، بل حرصت على أن تحيي لغة كانت منسية، وتبعث أبجديتها من مرقدها . ولعلها حققت بها من التقدم العلمي ما لم تحققه تركيا ، بل إن تركيا لم تحقق كبير شيء تمتاز به عن جاراتها اللواتي يكتبن بالحرف العربي وحده أو به وبلغته (العراق وإيران مثلاً) .

ولسنا ـ وقد أسلفنا ما تقدم ـ من الذين يتعللون بأن الحرف مجرد شكل لا أهمية له ، فلو كان كذلك لما كان ساحة للصراع . إن أتاتورك ـ وقد جاء بفلسفة تغريبية متكاملة ـ كان يدرك أن الحرف ليس مجرد شكل ، وكان على

حق في ذلك ، ولهذا دعا إلى الانسلاخ من الحرف العربي وسعى إلى تجريد المعجم التركي من المفردات العربية (نحو 13000 كلمة) . والغربيون عندما سنوا القوانين لتحريم الكتابة بالحرف العربي ، ومكنوا ـ جهدهم ـ للحرف اللاتيني في إفريقيا ، كانوا يدركون أن الحرف ليس مجرد شكل . . وكانوا على حق في ذلك . وفي هذه النظرة إلى الحرف نتفق مع خصومنا ، فنحن نرى أيضاً أن الحرف رمز كبير للهوية ، وأن الكتابة من اليمين إلى اليسار ـ أو من اليسار إلى اليمين ـ هي آصرة من الأواصر التي تجمع وتفرق في كبريات الشأن الثقافي التي يمتاز بها قوم عن قوم . وإن الحرف ليعلو فيما يرمز إليه على كل الرموز التي تمجدها الأجيال المعاصرة ، مثل العَلَم والنشيد وغيرهما . وهو يختزل من الدلالات والعواطف والقيم ما لا تختزله تلك الرموز المستحدثة . ووشيك بالعلاقة بين الحرف والمادة المعرفية التي تتلبسه أن تشبه ، في جوانب هامة ، تلك العلاقة المشهودة بين لون الماء ولون إنائه . ونحن واجدون في العصر الذي نعيشه شاهداً ناطقاً ، حياً ، على أن الحرف هو في الواقع اختيار حضاري . وكل الاختيارات الحضارية تنزع إلى العمق والجوهر حتى وهي تقع على أشكال .

ولا أحد يجادل في أن إتقان حرف معين والتمرس به كتابة ونطقاً، هما مما يمهد السبيل للوصول إلى ما دوّن بهذا الحرف ، وإن بلغات أخرى . كذلك تكون الدعوة إلى التخلي عن الحرف العربي عملاً واعياً لقطع جسر متين يصل الإفريقي بتراثه الذي كتب خارج دائرة الهيمنة الاستعمارية ، في الزمان والوجدان ؛ كما يصله بلغة القرآن وثقافة الإسلام = بمنبع حضاري مغاير لذلك الذي يبشر به الغرب المعاصر وحواريوه . مثل هذه الدعوة مثل تلك التي رفعها سعيد عقل ـ وطبقها ـ لكتابة اللهجة اللبنانية بالحرف اللاتيني ، في محاولة بائسة لقطعها عن اللغة العربية .

والواقع أن مشكلة كتابة اللغات الإفريقية الإسلامية قد أسيء طرحها في حقبتنا هذه ، فقد تبنى أقوام من الأفارقة أنفسهم دعوة غريبة عليهم قوامها أن هذه اللغات غير مكتوبة ، وأن المطلوب هو العثور على حرف تكتب به . وذلك هو الوهم ، جهلاً أو تجاهلاً ، فاللغات المقصودة هنا هي لغات تكتب منذ قرون ، وبحرف حيٍّ سيار يقرأ به مئات الملايين من البشر . وكان

الصواب أن تطرح المشكلة على نحو آخر ، وبأسئلة مثل: كيف نصلح كتابة هذه اللغات وننسقها؟ كيف ننمط حرف الكتابة ونـوحده ؟ كيف نعبـر عن الأصوات التي لا توجـد في العربيـة برمـز موحـد ؟ ما هي التعـديلات أو الإضافات التي يجب إجراؤها ، في هذا السبيل ، على حـروف الأبجديـة (العربية) التي تكتب بها هذه اللغات ؟ تلك أسئلة مشروعة ، وقد طـرحها الأقدمون، دون ريب، واجتهدوا فيها اجتهادات، وكان الأولى بنا أن ننظر في اجتهاداتهم تلك فلا نهدرها ، بل نختار منها ، ونضيف إليها ، لنكمـل ما بدأوه ، ونرقى به إلى مستوى يليق بعصر انسياب المعرفة ، وتطور وسائـل النشر والطباعة . .

وليست المشكلات التي تطرحها الأسئلة السابقة خاصة بالكتابة بالحرف العربي ، بل كانت مطروحة ـ وبصعوبة أكبر ـ على الذين يكتبون اللغـات الإفريقية بالحرف اللاتيني ، حيث تتوفر الأبجدية العربية على منظومـة من الأصوات الإفريقيـة لا تعرفهـا الإنجليزيـة والفرنسيـة مثلاً ، وحيث تمتلك حروف الهجاء العربية مرونة مميزة ، تضاعف من طواعيتها وقابليتها لـرسم مختلف الأصوات ، وحسبنا أن نستدل على ذلك بهـذه الملاحـظات التي ساقها د . يوسف الخليفة أبو بكر ، فيما يتصل باستخدام علامات الإعجام . فبهذا المبدأ أصبح كل حرف من الحروف العربية « قابلاً لاحتمالات النقط الخمسة (. . .) وهي :

ـــــنـــــــبـــــــيـــــــتـــــــثـــــ

وبذلك أصبحت الحروف المعجمية التي يمكن إنتاجها 75 حرفاً عبارة عن حاصل ضرب 5 x 15 (أ ب ح د ر س ص ط ع ف ك ل م هـ و) . يضاف إلى ذلك ثلاثة عشر حرفاً مهملاً (بعد حذف الحرفين (ب) و (ف) اللذين لا يستعملان مهملين للتعبير عن صوت (فونيم))، وعليه تكون جملة الاحتمالات 88 حرفاً . اختير للغـة العربيـة من هذه الاحتمـالات الثمانيـة والثمـانين 28 حرفـاً . واستفادت لغـات الأمم الإسلاميـة من الاحتمـالات الأخرى واستخدمت بعضها في لغاتها لتعبر بها عن الأصوات التي لا توجد في اللغة العربية وقد طبقت ذلك كثير من اللغـات غير العـربية التي كتبت بالحرف العربي .

«وأضاف بعض لغات الأمم الإسلامية مبدأ جديداً في النقط للتعبير عن بعض أصواتها التي لا توجد في اللغة العربية. من ذلك:

أ ـ النقطتان فوق الحرف أو تحته (ـــْـ ، ــــ) .

ب ـ أربع نقط فوق الحرف أو تحته (ـــ ، ـــ) .

ج ـ نقط الحرف ثلاثاً فوقه في شكل مثلث قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل (ـــ) وعكس ذلك تحت الحرف (ـــ) .

« هذا بالإضافة إلى رموز اللغة العربية التي استخدمت [الشعوب الإسلامية]ما يناسبها [منها] في لغتها واحتفظت بالبعض الاخر لتعبر به عن أصوات اللغة العربية عند تعلمها» .

فلو « أضفنا هذه الاحتمالات الجديدة الستة (ـــ ، ـــ ، ـــ ، ـــ ، ـــ ، ـــ) لكل حرف من الحروف الخمسة عشر (المهملة) لأنتجت لنا ستين شكلاً جديداً يضاف إلى الثمانية والثمانين ليكون مجموع الأشكال الممكنة 178، هذا بخلاف الإضافات التي تمت في عدد من اللغات ولم يستخدم فيها النقط مثل الكاف الفارسية (گـ) والحروف المركبة المستخدمة في الأردو واللغات الإفريقية» .

وهكذا فإن للكتابة العربية من المرونة ما يجعلها ، في الأخذ بصيغ الإعجام المختلفة ، قادرة على توليد نحو مائتي شكل انطلاقاً من خمسة عشر حرفاً فقط . وطبيعي أن أياً من اللغات الإسلامية لا تحتاج بالضرورة إلى هذا العدد كله من الأشكال[1] .

ولعل تطويوع الأبجدية العربية يحتمل ضروباً أخرى من النظر والاجتهاد. . .

الرد المنسق :

وأياً يكن الأمر ، فإن تطويع الحرف العربي لكتابة اللغات الإفريقية وفق منهجية مصطلح عليها هو عمل مطلوب ، وحقيق باستدعاء جهد جماعي ، ترعاه المؤسسات ، مستفيدة من خبرة أولي المعرفة .

---

(1) انظر : يوسف الخليفة في (العربية في اللغات. . . م س ـ ص 18).

وقد كان لبعض الأفارقة تجارب في هذا الميدان، حقيقة بأن تدرس وتشجع، ولعل من أبرز المعاصرين من هؤلاء، الكاتب الكبير المرحوم أمادو آمباتي با الذي وضع أبجدية عربية اقترحها لكتابة اللغات الإفريقية. وفي السبعينيات كان المرحوم كبَل علي ديالو (موريتاني) قد اقترح بدوره أبجدية عربية منسقة لكتابة اللغة البولارية . وتنطلق النشريات صحفاً وكتباً الصادرة باللغات الإفريقية المكتوبة بالحرف العربي ، خلال هذا القرن عن تجارب مماثلة يحسن النظر فيها ومقارنتها ، سعياً إلى بناء أبجدية منسقة يتم تعميمها من بعد .

ومن المبادرات الأصيلة مبادرة المنظمة النيجيرية لورشة التعليم Nigerian educationnel corporation التي تأسست عام 1978 ، فبادرت بعقد ندوة في شهر يونيو حزيران من السنة ذاتها لدراسة موضوع «العجمي» (الأبجدية العربية لكتابة الهوسية) .

واحتضنت هذه الندوةَ جامعةُ عبد الله بايورو في كانو عاصمة الشمال ، وحضرها مدرسون ولغويون من هذه الجامعة وغيرها من جامعات شمال نيجيريا ، وممثلون لوزارات التعليم في ولايات نيجيريا الشمالية وقد اتفق المشاركون في الندوة على أن «العجمي» وسيلة هامة للحفاظ على التراث الأدبي للغة الهوسا واستمراريته في الحياة المعاصرة ، كما أنه وسيلة من وسائل القضاء على الأمية لأن الأغلبية من أبناء شعب الهوسا يعرفون العجمي من خلال دراستهم في المدارس القرآنية .

وقد سلكت الأمم الغربية مسلكاً ناجعاً حين غرست في بلاد إفريقيا عدداً من مؤسسات النشر والطباعة ، المختصة في إصدار المنشورات والكتب الإفريقية لغةً، اللاتينية حرفاً، مثل مؤسسة Gaskya corporation (مؤسسة الحق !) المهتمة بلغات غرب إفريقيا ، وخاصة الهوسا (ومنها كلمة Gaskya) ، والفلانية ، ونظيرتها في شرق إفريقيا East Africa tut Bureau(مكتب شرق إفريقيا للنشر) ، وهو مؤسسة تهتم بالسواحلية بالدرجة الأولى[1] .

(1) انظر : الصباح (تونسية) ـ 27-12-1988 .

ومنذ سنوات قليلة اهتمت بعض الهيئات الدولية بالحرف العربي ، فكان للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة والبنك الإسلامي للتنمية مشروع ، شاركهما فيه معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط ، لكتابة لغات الشعوب الإسلامية غير الناطقة بالعربية ، في قارتي إفريقيا وآسيا . واهتم المشروع على نحو خاص ببعض اللغات الإفريقية مثل البولارية وفولفلدي والماندنكية (الديولا ، البمبارا) والسواحيلية ، والصوننكية ، والهوسا، والسنغاي، والزرما ، والولفية . وصنف المشروع العمل المطلوب في مراحل تبدأ من الاستكشاف مروراً بالجرد والتحليل والتنفيذ والتجريب ، وصولاً إلى صنع آلات الكتابة والطباعة وتأليف الكتب والمعاجم ونشرها .

وقد وضع المشروع سنة 1408 هـ/ 1988 م . وانعقدت في السنة ذاتها ندوة في جدة (19-20 شعبان 1408 هـ/ 6-7 إبريل نيسان 1988 م) شاركت فيها الهيئات الثلاث ، وانضاف إليها خبراء من جامعة أم القرى وجامعة الملك عبد العزيز بالسعودية ومعهد الخرطوم الدولي للغة العربية .

وتمَّ في الاجتماع إقرار خطة عمل لكتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف العربي ، عرضت لاحقاً على اليونسكو التي سبق لها أن خاضت تجربة في المجال ذاته ، بالتعاون مع منظمات أخرى .

وقد تبنى اجتماع جدة اقتراحات بتوزيع العمل بين مجموعة من الهيئات تتولى كل منها العمل في منطقة من مناطق العالم الإسلامي. واقترح أن تتولى اليونسكو (المكتب الإقليمي للتربية بغرب إفريقيا) وضع الرموز العربية الموحدة لكتابة البولارية ـ الفولفولدي، والسنغاي ـ زارما، والولوفية، والهوسية ، والماندنكية ـ البمبارية، والصوننكية، وأن يتولى معهد الخرطوم الدولي للغة العربية تنميط كتابة السواحيلية وبعض لغات شرق إفريقيا بالحروف العربية ، بينما تتولى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة مهمة تنميط كتابة اللغات الإسلامية في آسيا ، ويتولى معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالمغرب تصنيع الآلات الطباعية والمعلوماتية الضرورية .

وكان لليونسكو ، من خلال مكتبها بداكار ، تجربة في مجال كتابة لغات إفريقية بالحرف العربي ، في إطار برنامج مشترك ، وضع في مارس

آذار 1984 باتفاق بين اليونسكو والبنك الإسلامي للتنمية وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، وذلك في نطاق البرنامج الإقليمي لمحو الأمية في إفريقيا .

وقد سمح هذا البرنامج بإنجاز خمس دراسات حول استعمال الحروف العربية في كتابة البولارية ـ الفولفولدي، والسونغاي ، وزارما، والهوسية، والولفية ، وكانوري، بالإضافة إلى دراستين حول تنسيق أساليب كتابة الهوسية والكانوري في إقليمي كانو ومايدغري بشمال نيجيريا .

وتم في نطاق البرنامج إعداد مجموعة من أدوات التعليم ، من كتب دراسية وأدلة تطبيقية ، وتدريب عدد محدود من معلمي القرآن الكريم (نحو 24 مدرساً) وافتتاح بضعة فصول تجريبية في مالي والنيجر والسنغال .

وقد تم إعداد الرموز العربية الموحدة لكتابة البولارية ـ الفولفولدي، وسونغاي ـ زارما ، والهوسية والولفية . ونوقشت هذه الرموز في بعض الملتقيات ، مثل الملتقى الخاص بكتابة البولارية ـ الفولفولدي والزارما ـ سونغاي ، الذي رعته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالرباط في 11-13 مارس 1988 ، مواصلة لملتقى سابق انعقد في باماكو في 11-14 نوفمبر 1987 ، وقد انتظم الملتقيان بالتعاون مع المكتب الإقليمي لليونسكو بداكار ، ومعهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط . فأقر ملتقى الرباط مجموعة من الرموز المقترحة لكتابة بعض أصوات اللغات الإفريقية .

وكان مصيباً في مراعاة وحدة الأمة الإسلامية ، حيث آثر استعمال أشكال مستخدمة في كتابة اللغات الإسلامية بآسيا عوضاً عن أشكال مقترحة جديدة . وقد أقر الملتقى مجموعة أشكال طباعية تتكون من ٨٩ رمزاً تكفي لكتابة اللغات الإفريقية المذكورة واللغة العربية .

ولم تكن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم غائبة عن هذا الجهد ؛ فقد اهتم جهازان من أجهزتها المختصة بالعلاقة بين اللغة العربية واللغات الإفريقية . وإذا كان جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية ، قد اهتم أساساً بعلاقات التداخل اللغوي ، بين اللغة العربية واللغات الإفريقية ، فإن معهد الخرطوم الدولي للغة العربية ـ وهو كسابقه

تابع للمنظمة العربية ـ قد اهتم اهتماماً خاصاً بالحرف العربي ، وشارك في عدد من الأنشطة والندوات التي نظمتها الهيئات المختلفة المعنية بكتابة اللغات الإفريقية بالحرف العربي .

وهكذا نلاحظ منذ أواسط الثمانينيات اهتمام عدد من المؤسسات بالدفاع عن الحرف العربي ، وسعيها لتعزيز مكانته في إفريقيا ، بما يمكنه من منافسة الحرف اللاتيني ، الذي تعنى دول وهيئات مختلفة ، ومنذ عشرات السنين ، بزرعه في أرجاء إفريقيا ، ليكون الحرف الوحيد لكتابة لغات القارة في التعليم والإدارة والنشر والإعلام .

ومن الحق أن نعترف بأن أهل الشأن من العرب والمسلمين ، ممن يملكون الإمكانات، ويتحملون شطراً غير هين من المسؤوليات، قد دخلوا ساحة الصراع على الحرف متأخرين. ولولا بقية من قوة ذاتية للحرف العربي ، في قبائل وشعوب إفريقية تدين بالإسلام ، لكان الانخراط المتأخر في هذه المعركة الثقافية موقفاً شبه عبثي ؛ ذلك أن الغربيين، وقد هيمنوا على الأرض منذ عقود طويلة ـ وربما قرون ـ قد أخذوا المبادرة الواعية ، قبل أن نأخذها نحْن جمعيةً واعيةً ، ورصدوا لها من الوسائل والإمكانات ما لم ترصده مؤسسة عربية أو إسلامية لصالح الحرف العربي .

لقد تعمق الأوروبيون في دراسة لغات إفريقيا ، وبذلوا ما في وسعهم لربطها نهائياً بكبريات اللغات الغربية ، عن طريق الحرف ـ الرابطة الوثيقة ، وعن طريق الكتاب الذي ينشر به ، وعن طريق المعاجم بشكل خاص . . فقبل أن تظهر معاجم (عربية ـ لغات إفريقية) كان عدد مهم من المعاجم قد صدر لربط هذه اللغات باللغات الأوروبية ، بينما لا تزال جل اللغات الإسلامية الإفريقية تفتقر إلى معاجم ثنائية تربطها باللغة العربية .

ومع ذلك ، فإن الصراع ـ وإن كان غير متكافىء في جوانب أسلفناها ـ لم يحسم بعد ؛ وهو أَعْقَد من أن تحسمه قرارات سياسية ، بل هو نزال مستمر على الساحة الثقافية الحضارية . ويظل من أحق الحق وأوجب الواجب أن نخوضه ـ أفارقة وعرباً مسلمين ـ بالقوة التي نملك .

ولعل من عناصر القوة الأساسية لدينا الفرق الجوهري بين حرفين :

أحدهما لم يفرض على أبناء القارة بالقوة، بل احتضنوه طواعية، وبمحبة ، كما احتضنوا الإسلام، دين القارة الأول ، وأصبح مستودع تراث القارة ، وثقافتها العميقة ، ومظهراً من مظاهر شخصيتها المتميزة وهويتها المتأصلة ، فصار «عجمياً» ـ على حد تعبير الهوساويين ـ بقدر ما هو عربي . ذلك أحد الحرفين، أما ثانيهما (اللاتيني) فقد انتشر تحت ظل السيف، وفرض على السكان، وحمل إليهم ثقافة «الاستغراب»، ثقافة متعالية جعلت همها إلحاق الإنسان الإفريقي وربطه بنموذج حضاري غريب عليه ، يكون فيه طفيلياً تابعاً ، ممسوخ الروح ، مستلب الإرادة . . .

تلك شنشنة الاستعمار مع جميع الشعوب طبعاً ، ولكنها في القارة الإفريقية أجلى وأوضح .

لقد تنكر المستعمرون لتراث الأفارقة وتاريخهم وخير قيمهم ، واعتبروا القارة تربة بكراً لزرع قيم حضارية جديدة ، بما فيها الكتابة ، والثقافة والأخلاق . ألم يقل قائلهم (Pierre Arnaud) : « لا نعترف في إفريقيا الغربية إلاّ بسلوك أخلاقي واحد هو سلوكنا !!؟ »[1] وعلى هذا الأساس الفكري ، نشّأ المستعمرون جيلاً من الأفارقة مستلباً لا يرى لذاته وجوداً خارج ذات المستعمر الذي رباه وغلبه على أمره . نقول ذلك عرضاً ، ولا ننكر أن بعض المثقفين الأفارقة الذين تربوا في المدرسة الاستعمارية قد استطاعوا أن يحافظوا على وعيهم الحضاري المتميز ، فكتبوا بلغة المستعمر دون أن ينماعوا في فكره وثقافته ، لكنهم ، ورغماً عنهم أحياناً ، كانوا بعطائهم الثقافي أدوات إشعاع للغات الغربية في إفريقيا . ولم يكن دفاعهم عن الذاتية الإفريقية المتميزة ليبرىء اللغة التي يكتبون بها من طابع الهيمنة والاستعلاء الذي دخلت به القارة .

إن النزهاء من هؤلاء والسواد الأعظم من الأفارقة المسلمين يمكن أن يتبينوا بسهولة أولوية الاحتفاظ بحرف تعبّدوا الله به ، وتعلموا ، واتخذوه أداة لكتابة لغاتهم منذ قرون ، حتى أنهم أضافوا أشكالاً جديدة مميزة إلى جملة

(1) عبد القادر سيلا/ المسلمون في السنغال ـ ص 86 .

أشكال الخطوط العربية ، وأودعوها من تاريخهم وثقافتهم مـا لا يليق بهم الانقطاع عنه .

ثم إن الكتابة بالحرف العربي تمثـل ـ في إفريقيا المسلمـة ـ أخصر الطرق لمكافحة الأمية ، ذلك أن للأفارقة المسلمين من الاستعداد لتعلم هذا الحرف ، ومن الخبرات البشرية اللازمة لتعليمه ، بتكلفة هينة ، ما ليس لهم ما يماثله أو يدانيه إزاء الحروف اللاتينية .

إن المحافظة على الحرف العربي في إفريقيا تمثل ـ في واقع الأمر ـ صيانة لركن من أركان الهوية الثقافية في هذه البلاد ، ورعاية لتراث القارة ، في جزء كبير منه اختطه الأفارقة بأنفسهم أو اختطه أشقاؤهم العرب، وهم يدونون تاريخ إفريقيا، ويُعَرِّفون بها ، وفي ذلك يقول إيبادير تيام : « رغم وجود أبجديات إفريقية مثل الأبجدية المصرية (القديمة) وأبجدية التمني ، والأبجدية الحبشية ، وأبجدية بامون ، فإنه بفضل العربية خاصة وصل إلينا جانب من ثقافة البلاد الإفـريقية الـواقعة جنـوب الصحراء . . . » لـذلك، ولغيره، يقول وزير التربية السنغالي السابق : « علينا أن نولي الثقافة العربية ، ذات الحضور الواسع في بلادنا ، عناية أكبر . وبدون ذلك فإننا لن نستعيد أبداً الأبعاد الحقيقية لهويتنا الثقافية »[1] .

تلك كلمة حق . . وإذا كان من أولوية ترسم في هذا الصدد ، فلتكن العناية بتلك الأبجدية (الإفريقية أيضاً): الأبجدية العربية، لا لنشر اللغة العربية ، فلا انفصام بينها وبين حروفها ، وإنما لمواصلة المسار الذي بدأه الأولون في كتابة اللغات الإفريقية ، والإشعاع بها في القارة وخارجها .

وهكذا ينبغي أن يصل العمل الذي شرع فيه ، لكتابة اللغات الإفريقية بالحرف العربي إلى مداه تنميطاً وتنسيقاً وصناعة ثقافية، وينبغي أن نبادر إلى نشر ذخائر المخطوطات الإفريقية المكتوبـة بالحـرف العربي ، لتكـون في متناول أبناء القارة ، فتصلهم بتاريخهم وثقافتهم ، وتيسر لهم التواصل الحي مع الحرف العربي ، الذي به يدرسون القرآن . . . ولا حاجة في هذا الشأن

---

(1) Les Relations, idem, P. 197.

إلى قرارات رسمية ، فهي محدودة الجدوى إزاء العمل الشعبي ، والواقع المتجذر الذي نعتقد أنه، ورغم يأس بعض الأفارقة المستعربين ، مـا زال مشدوداً إلى الأبجدية العربية ، بما يتناسب ـ أو يكاد ـ مـع تجذر الإسـلام وثقافته في تلك البلاد .

يليه الاعلام بأني وجدت مكتوبكم وانت في عير
الرض فيه حمد الله تعالى وقد سبقت لكم النظرة
بتقدير العزيز العليم
وهي العناية لا تنفك عيونها
تنفع فيه النجاة وكلهم امال
والسلام

خط إفريقي عربي
نموذج من خط شيخ الإسلام الشيخ الحاج إبراهيم
نياس الكولخي

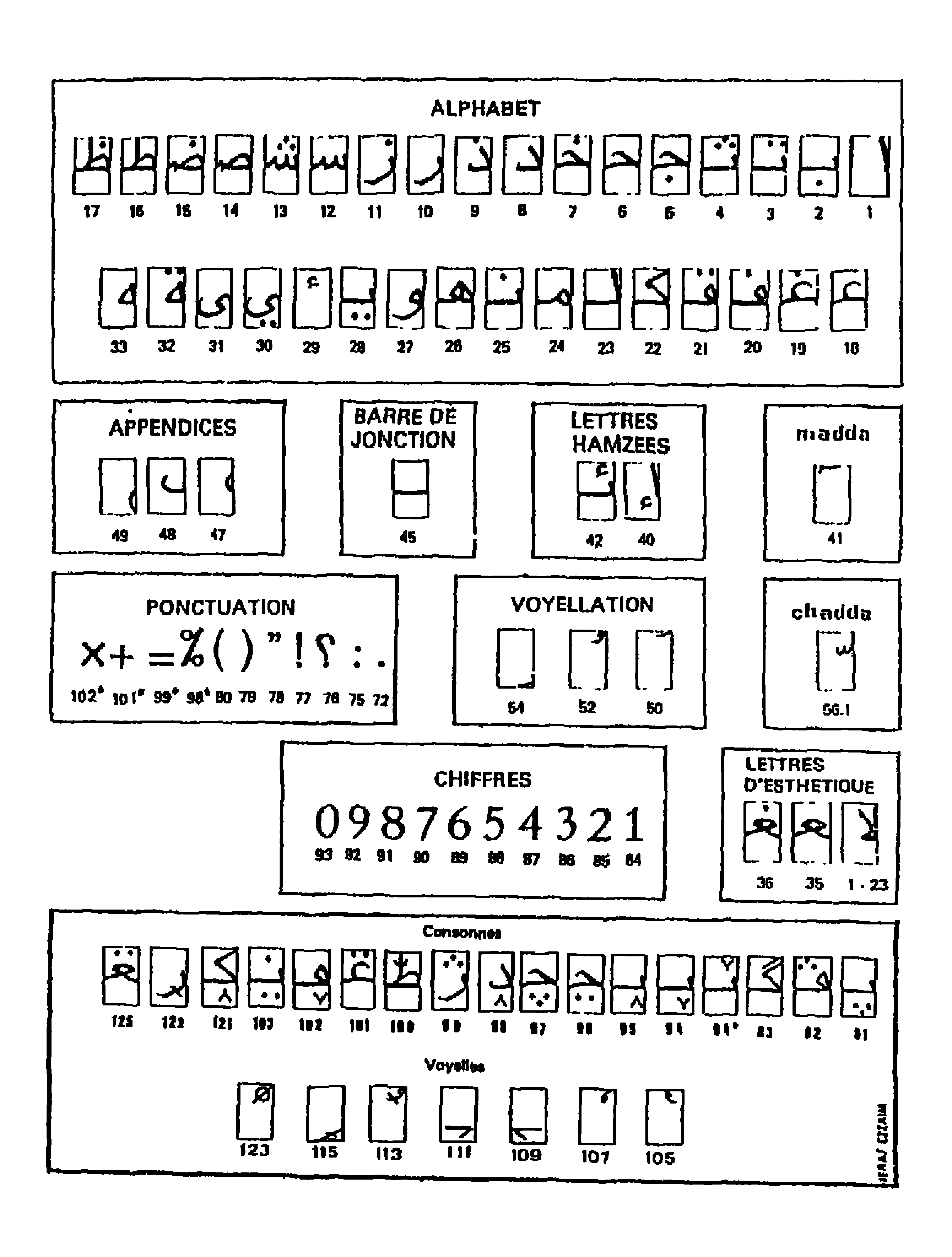
نسمى دكر جاميم نيغل جكتل — ورت جساد مومل نبوت كوانة ل
بورج للبيس سوف نتجغة — نيكم مقلم آسمان انة وسقه
بوت جبنين يتدك مومك انكل امومن — موبم جم مجاخلج لن موز سلوم
ترتون برج يل بورب بيلة — موي آجيال كبرج نون مبالله
لدين دكل يتقرل نكل سمغ — نغفر بورب موكب ف بموك كسبج
بلم دفج اب جلت موزلن يوم — بوورم معم ول خمل يلاي كمغم
وغتج الفزاع عسى ان تكرهوا — منتباوهو خير لكم تنتبهوا
ثم عسى وهو شر لكم — منكلين باتيجاي ولف تمسو
آمان انكين ديسب دكل جام امين — بيوك موزلكن دهيلين جل سين
نونيل انكين دبك امين دجمعة — مشغ جعل تمجكرج آمجة
كون يل بورب موك غم ين هيلين — مويال يريل اي يرمند ايم بنيخلين
سغ بوزيلبلن بنغ شني — بنج يلاك مجم شفرود ى
ننيد سنت بورب يل نبني بل — رج بوورلو سرون تيث بنجل
نلوي دير يولين شني بيبنلي — دني دكر بوكبلي د ف جوبي
ورك جبيل بوك ورل موزلة — نكم ورينرتك كج ورلة
مجم جوايم كني يقل اك خزمة — تبسد جت باكب بوموزمة

نموذج من منظومة .ولفية مكتوبة بالحرف العربي

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على النبي الكريم

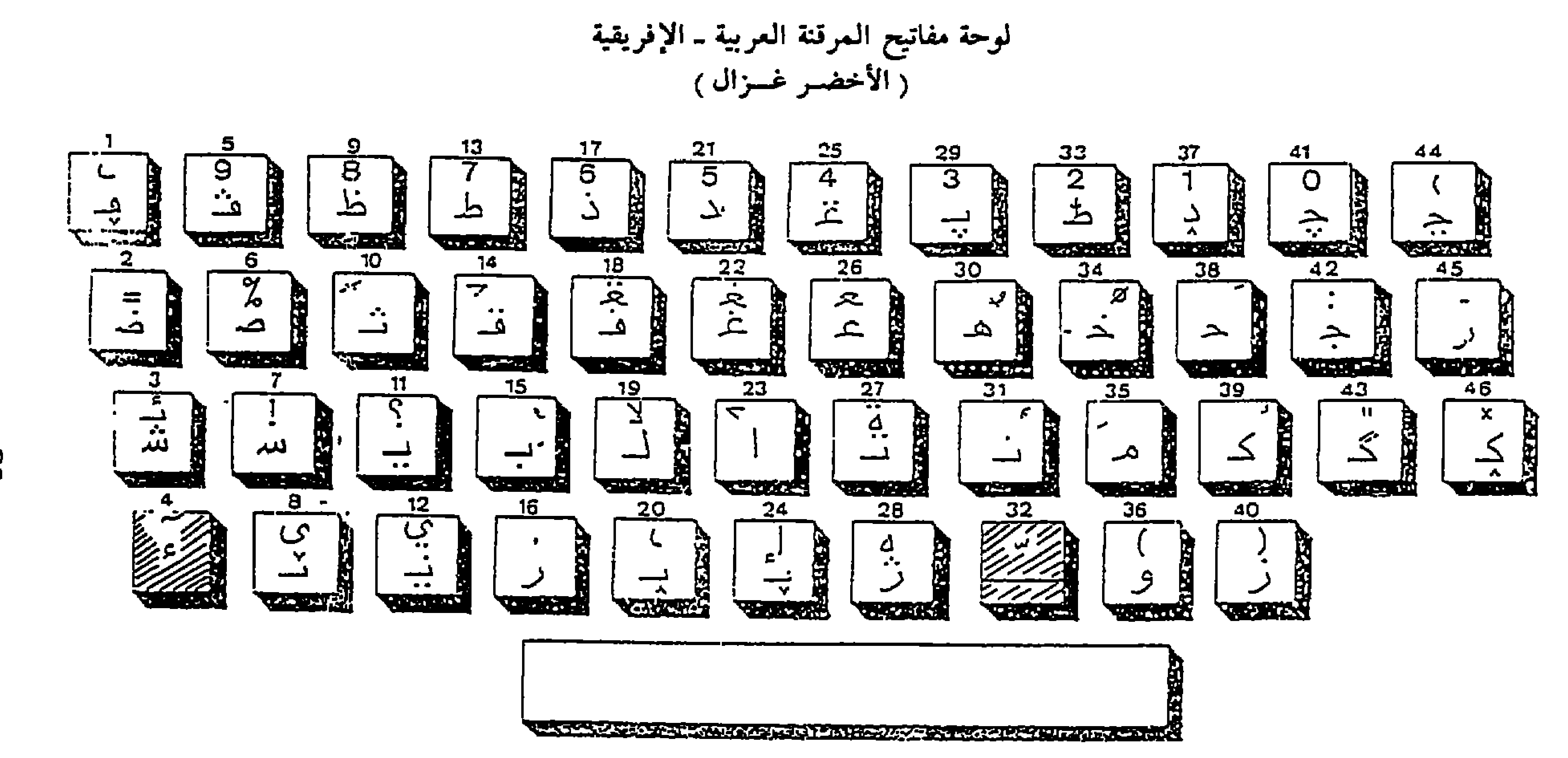
	عارية جي طى 12	فلبع عاري ذتيع طى كربيج 16	فلباجي طى 11	فوتز ترز ذتل مذز
	حروف عربية	حروف متحركة	حروف قرانية	الحركات
(١) الف هابا غو		ا a (١)		
غن برالف عاري		ب b	ب mb	ـَ = a
		ج j	ب ɓ	ـِ = i
		د d	چ ndj	ـُ = u
	ز	هـ h	د nd	= ü
	ح	و w	ط ď	= o
	ص	ط ɗ	ك g	= e
	ع	ي y	ڮ ng	= ɛ
	ض	ك k	ين ny	
	ف	ل l	يـ n	
	ث	م m	ڨ ŋ	
	خ	ن n	ث tch	
	ذ	ف f		
	ظ	ر r		
	غ	س s		
	ش	ت t		

أبجدية الكاتب الكبير المرحوم
أحمد هامباتي - با



لوحة الحروف الطباعية (ابتكار أحمد الأخضر غزال) لطباعة العربية واللغات الإفريقية

لوحة مفاتيح المرقنة العربية ـ الإفريقية
(الأخضر غـزال)



تصلح هذه المرقنة لكتابة اللغة العربية واللغات الإفريقية : السواحيلية والهوسا ، والبولارية/ الفولفلدي والقمرية والصونكية/ السرغلاوية والولفية والمالينكية/ البمبارا والسنغاي/ زرما و السوسو والأرومو والدينكا واللوغندا واللوكبارة، والكانوري، والتماشق.

LETTRES						SIGNES DE VOYELLATION	
a	ا	ś	ش	w	و	a	ـَ
b	ب	ɗ	ط	y	ي	i	ـِ
p	پ	g	گ	č	چ	e	ـٍ
ɓ	ٻ	q	ق	pv	ڤ	u	ـُ
t	ت	ŋ	ڠ	v	ڨ	o	ـٗ
c	ݖ	f	ف	ɓ˚	ٮ	Absence	ـْ
j	ج	k	ك	ž	ژ	Shadda	ـّ
ɣ	ڃ	l	ل	ɗ˚	ڋ	ɔ	ـٚ
d	د	m	م	ɗ	ظ	ɛ	ـٖ
r	ر	n	ن	ƒ	ڂ	uu	ـٌ
z	ز	ny	ڹ			ii	ـٕ
s	س	h	ه			ə	ø

الأبجدية العربية المنسقة في مُقابل الأبجدية اللاتينية لكتابة اللغات الإفريقية

الفصل الثالث

الاستعمار في إفريقيا

يمكن تصنيف مراحل الحضور الاستعماري في إفريقيا إلى مرحلتين بارزتين هما : مرحلة تجارة المحيطات ، ومرحلة الاحتلال ، وسنجد أن للاستعمار أثراً باقياً بعد رحيل إدارته وجيوشه ، وأن له روافد تدعم مسعاه في القارة .

المبحث الأوّل

تجارة المحيطات: عصر النخاسة الكبير

لم تكن للأوروبيين قديماً علاقة بإفريقيا إلاّ عن طريق البحر الأبيض المتوسّط ، وكانوا يطمحون إلى الاقتراب من مصادر السلع التي تستجلب إلى شمال إفريقيا من بلاد السودان، كما كانوا يتطلّعون إلى اكتشاف طريق أقصر للوصول إلى الهند . وبدافع الحاجة هذا انطلق البحّارة المستكشفون يمخرون المحيط الأطلسي ، فاكتشفوا منذ القرن 9 هـ/ 15 م الأرض التي كانوا يجهلونها ، وأقاموا لهم مراكز تجارية موسمية ثمّ قارة على سواحل موريتانيا وإفريقيا الغربية، وتوغّلوا في بعض البلدان ، وفي فترات معيّنة، فأقاموا لهم مراكز في أعماق البر الإفريقي .

وشهدت شواطىء إفريقيا موجات متعاقبة من البرتغاليين والإسبان والهولنديين والفرنسيين والإنجليز . . . إلخ ، الذين كانوا يتنافسون في سباق محموم على استغلال خيرات إفريقيا باستيراد سلعها الثمينة مثل الذهب والصمغ . . . وخاصّة الإنسان !

لقد كان عصر الاستعمار الأول عصر نخاسة ، تحوّلت فيه إفريقيا ولمدّة قرون ، إلى سوق كبيرة للرقيق، يتهافت عليها الأوروبيون في أبشع حملة عرفتها البشرية لاستعباد الإنسان .

ولقد حاول أعداء الإسلام من بعد أن يلصقوا بالعرب ، في مبالغة مغرضة تهمة استرقاق الأفارقة ، وأن يهوّلوا من شأن ظاهرة الرق التي واجهها الإسلام ـ منذ عصر الوحي ـ فشرع أحكاماً وقَعَّد قواعد للتحرّر منها وإلغاء آثارها الاجتماعية وتبعاتها الاقتصادية .

ولم تكن الحملة على العرب وتهويل ظاهرة الرق عندهم إلاّ محاولة مستمرّة إلى اليوم للفت نظر الأفارقة عن الجرائم البشعة التي ارتكبها بحقّهم تجّار المحيطات في عصور خلت ، ولتشويه صورة العرب في إفريقيا وإقامة

حاجز مصطنع من العقد النفسية بينهم وبين أشقائهم الأفارقة .

إنَّ التلميذ الزائيري ـ مثلاً ـ ما زال يتلقّى إلى اليوم دروساً ترسخ في ذهنه صورة العربي الذي يتاجر بالإنسان الأسود ، ولكنّه ـ فيما يبدو ـ لا يتعلّم موقف الإسلام من الرق ، ولا يتعلّم موقف الكنيسة في القرون الوسطى من استرقاق الأفارقة ولا حجم الخسائر التي لحقت بالقارة ، استرقاقاً واستنزافاً للخيرات وإهانة للكرامة في عصر النخاسة الكبير .

وصل البرتغاليون سنة 1434 م إلى الشواطىء الموريتانية وبدأوا يسعون إلى ربط علاقات تجارية مع السكّان، وفي سنة 1442 م دشنوا عصر النخاسة الجديدة باختطاف بياضين (عرب ما يعرف اليوم بموريتانيا) فكان العرب من أول ضحايا الرق في الحملة البرتغالية .

وفي سنة 1454 م شرع البابا نيقولا الخامس (NICOLA 5) سيطرة البرتغاليين على الشواطىء الإفريقية، مباركاً بذلك تجارة الرقيق التي لم تلبث إسبانيا أن بدأت تنافس البرتغال عليها فتدخّل البابا الإسكندر السادس (ALEXANDRE 6) لحسم الصراع برسم خطّ على الخريطة يوزّع مناطق النفوذ بين القوتين البحريتين .

وبمباركة الكنيسة استقطبت تجارة الرقيق اهتمام الدول الأوروبية الأخرى وتكوّنت شركات إنجليزية وفرنسية مختصّة بالنخاسة ، ترعاها الحكومة .

وكأن الشركة الحكومية الإنجليزية لم توفّق في أداء مهمتها على النحو الأكمل، فقد كانت حصيلة نشاط (La compagnie des aventuriers royaux d'Afrique) في عشر سنوات 259 رحلة بحرية حملت 46396 زنجياً (فقط !) إلى عالم العبودية القصي . . . . . وهكذا أقرّ البرلمان الإنجليزي سنة 1697 م ليبرالية تجارة الرقيق ، وكانت النتيجة «مشجّعة» فقد استطاع التجّار الخواص ، خلال سنتين فقط ، تصدير 42000 زنجي إلى جامايكا .

وكان أولئك المستضعفون ينقلون من جزيرتي غوريه (Goree) وكاراباني (Carabane) بالسنغال وغيرهما في ظروف قاسية، مكدسين بكميّات

كبيرة كما تكدّس البضائع لتصل السفينة إلى غاية حمولتها . وكانت السفن وهي تحمل أسماء غريبة مثل (العدل Justice) مجهّزة بسلاسل الحديد وغيرها من وسائل التعذيب والإهانة ، فكانت أعداد كبيرة من المستعبدين تهلك في الطريق ، أمّا الذين يصلون سالمين فإنّهم يفرّقون ، فيفصل ذوو القرابة ، بعضهم عن بعض، ويجرّدون من أسمائهم إمعاناً في تجريدهم من أبسط خصائص الإنسان ، ثم يستخدمون في المزارع والخدمة المنزلية وغيرها .

وقد تحدث الكاتب الزنجي ألكس هيلي Alex Haley في كتابه « الجذور » The roots عن رحلة العذاب هذه، كما روتها له جدته . . . وكان جده كونتا غي (وهو مسلم) قد اختطفه أربعة من صيادي الرقيق البيض .

وهكذا كانت السنغال في ق 17 م تصدر معدّل 50000 «عبد» سنوياً إلى العالم الغربي ، وكانت الداهومي تصدّر نحو 15000 . وفي القرن 18 م كانت شاطىء الذهب (غانا اليوم) تصدّر سنوياً نحو 35000 . وقد بيع 370000 «عبد» من الإيبو على ضفاف النيجر خلال 20 سنة فقط ، وخلال 39 سنة ، (من سنة 1762 إلى 1800 م) وصلت إلى البرازيل 588 سفينة تحمل ما مجموعه 251000 «عبد» من أنغولا .

وقد قيل إن تجارة الرقيق هذه كلّفت إفريقيا 200 مليون فرد ويتجنّب آخرون المبالغة فيكتفون برقم 20 مليون ، وكان واحد من كل تسعة أو خمسة أفراد يموت في الطريق لسوء الظروف وقسوة المعاملة .

وتعدّدت في أوروبا الموانىء المختصّة باستقبال السفن المحمّلة بالرقيق الإفريقي مثل موانىء نانت (Nantes) وبوردو (Bordeaux) وسان مالو (Saint-Malo) وليفربول (Liverpool) ، التي كسبت ثروة طائلة من هذه التجارة .

ويعدّد كيزربو ، وهو كاتب إفريقي غير مسلم ، آثار الحملة الأوروبية لاسترقاق الأفارقة ، فيذكر منها على الخصوص :

1 ـ حرمان القارة الإفريقية من بعض الكفاءات الثقافية النادرة التي

كانت تمتلكها آنذاك ، حيث كان من المستعبدين طائفة من المسلمين الذين يكتبون العربية ويقرؤونهـا ، في عهد من أحلك عهـود الجهل والأميّـة في القارة ، وقد تحدّث ولبرفورس (Wilber force) عن شحنة من الزنوج تشمل 130 فرداً ، بينهم 25 يكتبون العربية[1] .

ويشهد لذلـك أن مكتبة هـارفارد تتضمّن 5 أو 6 مخـطوطات عـربية لـ «عبيد» أفارقة .

(لنتذكّر أنّه في أطلنطا كان كل أسود يتعلّم الكتابة يعاقب ببتر يده اليمنى)[2] .

2 ـ استنزاف القوى النشطة في القارة ، فقد كان تجّار الرقيق يرفضون الشيوخ والأطفال ويصدرون تعليمات صارمة بانتقاء الشبّـان المرد الأقـوياء والفتيـات النواهـد ، وهـم القوّة المنتجـة النشطة في المجتمـع ، وبـذلـك تضررت الزراعة الإفريقية التي تحتاج لمثل هؤلاء .

3 ـ إثارة العنف وإذكاء نار الحرب بين القبائل الإفريقية ، بل وبين أفراد القبيلة الواحدة .

يقول برونود بومغورج (Pruneau de Pommegorge) معترفـاً: « لقد تحوّلت هذه الشعوب (الإفريقيـة) بسبب جشعنا الإجـرامي، إلى حيوانـات شرسة » .

« إنّهم يقتلون ويدمّر بعضهم بعضاً لا لشيء إلاّ للسيطرة على إخوان لهم يسلمونهم بيْعاً إلى أسياد همج يستـرقونهم [التجار الأوروبيين] وينظر الملوك [الأفارقة] أنفسهم إلى رعاياهم كما لو كانوا مجرّد سلعة يصرفونها في إشباع نزواتهم (. . .) وبذلك فقد الأفارقة هويّتهم وإنسانيتهم » .

ويخلص كيزربو إلى أنه من المستحيل موضوعياً مقارنة تجارة الرقيق عند

---

(1) Ki-Zerbo;: Histoire de l'Afrique, p 208 - 222.

(2) Vincent Monteil: Islam Noir, p 341, 342, 345.

العرب بتجارة الرقيق عند الأوروبيين ذلك أن الأخيرة تتم بوسائل هائلة (سفن ، حملات جماعية ، شركات ترعاها الدولة أو تشجّعها) بينما يقوم بالأولى في الغالب قطاع طرق ولصوص (لا مؤسسات) ، ثم إن الأرقاء يستخدمون لأغراض وفي ظروف غير قاسية(1) .

وفي بحث علمي موثق يؤكد الأستاذ يوروفال Yero Fall الأستاذ بجامعتي دكار والسوربون ، أن ربط حركة الرق في إفريقيا بالإسلام لا يستند إلى أي أساس من الموضوعية ، مشيراً إلى جملة من الحقائق، نذكر منها :

1 ـ لم يكن الرق السائد في الجزيرة العربية منذ ما قبل الإسلام موجهاً ضد السود وحدهم ، وإنما كان هناك أرقاء بيض أو شقر . . . إلخ . (ونضيف من العرب أنفسهم أحياناً . . ولهذا فليس للرق الذي عرفته المجتمعات العربية ، ثم المسلمة فيما بعد ، أي طابع عرقي عنصري) .

2 ـ منذ ظهور الإسلام لم تعد وضعية الرق ، وسواد اللون حائلاً دون تقدم الإنسان في السلم الاجتماعي . وحسبنا مثلاً أن نذكر بلالاً الحبشي ، أول مؤذن في الإسلام ، وغير بعيد من ذلك المكانة الخاصة للشاعر الفارس الجاهلي عنترة بن شداد في التراث العربي الإسلامي وذاكرته الحية إلى اليوم (وقد لفت د . محيي الدين صابر النظر إلى أن الجاحظ ، وهناك من يعتبره أكبر كاتب عربي ، كان إفريقياً) .

3 ـ عرفت المجتمعات الإفريقية ، جنوب الصحراء ، الرق والتمايز الطبقي قبل الإسلام ، بل قبل ميلاد عيسى عليه السلام بقرنين من الزمن ، في ضوء ما أثبتته البحوث الأثرية والاكتشافات العلمية المترتبة عليها في مناطق حول نهر غامبيا .

4 ـ تحدث المؤرخون العرب القدامى ، وخاصة أبو العباس أحمد اليعقوبي (ت 278 هـ) عن الرق الذي مارسه على حَد سواء بعض المسلمين وبعض الأفارقة غير المسلمين (سودان يبيعون سوداناً، بلا حرب تقتضي

---

(1) Ki-Zerbo, idem, p. 220.

ذلك)، دون مراعاة أحكام الشريعة[1] .

(وبـذلك يتضـح أن ممارسـات الاسترقـاق تلك لم تكن مُسَلَّمة في المجتمع الإسلامي . . . كان الاسترقاق، في حالات كثيرة، عملاً فردياً لا تمارسه الجماعة كلها ولا تشرعه ولا تزكيه) .

وهذه شهادات بعض الغربيين القدماء حول طبيعة الرق الذي عرفتـه المجتمعات العربية (ليتضح بالمقارنة الفرق بين هذا الرق المنـزلي والرق الاقتصادي «المؤسسي» الذي ساد في المجتمعات الغربية) .

فقد لاحظ الرحالة البرتغالي دورات بارباسا Barbasa في أوائل القرن السادس عشر الميلادي أن حالة الرقيق في شرق إفريقيا كانت تدل على ما لمالكيهم من العرب من إنسانية حتى ليعجز المرء أحياناً أن يميز الرقيق عن مالكه ، إذ يبيح هؤلاء لهم [والواقع أن الشرع هو الذي يفرض وليس يبيح فقط] أن يقلدوهم في الملبس وفي غيره من شؤون العيش .

ويؤكد الرحالة بورشارت Burchardt أن الرق في بلاد العرب ليس فيه ما يخيف ويفزع إلاَّ اسمه ، فالقوم في كل مكان يعاملون الرقيق كما يعاملون أبناءهم . ومن الخسة عندهم أن يبيع الرجل عبده بعد عشرة طويلة ، وقلَّ أن نجد عبداً خدم أسرة محترمة فترة من الزمن ولم ينل حريته ، وغالباً ما تعتق الأمة إذا ولدت لسيدها طفلاً (. . . .) وينزلها [الزوج] على قدم المساواة مع نسائه العربيات (. . .) كما كان يباح للرقيق حضور مجالس الأسرة ويسمح لهم بالتجارة أو بالاشتغال بغيرها من الأعمال لحسابهم الخاص .

وفي أوائل القرن العشرين (الميلادي) يلاحظ أرنولد ولسن Wilson أن ثمة بوناً شاسعاً بين حالة الرقيق قبل انتقالهم من مـواطنهم الأصلية وحـالتهم بعد دخولهم إلى حوزة العرب ، فبعد الظروف القاسية التي تصاحب عملية نقلهم أو الحصول عليهم تتغير حالتهم إلى الأفضل بمجرد انتقالهم أو بيعهم إلى

---

(1) بحث في كتاب «مسألة الرق في إفريقيا» بعنوان: Modalités et formes de l'esclavage en Afrique de l'Ouest. - ص 62 وما بعدها .

العرب . ومع تقديره لصعوبة الحياة التي يحياها الرقيق في ظل الاسترقاق إلّا أنها كانت بكل تأكيد أقل شقاء من حياة رجل القبيلة الإفريقية . . .

أما برتراند توماس فيؤكد (بإيجاز) أن معاملة العرب للرقيق قد قضت على وصمة العار التي لازمت الاسترقاق في المناطق الأخرى[1] .

ولا بدّ من التعقيب على هذه الشهادات بملاحظتين أساسيتين :

أولاهما : أن الرق لم يكن ظاهرة عربية صرفاً ، وإنّما كان ـ كما هو معلوم ـ نمطاً من أنماط العلاقات الاجتماعية ساد في مراحل معيّنة من تطوّر المجتمعات المختلفة ، بما فيها المجتمعات الإفريقية ذاتها وقد مرّ بنا أن الأفارقة وبتحريش وإغراء من النخاسين الأوروبيين ، كانوا يسترقون بعضهم .

ويذكر آدم عبد الله الألوري أن بعض القبائل في نيجيريا ترى أن كل قبيلة أخرى عبيد لها ، فمن الهوسا طائفة يرون أنفسهم أحراراً ويعتبرون بقيّة الهوسا عبيداً لهم «هوسابنسا» كما يستهينون باليوربا (قبيلة أخرى) ويسمّي البرناويون غيرهم « عفنون » (أي عبيد)[2] .

وتذكر التقارير الاستعمارية أن سكّان اندر (St. Louis) وغوريه (Goree) عام 1825 م كانوا 16000 فرد ، 12300 منهم عبيد للآخرين[3] .

وفي العهود القديمة قامت دول إفريقية (مثل غانة ومالي وسنغاي) على الرّق تجارة رابحة ، ويذكر أن زعيم كانم قد حجّ مرّتين في ق 12 م وترك في كل مرة 300 عبد في القاهرة ، وكانت بورنو في القرن 16 م تقايض العبيد بخيول شمال إفريقيا ، وقد تركت أم من بورنو لولدها 10000 عبد ورثها عنها .

---

(1) د. جمال زكريا قاسم/ العرب والرق في إفريقيا ـ في «مسألة الرق في إفريقيا» ـ ص 22-23.

(2) الألوري / الإسلام اليوم وغداً في نيجيريا ـ ص 96.

(3) Ki-Zerbo, idem, p 416.

إن هذه المعطيات لا تبرر البتّة ممارسة بعض العرب لتجارة رق غير مشروعة ولا تُحَمِّل الأفارقة أوزار النخاسة الأوروبية ، ولكنّها تضع الأمر في نصابه التاريخي ـ الاجتماعي ، وتؤكد أن الرق في إفريقيا ليس ظاهرة عرقية صرفاً أو نمط استغلال عربياً خالصاً عكساً لدعاوى أعداء الإسلام .

وسيظل الرقّ الإفريقي ـ عربياً أو غير عربي ـ ومهما اتّسعت ممارساته أهون شأناً أخف وطأة من الرق الأوروبي الذي قامت عليه الدول وأنشئت له المؤسسات وسخرت له أحدث وسائل النقل وأعتى أدوات الإذلال آنذاك ، خاصّة وأن الغربيين يتحمّلون ـ على أوزارهم الخاصة ـ وزر تنمية الرق في إفريقيا كما نبّه إلى ذلك برونود بومغورج وكيزربو .

ـ الملاحظة الثانية هي أن الإسلام مهّد منذ عصر البعثة النبوية طريق الانعتاق أمام الأرقاء . . . فقد كان الرقّ ظاهرة متفشيّة أيّام البعثة النبوية ، فنزل القرآن وتواترت الأحاديث النبوية تدعو لعتق الأرقاء ، تكفيراً لما قد يقع فيه الإنسان من الذنوب أو تقرّباً إلى الله ابتغاء مرضاته .

وسدّ الإسلام منافذ الرقّ فلم يدع له باباً إلا باب الجهاد وبشروط أهمها أن يكون الرقيق أسير جهاد مشروع ضدّ كفّار يحاربون المسلمين ويسترقون من يقع في أيديهم منهم (وتلك معاملة بالمثل لا عدوان فيها إلاّ على الظالمين) .

وفتح الإسلام لأولئك الأسرى إذا استرقهم المسلمون أبواباً أخرى للانعتاق :

﴿ حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما منّاً بعدُ وإمّا فداء ﴾ فباستطاعة الأسير أن يفتدي من الأسر ومن الرق بمال يعطيه أو يُعْطى عنه . وباستطاعة العبد أن يكاتب سيّده فيكسب حريته بالتدريج . وقد رغب الإسلام في التسري بالإماء وفي عتقهن وفي اتخاذهن زوجات ، لينتقلن بذلك من ذلّ العبودية إلى شرف الزوجية وترتفع عنهن وعن ولدهن طائلة الرقّ ، وسنّ رسول الله ﷺ ذلك للمسلمين عندما تسرى بمارية القبطية التي أهداه إيّاها المقوقس عظيم القبط ، فولدت له ابنه إبراهيم .

وكان الأرقاء من أسرع الناس إلى الإسلام عند ظهوره ، فوجدوا في كنفه الحريّة التي افتقدوها طويلاً ، وتقدّم عدد منهم في السلّم الاجتماعي الجديد الذي رتّبه الدين الحنيف على كبراء كانوا سادتهم من قبل ، وهكذا نجد أبا بكر يعتق بلال بن رباح ، (وكان عبداً حبشياً) ليتحوّل بعدُ إلى صوت يدعو إلى الصلاة خمس مرّات في مسجد رسول الله ﷺ ، وتبنى رسول الله ﷺ فتاه زيد بن حارثة تشريفاً له وزوّجه سيدة من سيّدات قريش، من بيوتات العزّ فيها (زينب بنت جحش)، وكان زيد هذا الصحابي الوحيد الذي ذكره الله باسمه في القرآن : ﴿ فلمّا قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ ، ورفع الله حكم التبنّي ليتاح لرسول الله ﷺ مكافأة زينب على طاعتها لأمر الله ورسوله وقبولها الزواج من مولى لم تكن تقاليد المجتمع الجاهلي تخوّل مثله حقّ التطلّع إلى مثلها ، فتزوّج النبي ﷺ زينب ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ﴾ .

وكان أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه ، وهو حينئذٍ فتى حديث السنّ ، أميراً على آخر سرية جهّزها ﷺ في حياته ، وكان فيها أكابر الصحابة مثل الخليفة أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه .

فأين هذا من موقف الكنيسة التي شجّعت تجارة الرقيق في القرن 15 م وما بعده وأغرت قراصنة البحار باختطاف الزنوج واستعبادهم وجلبهم إلى بلاد الغرب «إنقاذاً لأرواحهم»[1] ؟

وأين هو من موقف البروتستانت ، في جنوب إفريقيا ، الذين يرون أن السود يظلّون عبيداً حتّى ولو تنصّروا[2] ؟

لقد لعبت الإرساليات التنصيرية « دوراً بالغ الأهمية في ترويج الدعاية لنقل زنوج إفريقيا إلى «العالم الجديد» تحت ستار تنصيرهم ونقلهم إلى

---

(1) Idem, p 401.

(2) V. Monteil, idem, p 340.

الديانة المسيحية . وتحت ستار الدين استطاع تجار العبيد ترويج تجارتهم ، وظفروا بتأييد الكنيسة ، كما ظفروا بتأييد ملوك أوروبا »، وكان «السبب الأعمق وراء موقف الكنيسة والإرساليات التبشيرية يكمن في المصلحة المادية لها والتي بررت من أجلها استرقاق زنوج إفريقيا ، فقد أغراها تجار العبيد بالمال وجعلوا لها رسماً عن كل زنجي تعمّده فيتنصر بالتّعميد » . .

ومع مباركة الكنيسة كان من السهل سن قوانين وتشريعات تجعل إهانة الزنجي أمراً مشروعاً، ومطلوباً أحياناً . . وعندما عرض على ملك فرنسا لويس الثالث عشر قانون يجعل زنوج مستعمراته عبيداً تردد أولاً ، ولكنه وافق عندما ألقي في روعه أن ذلك وسيلة لهدايتهم إلى النصرانية ! .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، صدر عام 1638 م بمستعمرة كارولينا قانون « يؤكد أن الزنجي لا روح له ، ولا يتمتع بالذكاء أو الإرادة ، وأن الحياة فيه محصورة بيديه . وجعل القانون لمالك الزنجي سلطة مطلقة عليه يتصرف به كما يشاء ، بيعاً ورهناً ومقامرة ، ولا عقوبة عليه في حال إقدامه على قتل الزنجي الذي بحوزته . وبالمقابل يصدر حكم الإعدام فوراً على الزنجي إذا عصى أوامر سيده أو زوجة سيده ، أو ضرب أياً منهما أو قتل إنساناً أبيض البشرة حتى ولو في حالة الدفاع عن النفس . ورفض القانون مجرد استدعاء الزنجي للشهادة لأن كلامه مرفوض ولا تقوم شهادته . وأنكر القانون على الزنجي حمل السلاح تحت طائلة عقوبة الإعدام الفوري ، وحظر عليه مغادرة مزرعة سيده دون إذن خطي تحت طائلة الإعدام أيضاً ، وأعطى الحق لكل رجل أبيض أن يعيد الزنجي إلى طاعة سيده بعد جلده عشرين جلدة . وللمالك الحق القانوني بالاستمتاع بزوجة الزنجي أو ابنته أو أية زنجية عاملة لديه » .

لقد أخضعت أوروبا والأمريكتان الأفارقة لأبشع نظام استرقاق تقوم عليه الدول والمؤسسات وتسن القوانين لإحكامه ، استنادا إلى دعاوٍ عرقية تجزم بتفوق الإنسان الأبيض على الإنسان الأسود ، أو دينية بحجة أن التوراة « أمرت العبرانيين باستعباد جميع الشعوب المجاورة لهم ، وأن الاسترقاق في

نظر بعض رجال الدين المسيحيين كان مؤسسة يقضي الواجب الديني ببقائها »[1] .

وكأنّ مونتسكيو Montesquieu في كتابه «روح الشرائع» L'esprit des Lois قد التمس عذراً لقومه في ممارسة أنماط بشعة من الرق ضد الأفارقة حين قال إن هؤلاء الأرقاء « سود من الأرجل حتى الرأس ، وهم من قصر الأنوف بما يتعذر معه الرثاء لهم » . . . !

وإذا كانت هذه نظرة كاتب كبير ، ذائع الصيت ، إلى الأفارقة ، فما الظن بعامة أولئك الناس !

لقد ترجم مونتسكيو بحياء النظرة السائدة التي زرعها المستكشفون الغربيون الأول عن إفريقيا « حيث الرجال المتوحشون والنساء المتوحشات . لأكثرهم لون أسود وأنوف مفلطحة وشعر يشبه الصوف . أما طبيعتهم فمتوحشة تمام التوحش وتشبه طبيعة الحيوانات الضارية »[2] .

إن أثراً من آثار تجارة الرقيق الإفريقي لا يزال حياً إلى اليوم ، تقرأه سواداً على بياض، في معاجم اللغات الغربية وأدبياتها ، فقد شحنوا كلمة السواد ومتفرعاتها بأسوأ الدلالات ، أو لنقل إن نظرة البغضاء والاحتقار التي ينظرون بها إلى السود افتضحت في حديثهم عن شؤون الحياة . . فانظر ، إن شئت إلى القائمة التالية في معجم فرنسي وجيز ، تجد أنهم يصفون بالسواد ما يستهجنونه ويشمئزون منه :

Noir, e: .... fig: triste, sombre: humeur noire; Atroce, odieux: âmes noires; malheureux, funeste: noire destinée. Bête noire, personne détestée. Broyer du noir, s'attrister. Voir tout en noir, être très pessimiste.

وانظر إلى مفردات انتقلت إلى اللغة العربية من اللغات الغربية مثل :

---

(1) د. مسعود ضاهر/ موقف الرأسمالية من الرق ـ في كتاب «مسألة الرق. . . .»، ص 146-147.

(2) المرجع نفسه ـ ص 159، 157 .

القائمة السوداء liste noire ، والسوق السوداء ، marché noir . وقد نجد لها نظائر قليلة ، لكن العربية حافلة بالأدب الذي يمجد السواد ، ويقرن بينه ، غزلاً ، وبين المسك ، ويتغنى بدعج العينين ، ومنه شدة سواد سوادهما ، وقد كتب الجاحظ رسالته في الثناء على السودان بعربية رفيعة ، وحفظ أولاد العرب والمسلمين جيلاً بعد جيل فخر عنترة العبسي بسواد جلده . . وحفظوا أكثر من ذلك قول النبي ﷺ : **« ليس لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى »** .

يقول رجاء غارودي (Roger Garaudy) إنّ الحضارة العربية «أدخلت الرقّ نمطاً إنتاجياً لأول مرّة في تاريخ إفريقيا (. . .) » وإن الغربيين بعد أن قضوا على الهنود الحمر في أمريكا بدأوا وواصلوا خطف السكّان الأصليين في إفريقيا طوال ثلاثة قرون واسترقاقهم ودفنهم في العمل بالمناجم الأمريكية في مأساة إنسانية كبرى قضى فيها تسعون مليوناً من المختطفين الإفريقيين نحبهم ووصل عشرة ملايين تحت ظروف قاسية إلى مواقع العمل في أمريكا (. . . .) إننا لا نستطيع أن نقارنها بالمذابح التي أتاحت لجنكيز خان بناء أهرام من بضعة آلاف من الجماجم البشرية . . . إنه عمل صانع يدوي إذا قسناه بالجريمة التاريخية العظمى التي اقترفها الغرب (. . . .) إنّني أذكر كيف شعرت فجأة بعار الإنسان الأبيض وكأنه حمل ثقيل مذل على كتفي عندما زرت في جزيرة « غوريه » بمقابل دكار الحجيرات التي كان الأسرى يكدّسون فيها قبل الإقلاع ولا تزال آثار الدهان الأسود مرسومة على الجدار ، وهي تشير حتى الآن إلى المكان الذي كان النخاسون يحددونه لكل إنسان في ذلك الجحيم . . . . جليّ إذاً بالرغم من ضروب تقريظ الغرب المنافق أن مسؤولية الرق لا تقع على عاتق الأفارقة ، أولاً لأن الرقّ لم يكن البتة طراز إنتاج في إفريقيا قبل وصول الأوروبيين، وثانياً ، لأن مؤسسة تجارة العبيد اصطدمت بمقاومة الإفريقيين[1] .

ونسوق شاهداً على ما سبق جهاد الإمام ناصر الدين الذي قاد حركة قبائل الزوايا العرب لإقامة خلافة راشدة في جنوب ما يُعرف بموريتانيا، فقد

(1) محسن عبد الحميد / المذهبية الإسلامية ـ ص 45 - 47.

بسط ناصر الدين ـ وإن لم تعمّر حركته طويلاً ـ نفوذه على مناطق من نهر السنغال وضايق الفرنسيين في تجارتهم ومنع منعاً باتّاً تجارة الرقيق .

وفي ذلك يقول شاهد الفرنسيين د . شامبونو (Louis Moureau de Chambonneau) ، مدير الشركة التجارية الفرنسية باندر (St-Louis) إن رجال الدين (ناصر الدين وقومه) « يزدروننا كثيراً بسبب الاختلاف بين « ديننا وشعوذتهم » ويوهمون شعوبهم أنّنا لا نشتري العبيد إلاّ لنأكلهم ، ومنذ أن أصبحوا سادة في البلاد [ق 11 هـ/ 17 م] فإن عبداً واحداً لم يدخل إلى سفننا »[1] .

وهكذا كانت تجارة الرقيق في عين هؤلاء جزءاً من «الدين» وكانت مقاومتها ضرباً من «الشعوذة» .

وورد في تقرير عن مستعمرة سيراليون عرض على مجلس العموم البريطاني عام 1802 م أن جماعة صغيرة من المسلمين استقرت في شمال سيراليون منذ سبعين عاماً ، وأنّهم فتحوا مدارس تدرس فيها العربية والعقائد التي جاء بها محمد ﷺ وجروا على عادة المسلمين في عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق[2] .

وقد ظلّ المسلمون الأفارقة الذين وقعوا في أيدي قراصنة النخاسة أوفياء لروح الإسلام ، متشبثين بالحرية . . . لذلك نجدهم يقودون ثورتين للأرقاء خلال القرن 18 م في سان دومينيك ، وقد ثارت مجموعة أخرى من الأرقاء المسلمين ، الذين كانوا يقرؤون العربية ويكتبونها ، فأسست سنة 1835 م جمهورية بالماريس بشمال شرق البرازيل ، واتّخذت باهيا عاصمة لها .

وكان ذلك تنبيهاً آخر إلى أن الإسلام هو دين الحريّة والانعتاق قبل أن تنتبه البرازيل عام 1888 م فتعلن إلغاء الرق وتقوم بإحراق وثائق تجارته دعماً لقرارها ولتخفي آثار الفضيحة .

---

(1) الخليل النحوي / بلاد شنقيط ـ ص 305.

(2) أنور الجندي / العالم الإسلامي والاستعمار. . . ص 372.

المبحث الثاني

عصر الاحتلال ... غزو العقول

تطوّر الحضور الاستعماري في إفريقيا من حضور تجاري صرف يكتفي بشراء «العبيد» واختطافهم ومقايضة السلع وينحصر في بعض المراكز الساحلية لا يكاد يتعداها إلاّ قليلاً ، تطوّر إلى احتلال عسكري يسمح ببسط السيطرة على الأرض الافريقية واستغلال المزيد من خيراتها وصولاً إلى استعباد شعوب كاملة بتوهين قواها وتدجين عقولها ، لتتّسع بها دائرة السوق الاستعمارية ، الاقتصادية والثقافية .

وهكذا اقتسم الأوروبيون بالمسطرة مناطق القارة الممزّقة المستضعفة فاستولى الفرنسيون على الجزائر والمغرب وتونس وموريتانيا والسنغال ومالي وغينيا وفولتا العليا (بوركينا فاسو اليوم) والنيجر وتشاد والكاميرون والكنغو برازافيل والغابون والتوغو وداهومي (بنين اليوم) وساحل العاج ومدغشقر وجزر القمر وجيبوتي وجزء من الصومال ، وسيطر الإنجليز على مصر والسودان وتنزانيا وكينيا ونيجيريا وشاطىء الذهب (غانا اليوم) وسيراليون وغامبيا وجزء من الصومال . . . وانفرد البلجيكيون بالكونغو (زائير اليوم) والإسبان بالصحراء (الساقية الحمراء ووادي الذهب . . . إلخ)، وسيطر الإيطاليون على ليبيا والحبشة والصومال والبرتغاليون على غينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر وموزمبيق وأنغولا ، وكانت ألمانيا تحتل مواقع عديدة من القارة قبل الحرب العالمية الأولى (1918 م) .

ولعلّ السمة البارزة لعصر الاحتلال هي أنّه كان غزواً للعقول فضلاً عمّا أفضى إليه من استنزاف خيرات القارة .

وسنجد أن الاستعمار وهو يجتاح الأرض الإفريقية ويغزو عقول سكّانها كان يسعى إلى نشر ديانته ولغته وتقاليده الحضارية إجمالاً . وقد بلغ

الاستعمار من أهدافه ما مكّنه من تكوين جيل من أبناء المستعمرات يحمل رسالة المستعمر بعد رحيله ويرعى ميراثه بنجاح أكبر .

أولاً : حركة التنصير :

لقد رأينا كيف أن الكنيسة شجّعت وباركت تجارة الرقيق منذ القرن 15 م وأيّاً كانت نتائج الثورة الفرنسية التي قضت على الحكم الكنسي وبشّرت بالدولة العلمانية ، فإن الحملة الاستعمارية ـ بما في ذلك الغزو الفرنسي ـ على القارة (وعلى العالم الإسلامي عامّة) كانت بمثابة حملة صليبية جديدة رافق فيها دعاة التنصير جيوش الغزاة أو تبعوهم عن قرب واستفادوا من رعاية السلطة الاستعمارية أو «تسامحها» لأداء مهمتهم في المستعمرات .

وأكيد أن السلطات الاستعمارية ، حتّى وإن كفرت بالدّين في بلادها كانت تشعر بأن الإرساليات التنصيرية ضرورية لدعم وجود الإدارة الاستعمارية ، خاصة وقد كان الإسلام وقوداً للجهاد، ضد الغزاة وركناً ركيناً يلجأ إليه المسلمون فيحتمون به من الغزو الثقافي إذا تمكّنت جيوش الاستعمار من اجتياح الأرض وكسر شوكة المقاومة المادية .

وقد كانت الإدارة الاستعمارية تحارب الإسلام في أرضه حرباً مباشرة باستخدام حيل وأساليب مقنعة أو سافرة .

ولنا مثال على ذلك في السياسة التي انتهجها الاستعمار الفرنسي إزاء العلماء والمشايخ في غرب إفريقيا ، فقد فرض رقابة مشدّدة على كافة أنشطتهم وحاول إخضاع نشاطهم التربوي لرخص خاصّة لا تسلّمها الإداره الاستعمارية إلاّ لمن تثق فيه ، ومنع حركتهم وتنقّلهم من مدينة إلى مدينة أو من قرية إلى قرية إلاّ بتصريح مرور خاص، وسدّ أمامهم وأمام غيرهم من المسلمين سبل السفر للحجّ خوفاً من اتّصالهم ببقيّة المسلمين .

وفي مصر لم يتورّع الإنجليز عن هدم 14 مسجداً في مدينة القاهرة بحجّة تجميل المدينة[1] .

---

(1) محمد الغزالي / كفاح دين ـ ص 168 .

وهكذا كان الطابع الصليبي للحملات الاستعمارية واضحاً رغم محاولات تمويهه ، وكانت جيوش الاحتلال تمهّد السبيل تلقائياً للإرساليات التنصيرية .

يقول آدم عبد الله الألوري : « إن النصرانية أقبلت إلى نيجيريا بصحبة الاستعمار ، وأصبحت نيجيريا في أقلّ من قرن ونصف تحمل شارات النصرانية في الشوارع والأسواق والبيوت ، في محلات ووسائل النقل ودور العلاج والتعليم ومكاتب الحكومة . . . . . »[1] .

نشطت الحركة التنصيرية في إفريقيا سنة 1880 م بعد أن كانت الإرساليات تتحرّك في أشرطة ساحلية محدودة ، فأخذت الإرساليات الكاثوليكية تتحرّك في السنغال ، وتوجّه البروتستانت إلى السيراليون وشاطىء الذهب (غانا) وليبيريا ونيجيريا ، وكان من دعاة التنصير الأول أمريكيون وإنجليز وألمان وسويسريون[2] .

وفي سباق ماكر مع الإسلام اهتمت الإرساليات ودعاة النصرانية بالمناطق الوثنية والأقل إسلاماً حرصاً على استغلال الفراغ الناشىء عن غياب الإسلام أو تفشّي الجهل في تلك الأوساط .

وارتكز العمل التنصيري على ثلاث أدوات أساسية هي المدرسة (التعليم) والكتاب والعمل الإنساني ، ثم كانت له إذاعات قويّة موجّهة إلى إفريقيا (ومنها) بلغات مختلفة (من بينها اللغة العربية) تدعو الناس إلى النصرانية .

وكان النشاط التعليمي التنصيري مركّزاً على الأطفال خاصّة ،

---

(1) الألوري ، مصدر سابق ، ص 59 .

(2) Ki-Zerbo, idem p 402.

للنأي بهم عن منابع الإسلام وإبعادهم عن الفطرة التي ولدوا عليها . . . فقد لاحظوا أثر تربية الإسلام على الصغار .

يقول المبشّر جون موت : « إن الأثر المفسد للإسلام يبدأ باكراً جدّاً . . . ومن أجل ذلك يجب حمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغ سنّ الرشد وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية »[1] .

وهكذا سعت الإرساليات الكنيسية إلى استيعاب أكبر عدد ممكن من الأطفال الأفارقة في مدارس التنصير التي نمت بدعم الاستعمار وتحت رعايته .

وقد ترك الاستعمار البلجيكي للإرساليات التنصيرية سلطة الإشراف الكامل على التعليم ، وكان للبلجيكيين في إفريقيا 720 إرسالية تنصيرية تضمّ نحو 6000 راهب معظمهم من الكاثوليك[2] .

وقبل سنة 1939 م كانت جميع المدارس في الأراضي الإفريقية الخاضعة لسيطرة الإنجليز مدارس تنصيرية ، تمول الحكومة البريطانية بعضها[3] .

وكانت مدارس الإرساليات التنصيرية في نيجيريا تستوعب ثلثي ($\frac{2}{3}$) الدارسين خاصّة في قبائل الجنوب : يوروبا ، إيبو[4] .

وعندما يتقدّم الطلبة في الدراسات كانت الإرساليات ـ ولم تكن تعوزها الإمكانيات ـ تبعث الطلبة للدراسة في جامعات بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ونحوها[5] .

---

(1) عبد الستار فتح الله / الغزو الفكري. . . ـ ص 69.
(2) أنور الجندي، مصدر سابق ص 155 .
(3) M. Cornevin: Histoire de l'Afrique contemporaine, p, 17.
(4) V. Monteil. idem, p 246.
(5) M. Cornevin, idem, p 17.

وفي أوغندا كان التعليم التنصيري طاغياً على التعليم الإسلامي ، فقبيل الاستقلال كانت المدارس موزعة على النحو التالي :

في المرحلة الإبتدائية :

- 1407 مدرسة كاثوليكية .
- 981 مدرسة بروتستانتية .
- 179 مدرسة إسلامية .
- 129 مدرسة حكومية .

في المرحلة الثانوية :

- 153 مدرسة كاثوليكية .
- 130 مدرسة بروتستانتية .
- 34 مدرسة حكومية .
- 8 مدارس إسلامية .

في التعليم الفني والمهني :

- 267 مدرسة للبعثات التنصيرية .
- مدرسة واحدة للمسلمين[1] .

وعند الالتحاق بالمدرسة كان الأطفال المنحدرون من أسر مسلمة يستبدلون أسماءهم الإسلامية بأسماء مسيحية أو وثنية ، وكان ذلك شرطاً في انتساب التلميذ إلى المدرسة الأوروبية المغرية ، وكان مفروضاً على التلاميذ أن يحملوا الإنجيل ويتوجّهوا إلى الكنيسة يوم الأحد . وبالنتيجة كانت الوظائف السامية حكراً في بعض البلدان الإفريقية على المسيحيين بغض النظر عن الثقل العددي للمسلمين في البلد[2] .

من ذلك أن السلطات البريطانية وقعت معاهدة مع ملك أوغندا سنة

---

(1) كامل سلامة الدقس في بحث مرقون قدم إلى ندوة الإخاء الإسلامي بكوناكري (دجمبر 1989).

(2) الألوري، مصدر سابق، ص 59.

1909 م تقضي بأن يكون الملك ورئيس الوزراء ووزير المالية من أتباع الكنيسة الإنجليكانية ، بينما يكون وزير العدل من أتباع الكنيسة الكاثوليكية[1] .

بهذه الأساليب كانت المدرسة أداة ناجعة لتنصير السكّان ، وكانت أبواب الرزق والجاه والنفوذ مفتوحة أمام الذين يلتحقون بهذه المدرسة ويعتنقون النصرانية دون غيرهم .

وكانت أموال المسلمين تنفق أحيانا في الحرب على الإسلام ، ففي السودان حيث شجعت الحكومة البريطانية النشاط التنصيري ، وخاصة في الإقليم الجنوبي ، كانت وزارة المعارف تدفع 98% من نفقات المدارس التنصيرية[2] .

وقد لاحظ وزير التربية السنغالي ، إيبادير تيام أن أكثر من 80% من مساعدات حكومة السنغال للمدارس الأهلية ، كانت موجهة للمدارس التنصيرية ، والحال إن أكثر من 90% من سكان البلد مسلمون . ولأن الوزير كان حريصاً على إصلاح الوضع وتحسين مستوى التعليم العربي ـ الإسلامي في بلاده ، فقد كان لا بد من إقالته سنة 1988 م .

وقد عزّزت الإرساليات التنصيرية نشاطها في إفريقيا بالكتاب فترجمت التوراة إلى لغات إفريقية كثيرة ، وكانت الكتاب الأول ـ إن لم يكن الوحيد ـ الذي يدرس في المستعمرات البريطانية مثلاً[3] .

وفي العقود الأخيرة دعا رسل البروتستانتية في إفريقيا ـ وسعوا ـ لترجمة الإنجيل إلى 561 لغة والعهد الجديد إلى 310 لغات والتوراة إلى 138 لغة[4] .

وقد أمدّت الكنيسة رسلها بالمراجع المنهجية الضرورية لإحكام

---

(1) الدقس، مرجع سابق.

(2) المرجع نفسه.

(3) M. Cornevin, idem, p 17.

(4) د. زغلول راغب النجار/ قضية التخلف العلمي ـ ص 355 .

العمل ، بعد أن أعدّتهم الإعداد المناسب ، ولنذكر ـ مثلا ـ مكتبة إنجيلية في «كانو» بنيجيريا كانت تتضمّن كتاباً أُلِّفَ في الصين وطبع في الولايات المتحدة سنة 1949 م بعنوان : How to lead Moslem to Christ وهو كتاب يعالج سبل إقناع المسلم بالانسلاخ عن دينه واعتناق النصرانية[1] (لو أن للمسلمين كتباً من هذا النوع ؟) .

ولم يعد تنصير المسلمين مجرد موضوع كتاب ، وإنما أسس له معهد خاص ، ورصدت له أموال طائلة ، ففي مؤتمر التنصير العالمي المنعقد بمدينة كولورادو سنة 1979 ، عكف ممثلو مختلف الدوائر والهيئات الكنسية على دراسة موضوع واحد هو : « كيف السبيل لتنصير المسلمين أينما كانوا؟ » . وقد رأى المؤتمرون وجوب الإقلاع عن طريقة التنصير الفردي واللجوء إلى التنصير الجماعي ، واستغلال الظروف المواتية لذلك ، مثل الكوارث الطبيعية والحروب وظروف الفقر والمرض .

ولهذا الغرض أسس في شمال كاليفورنيا معهد مختص بتنصير المسلمين ، وسمي « معهد صموئيل زويمر » ، ورصد له مبلغ مليار دولار أمريكي .

وتصول الكنيسة في إفريقيا وفي العالم بجيش إعلامي كبير ، يكفي لإبراز خطره أن الجمعيات النصرانية تدير نحو 1580 محطة إذاعة وتلفزيون[2] .

أمّا لبوس العمل الخيري ، فقد كان من أنجع أسلحة التنصير في القارة ، حيث يسود الفقر والجهل والمرض .

وقد تطوّر هذا الأسلوب تطوّراً كبيراً في عهود الاستقلال (ما بعد رحيل الإدارة الاستعمارية) ، واستغلت الجمعيات والهيئات الكنسية الفاقة الشديدة والمجاعات التي اجتاحت مناطق واسعة من القارة الإفريقية ، للدعوة إلى

---

(1) V. Monteil, idem, p 246

(2) الدقس، مرجع سابق.

النصرانية بأسلوب دقيق محكم ومؤثر ، فقد انتشرت هذه الهيئات في مواقع الفاقة توزّع المساعدات الغذائية والأدوية والملابس وتتعهّد المرضى والمحتاجين بالرعاية الإنسانية وتساعد المزارعين وأهل الريف في نشاطهم اليومي ، وتعنى بالأطفال عناية خاصّة .

وبهذا الأسلوب نجحت الكنيسة في تنصير أعداد كبيرة من الأفارقة « بل إن آلافاً مؤلفة من أطفال المسلمين أخذتهم البعثات التنصيرية إلى أوروبا باسم الرعاية وشرعت في تنصيرهم مستغلّة الكوارث والمجاعات التي تصاب بها بلاد المسلمين »[1] .

وجليّ أن هذه الهيئات، وإن كان جلّها مؤسسات غير حكومية، تقف وراءها الدول التي كانت بالأمس القريب تبسط هيمنتها ، بدون رحمة، على القارة وشعوبها، وهي ـ اليوم ـ تقدّم مساعداتها على أنّها عمل إنساني خالص ، إلاّ أن النوايا والأغراض العميقة لهذا العمل الإنساني بيّنة لا تحتاج إلى كبير إمعان . . . . إنها سم في دسم .

وقد نشط دعاة التنصير في السجون ، محاولين استغلال الظروف النفسية والمادية للمساجين ، ينظمون لهم الزيارات ، ويقدمون لهم المساعدات ويوزعون عليهم الأناجيل ، ويزرعون في قلوبهم الأمل ممزوجاً بالنصرانية المحرفة .

ولا عجب أن نرى الزعيم الإفريقي نلسون مانديلا (رغم أن بعض قادة حركته من المسلمين) يظهر لحظة إطلاق سراحه يوم 11 فبراير 1990 وفي أول مؤتمر صحفي يعقده محاطاً بالأقربين : زوجته وكبير أساقفة الكنيسة الإنجليكانية ، الذي عقد المؤتمر الصحفي في بيته . إنهم يجيدون استغلال الظروف والعمل فيها . وقد كان حديث سيدة مانديلا ، والذي سجل على أشرطة فيديو ، وزوجها سجين ، عن الإنجيل الذي دفع به إليها أحد الرهبان من وراء القضبان ، أهم في استدرار عواطف الغربيين من الصور الحية عن مجازر سويتو (1976 م) فضلاً عن القمع الوحشي لأطفال فلسطين ونسائها

(1) من دراسة لعبد الله العقيل، راجع ـ المسلمون ـ 22 رمضان 21/1409 ابريل 1989 م .

الذين استمرت انتفاضتهم أطول كثيراً مما استمرت انتفاضة سويتو ـ ولكن لا أحد يسمع . . لا حصار ولا عقوبات اقتصادية ضد النظام الصهيوني : أخطر صنائع الاستعمار . .

هناك في جنوب إفريقيا استغلت الكنيسة معاناة السود لتجتذبهم إلى المسيحية . . إنها تطمع في السود أكثر ، كما يقول أرنولد توينبي . . إنها تطمع فيهم أكثر حتى عندما يكونون مسلمين لتفرق بينهم وبين إخوانهم المسلمين الآخرين . . ففي أيام احتدام أزمة الجاليات بين موريتانيا والسنغال ، كان أسقف كنيسة نواكشوط الوحيدة يتردد يومياً على مجموعات السنغاليين ، الذين جمعتهم رحاب أحد جوامع نواكشوط في انتظار ترحيلهم إلى بلادهم .

هنا أيضاً تحرص الكنيسة على أن لا تضيع الفرصة .

وعموماً فقد مهّد الاستعمار سبيل العمل أمام الهيئات التنصيرية قبل رحيله وترك من بعده أنظمةً قدّمت المزيد من الخدمات والتسهيلات لتلك الهيئات ، بل إن بعض الحكّام الأفارقة كان أكثر صليبيّةً وحقداً على الإسلام وأشدّ حرباً عليه من النظام الاستعماري السابق .

لنضرب مثلاً بإمبراطور الحبشة السابق هيلاسي لاسي الذي وقف يوماً أمام الكونغرس يتملّق أسياده قائلاً : « إن أهم الأهداف التي نسعى إليها توحيد الدين واللغة في بلادنا . . . وبدون ذلك لا يمكن أن نحقّق شيئاً من التقدّم » .

وزعم هيلاسي لاسي أنّه لا يوجد في أثيوبيا من المسلمين إلا « أقليةً من سكان الجنوب بإقليم هرر اعتنقت الإسلام بتأثير الأجانب ، وقد وضعنا برامج منذ اثني عشر عاماً ، فلا يمضي وقت طويل إلا وقد عادت إلى حظيرة دين آبائها »[1] ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ .

---

(1) محمد الغزالي، مصدر سابق ـ ص 62.

إن تواطؤ بعض الحكام وانتشار الكوارث والأوبئة والمجاعات (مع تفشّي الجهل وضعف الإيمان) في مناطق واسعة من القارة و « الدعم السخي » الذي قدّمته الهيئات الكنسية والعمل الميداني الذي ما فتئت تقوم به . . . . . كل أولئك عوامل تضافرت فجعلت إفريقيا اليوم ورشة عمل دؤوب ، ناجح أحياناً ، لدعاة النصرانية .

وفي الصومال ، البلد الإفريقي المسلم ، نجح راهب بلجيكي في تبني 30902 صومالي ، يقوم لهم مقام الأبوين ، فهو لا بدّ منصرهم أو ساع لذلك سعيه .

وقد رصدت منظمّة كنسية مبلغ 200 مليون دولار لاستئصال مرض شلل الأطفال الذين لم يبلغوا الخامسة من العمر . . . وتلك حيلة من حيل الدعاية الذكية .

وتصول الكنيسة اليوم في إفريقيا بجيش عرمرم ووسائل ضخمة أخرى نذكر منها :

- أكثر من 100000 راهب ، يتعاون معهم نحو ستّة ملايين نسمة .
- أكثر من 2000 روضة من رياض الأطفال .
- نحو 20000 معهد تعليمي .
- أكثر من 500 مدرسة لاهوتية لتخريج القسس ودعَاة النصرانية .
- نحو 5 ملايين من الطلاب الأفارقة تباشر الكنيسة والإرساليات التنصرية تعليمهم .
- أكثر من 500 مستشفى[1] .

---

(1) معلومات مستقاة من مذكرة قدمتها الجمهورية العربية اليمنية إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (سنة 1989 م) حول الحركة التنصيرية والصهيونية في إفريقيا .

بل ينقل الدكتور كامل سلامة الدقس أرقاماً أخطر تعكس جدية الصليبيين في حملتهم الكبرى :

ـ فهناك ثلاثة ملايين ونصف مليون قسيس تفرغوا للدعاية التنصيرية .

ـ وقد بلغ مجموع التبرعات التي جمعتها الكنائس سنة 1985 م، في الولايات المتحدة وحدها 127 ألف مليون دولار .

ـ أكثر من ستة ملايين طالب مسلم يتابعون الدراسة في مدارس إفريقية تخضع للكنيسة .

ـ أكثر من 800 جامعة ومعهد وكلية تخضع لتوجيهات بابا روما .

ـ أكثر من 1113 معهداً وكلية وجامعة خاضعة لاتحاد الكنائس العالمي بإفريقيا .

ـ أكثر من 1600 مستشفى ومستوصف تابعة للهيئات الكنسية بإفريقيا .

ـ 1050 صيدلية توزع الدواء مجاناً .

ـ 83,900 مدرسة ابتدائية .

ـ 2564 مدرسة ثانوية .

ـ 8113 روضة من رياض الأطفال .

ـ 90 جمعية للممرضات .

ـ 265 ملجأ للأيتام .

ـ 120 ملجأ للصم والبكم .

ـ 115 ملجأ للمكفوفين .

ـ 85 ملجأ للأرامل[1] .

وكان لا بد لهذه الوسائل الضخمة من حصاد ، ولقد كان . . . .

فقد جاء في نشرة لمنظّمة الدعوة الإسلامية من الخرطوم أن الكنائس والإرساليات العاملة في إفريقيا تمكّنت من تحويل أكثر من مليون مسلم

(1) الدقس مرجع سابق.

إفريقي إلى النصرانية ، بل إن المسلمين الذين كانوا يشكّلون نسبة 70% من سكان ملاوي قد تناقص عددهم ، بتأثير الدعاية المسيحية حتّى انخفض إلى أقل من 30% .

وكان المسلمون أغلبية حاكمة في كينيا ، ولكن حملات التنصير برعاية المستعمرين وأشياعهم حولت الأغلبية إلى أقلية مهضومة ، لا تتعدى نحو 25% من السكان ، بينما تنخفض في تقديرات الحكومة إلى 10% فقط[1] .

وقد تمكّنت الإرساليات الإيطالية في جنوب السودان ، وقوامها 450 راهباً (منهم 250 راهبة) من احتواء 160000 تلميذ في مدارسها (1975 م) وتنصير نحو 300000 من وثنيي الإقليم . وتحدّثت مجلّة « اليمامة » عن تحوّل 4000 مسلم هم سكان قرية «ميرتي» بكينيا إلى النصرانية بجهود قسيس واحد أقام فيهم عشرين سنة .

وها هو ذا فلاح كيني يلخص لنا حصاد حركة التنصير في ظل الاستعمار ، فقد توجه إلى أحد رجال الدين البيض المستوطنين قائلاً :

«إني أذكر جيداً حينما جئتم إلى هذه الأرض. كنا نحن نملكها، ونزرعها وترعى عليها حيواناتنا. كانت الأرض في يدنا وكنتم تبنون كنائس صغيرة ، وفي يدكم الكتاب المقدس (الإنجيل) تعرضون به علينا الهداية . . وها هي ذي الأيام تمضي ، والموقف كما ترى ونرى الآن : انقلبت الأوضاع، فأصبحت الأرض في يدكم وأصبح الكتاب المقدس في يدنا ، ولا نريد أكثر من أن يأخذ كل واحد حقه ويسترجع ماله ! »[2] .

وقد افتتح بابا روما مؤخراً ، 13 كاردينالية جديدة في إفريقيا وكثف رحلاته في القارة .

وأعَدَّت منظّمة فوكس النصرانية سنة 1989 م لعقد مؤتمر مسيحي في نيروبي (كينيا) يحضره ألف قس يمثّلون الكنائس والمنظّمات

---

(1) المرجع نفسه.

(2) محيي الدين صابر / العرب وإفريقيا ـ ص 49

الكنيسة السريَّة والعلنيَّة في شرق إفريقيا (فقط!) .

وأعلن القس جوشوا وثانقا ، أمين عام المنظَّمة ، أن المؤتمر موجّه أساساً إلى تدريب وتأهيل المشاركين على أكثر الطرق فعالية لنشر الإنجيل ، وأنهم بصدد تنظيم ورشات عمل وندوات حول التنصير وسبل الوصول بدعايته إلى الأطفال والمسجونين ، والاستفادة في هذا السبيل من الخدمات الطبيّة والتنمية الزراعية (للذكرى: انعقد المؤتمر الإسلامي الإفريقي الأول بنواكشوط عام 1977 م . . . وما زلنا ننتظر المؤتمر الثاني . . .) .

وترفع الكنيسة حالياً في إفريقيا شعار « اخلع عنك دين الإسلام نخلع عنك الجوع والعطش والمرض والعري » .

إنَّه تحدّ صارخ وكبير للمسلمين . . . وقد ذهبت الكنيسة في هذا التّحدي بعيداً عندما رفعت شعاراً آخر (هو في الحقيقة برنامج عمل): « إفريقيا مسيحية عام 2000 » .

إنهم يراهنون اليوم على إفريقيا ، لأنها «القارة المسلمة»، أكثر من غيرها، ولأن الإسلام تقدم فيها كثيراً، خلال عهود الاستعمار، ورغم كل العقبات التي زرعها المستعمرون في طريقه ، والهيئات الكنسية تتصور ـ علاوة على ذلك ـ أن الإنسان الإفريقي فريسة سهلة ، وأنه مؤهل أكثر من غيره لتقبل الدعاية التنصيرية .

يقول أرنولد توينبي : « إن العالم اليوم يتجه نحو نشوء جمهورية مسيحية حيث يكون الزنوج الخدم المخلصين للمسيحية ، لأنهم يملكون نفوساً نقية خالية من أي حضارة سابقة يمكن التأثير بها في تكوين معتقداتهم الحديثة »[1] .

وقد دعا توينبي الزنوج إلى أن يتجنبوا الرضوخ لإرادة الكنيسة تلك ليتجنبوا الحضارة السائرة إلى التدهور .

ولكن بعض أهل الرأي والنفوذ من رجال القارة يبدون مصرين على

---

(1) الدقس، مرجع سابق.

السير في ركاب حضارة الأسياد . . فهذا هو هوفويت بـوني H. Bogné ، رئيس ساحل العاج يعلن حرصه على تتويج حياته ببناء أكبر كاتـدرائية في العالم ، كاتـدرائية يـاموسكـرو ، التي دشنت مع مطلع سنة 1990 م وتبلغ مساحتها 4 أضعاف مساحة «نوتردام» بباريس - وقد كلف بناؤها 200 مليون فرنك فرنسي ، في وقت تعيش فيه ساحل العـاج أزمة اقتصـادية خـانقة ، ويحتاج قطاع الإدارة العامة لما لا يقل عن 4,5 مليار دولار حتى لا يتوقف سير دواليب الدولة .

لقد وضع الرئيس العاجي عمله في إطار الخطة الكنسية العالمية عندما قال إن إفريقيا مسيحية المستقبل ، ولكن بابا روما كان أكثر بلاغة في الإفصاح عن مرامي الكنيسة عندما رفض تدشين الكاتدرائية خلال جولته الإفريقية، متذرعاً بأنه كان يفضل الاستعاضة عن بناء أكبر كاتدرائية في العالم ببناء شبكة من الكنائس الصغيرة في قرى إفريقيا ومدنها لمواجهة تقدم الإسلام .

إنه تحدّ صارخ وكبير للدعوة الإسلامية في إفريقيا . . . تحدّ لا بد من مواجهته بأمْضَى من أسلحته ، سواء على صعيد التنصير، المستند إلى دعوة تخاطب عواطف النـاس وتستغل ظـروفهم الحرجـة أو على صعيد التعليم الاستعماري الذي يشكل أكبر معمل لصناعة العقول وتحويل وجهتها بعيداً عن الفطرة السوية .

ثانياً: التعليم الاستعماري:

نشـرت السلطات الاستعماريـة التعليم النظامي، فكـانت المـدرسـة النظامية الحكومية - ترفدها مدارس الارساليات التنصيرية - من أنجح أسلحة الغـزو الثقـافي التي استعـان بهـا المستعمـرون في نشـر لغتهم وثقـافتهم وحضارتهم.

وقد حاولت السلطات الاستعمارية جهـدها أن تعـطّل حركـة التعليم العـربي الإسـلامي المنـافس الأول والـوحيـد - للتعليم الاستعمـاري - في إفريقيا.

ففي سنة 1854 م أسس فيدرب (Faidherbe) الحاكم الفرنسي في اندر

(St-Louis) بالسنغال التعليم اللائكي العلماني، وكان لا بدّ لحماية هذا التعليم «العلماني» من ممارسة ضغوط متنوّعة على مدارس القرآن وعلوم اللغة والدين. فصدر سنة 1875 م قرار يحظر افتتاح أيّة «مدرسة عربية» إلاّ بعد الحصول على تصريح رسمي من السلطات الاستعمارية، وكان على الأطفال أن يبرزوا بطاقة انتساب إلى المدرسة الفرنسية ليسمح لهم بالالتحاق بالمدرسة القرآنية.

وقد فرضوا على شيوخ المدارس القرآنية أن يقتطعوا ساعتين يومياً من وقت الكتّاب، يتفرّغ فيها التلاميذ لدراسة الفرنسية، وعزّزت هذه الإجراءات هناك، وفي مناطق أخرى، بإنشاء لجان للمراقبة تتابع تلاميذ المدارس القرآنية الذين تتراوح أعمارهم بين 6 و16 سنة فترغمهم على الانصراف إلى المدارس الفرنسية.

وفي موريتانيا جرّبت الادارة الاستعمارية أسلوب الإغراء أيضاً، فصدر في 1906/6/12 م مرسوم يقضي بصرف منحة تشجيعية شهرية قدرها 300 فرنك قديم لكل شيخ محضرة[1] أو مدرسة قرآنية يلزم طلابه التفرّغ ساعتين لتعلّم الفرنسية (ولكن أي شخص لم يتقدّم للاستفادة من هذه المنحة المغرية آنذاك).

وقد اضطرّت الادارة الفرنسية إلى افتتاح مدارس نظامية عربية (أو مزدوجة) في بعض المدن مثل اندر (سان لويس) بالسنغال، وجنه، وتمبكتو بمالي وبوتلميت وأطار بموريتانيا فضلاً عن مدارس الجزائر وشمال إفريقيا، لكسب ثقة السكّان ودفعهم تدريجياً إلى قبول المدرسة الفرنسية، ولكنّها ركّزت في المناهج الدراسية على متون ونصوص لا تشكّل في مضامينها خطراً مباشراً على العقلية الاستعمارية، فلا مكان مثلاً للسيرة النبوية (المغازي خاصّة) ولا لتاريخ الفتوحات وأدب البطولات وأبواب الجهاد مثلاً في الفقه...

وحين بدأ السكّان يهتمّون بتحديث نظام التعليم التقليدي وإنشاء مدارس أو معاهد ذات مضمون تربوي أصيل ومناهج حديثة، حرصت الادارة

(1) محضرة ج محاضر: مدارس أو جامعات أهلية قديمة في موريتانيا.

الاستعمارية على فرض رقابة مشدّدة على هذه المؤسسات الحرّة.

ففي سنة 1360 هـ/1941 م أسس الحاج محمود باه مدرسة سمّاها جمعية المسلمين لتعليم القرآن، فاستدعته الادارة الفرنسية إلى باماكو (عاصمة مالي حالياً) حيث أبلغوه أنّ حريّة نشاطه مرهونة باجتناب الممنوعات التالية:

1 ـ تدريس التاريخ العام والجغرافيا.

2 ـ تدريس التاريخ الإسلامي خاصّة.

3 ـ تدريس الحساب[1].

وفي المستعمرات الفرنسية خاصّة (غير العربية منها بشكل أخصّ) كانت لغة المستعمر اللغة الوحيدة في التعليم النظامي، وكان التلميذ الذي يتحدّث بلهجة أو بلغة محلية، يعزل من الصف، ويعاقب على سوء أدبه.

وقد نصّ قرار صدر عن الادارة الفرنسية سنة 1924 م على أنّ «الفرنسية هي اللغة الوحيدة المستعملة في المدارس، ويحظر على جميع المعلّمين التحدّث مع التلاميذ باللهجات المحلّية».

وجاء في منشور إداري لاحق:

«ينبغي أن تفرض الفرنسية على أكبر عدد من السكّان المحليين لتكون لغة الاتصال وأداة التفاهم (. . . .) وقد أصبح لزاماً على الشيوخ أن يتعلّموا الفرنسية (. . . .) من غير المقبول بعد 40 سنة من الاحتلال أن يظل جميع الشيوخ غير قادرين على التحدّث معنا مباشرة بدون ترجمان، رغم أن علاقات عمل منتظمة تربطنا وإيّاهم.

«يجب نشر اللغة الفرنسية الحيّة، يجب أن يكون باستطاعتنا وفي أقصى القرى، أن نقابل شيخ جماعة وعدداً من السكّان يفهمون الفرنسية ويتحدّثون بها».

«إنّ الفرنسية هي اللغة الوحيدة التي ينبغي أن نُعْنَى بها ويتعيّن علينا نشرها».

---

(1) الخليل النحوي، مصدر سابق ـ ص 346.

وفي نفس الاتجاه صدرت توصية مؤتمر برازافيل (8 إبريل 1944) وفي النقطة الثالثة منها:

«يجب أن يكون التعليم باللغة الفرنسية، ويمنع بتاتاً استخدام اللهجات المحلية لأغراض تربوية، سواء في المدارس الخصوصية أم في المدارس العمومية»[1].

وكان ذلك إمعاناً في الحرب على اللغات المحلية الافريقية وعلى اللغة العربية بالذات التي يرى كورنفين (M. Cornevin) أنّ الاستعمار اعتبرها عاملاً هاماً في «سوء فهمه ومعارضته»، فركّز على ضرورة مواجهة التعليم العربي وتجاوزه وفرض التعليم الفرنسي بدلاً منه[2].

أمّا محتوى التعليم فقد كان هو الآخر غريباً على بيئة المتعلّمين منسجماً مع أهداف المستعمر.

فقد كان «على مدرّسي التاريخ والجغرافيا أن يبرزوا كيف أنّ فرنسا أمّة غنيّة قويّة قادرة على انتزاع الاحترام، ولكنّها أيضاً قمّة في نبل المشاعر ورقّتها، سخيّة لم تتقاعس أبداً عن التضحية بالرجال وبالمال لتحرير الشعوب المظلومة ولِتَحْمِل إلى الشعوب المتوحّشة السلام وثمار الحضارة»[3].

كانت مهمة المدرسة الاستعمارية، إذاً، أن تقنع الأفارقة بأنّهم شعوب متوحّشة وبأن لا سبيل لهم إلى الحضارة والرقيّ إلاّ الارتماء في أحضان الأمة الفرنسية الغنيّة القويّة... السخيّة...

يقول منصور الشافعي (Vincent Monteil) إنّ تلميذاً بثانوية فنيّة في داكار تلا عليه عن ظهر قلب، نصّ درسه في التاريخ الروماني بكل تفاصيله وشخصياته ويتساءل: «ماذا يعرف هذا الولد عن تاريخ شعبه وبلاده؟»[4].

---

(1) النحوي، المصدر نفسه ص 347.

(2) M. Cornevin, idem, p 37.

(3) النحوي المصدر نفسه ص 346 - 347.

(4) V. Monteil, idem, p 296.

طبعاً، لا شيء على الأرجح، فالتاريخ الإفريقي (الإسلامي خاصّة) من الممنوعات في التعليم الاستعماري، وقد كان صغار الولوف ـ كما يقول كي زربو (J. Ki-Zerbo) ـ يتعرّفون في المدرسة على أسلافهم الغلوا (Les Goulois) (أسلاف الفرنسيين في الحقيقة)، وكان صغار التكارير يحفظون دروساً تقدّم [العالم المجاهد] الحاج عمر في صورة مشاغب لا يستأهل الاحترام[1].

وكان المتدرّبون على الآلة الكاتبة، في مدرسة مسلمة، بداكار يتمرّنون بطباعة عبارات نموذجية تتحدّث عن عمدة مارسيليا وبلدية يير: لا شيء عن إفريقيا.

لقد كان طلبة وخرّيجو المدرسة الاستعمارية (حتّى بعد الاستقلال) يعرفون أدق التفاصيل عن تاريخ المستعمر المحبوب وحضارته، ويجهلون بالمقابل تاريخهم وحضارتهم الخاصّة.

ويذكر منصور الشافعي (V. Monteil) أنّ التلاميذ والطلبة السنغاليين كانوا يطرحون عليه أسئلة غريبة، بالغة في الدلالة على جهلهم بالمحيط الإسلامي، وأن أحدهم كان يحسب أن السوريين هم سكان الجزائر[2]...

وعلاوة على المحتوى الأجنبي للتعليم الاستعماري كانت المستويات التربوية منخفضة ولم يكن تكوين الأطر العليا من غايات التعليم، إذ تَقتصر أهداف المدرسة على تكوين فئات دنيا من موظفي الادارة الاستعمارية الصالحين لنشر اللغة الفرنسية وزرع محبّة فرنسا في قلوب الشعوب المستعمرة[3].

وقد كان المسلمون أقلّ السكّان استفادة من التعليم الاستعماري لموقفهم الرافض للاستعمار وتشبثهم بالدين من ناحية، ولميل الادارة الاستعمارية الطبيعي إلى الوثنيين والنصارى.

---

(1) Ki-Zerbo, idem, p 441.

(2) V. Monteil, idem, p 296.

(3) راجع: النحوي / بلاد شنقيط، ص 346.

ففي تشاد مثلاً استوعب التعليم النظامي الفرنسي نحو 36% من أطفال المناطق الوثنية والنصرانية، مقابل 4% فقط في المناطق الإسلامية في البلد.

وقد أورث الاستعمار بلاد إفريقيا ـ والبلاد الإسلامية عامّة ـ نظاماً تربوياً معقّداً يستنزف طاقات مادّية كبيرة ويستوعب أعداداً محدودة من الطلاب ويعود على البلاد بفائدة ضئيلة.

إنّ الأميّة ما تزال منتشرة في إفريقيا، رغم المبالغ الطائلة التي تنفق على نظام تربوي صِيغَ خارج حدودها وصُدّر إليها لُغة ومحتوى، وأحيط بهالة من القدسية حتى لا تناله يد التغيير.

يقول رنيه ديمون(Rene Dumont) في كتابه: «L'Afrique est mal partie»: إنّ مالي وهي تستنسخ نظمنا التربوية (الأوروبية) ترصد للتربية الوطنية 18% من ميزانية الدولة ولكنّها لا تستوعب إلاّ 11% من الأطفال في سنّ الدراسة: 75% منهم في باماكو 3٪ فقط في الأرياف»[1].

وأبلغ من ذلك أن فولتا العليا (بوركينافاسو ـ اليوم) كانت تخصّص 23% من ميزانيتها لتعليم 8% فقط من الأطفال في سنّ الدراسة.

وكانت موريتانيا تنفق ربع ميزانيتها على مدارس نظامية لا تستوعب إلاّ نسبة ضئيلة لا تكاد تبلغ الربع (¼) بالمقارنة مع الأعداد التي تستوعبها الكتاتيب والمحاضر، وهي مؤسسات أهلية تربوية لم تكن الدولة تنفق عليها البتّة.

وقد لاحظ الخبراء أن حلّ مشكل التعليم ومحو الأميّة لا يتأتّى إلاّ بالاستفادة من النظام التربوي التقليدي الذي يستوعب جمهوراً كبيراً ولا يكلّف الدولة إلاّ قليلاً، هذا فضلاً عن مواءمة مناهجه ونظمه للبيئة.

لكن تطبيق هذا الحل يواجه صعوبات جمّة، أهمّها عدم اقتناع الادارة في الدول الإفريقية المستقلّة وتخلّصِها من إسار التبعية الثقافية.

---

(1) V. Monteil, idem, p 293.

لقد تحوّلت اللغات الاستعمارية في إفريقيا إلى لغات دولة لا تتحرّك الادارة ولا تعمل إلّا بها... ففي نصف إفريقيا (مساحة) تقريباً تسود اللغة الفرنسية: في دول أفريقيا الغربية وبعض إفريقيا الشرقية وفي زائير فضلاً عن الحضور القوي للفرنسية في جل الدول الإفريقية القريبة، بينما تسود الإنجليزية في نيجيريا وشرق إفريقيا وغانا وسيراليون وغامبيا، وتسود البرتغالية في أنغولا وموزمبيق وغينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر.

وهكذا يمكن أن نستخلص أنّ النظام التعليمي الاستعماري لم ينشر العلم والمعرفة في إفريقيا، بل إنّه لم يرفع الأميّة السائدة فيها، ولكنّه كوّن جيلاً من أبناء البلد، هم قلّة وهيّأ لهم ظروف الحكم والسيادة في ميادين السياسة والثقافة، فأدّوا ـ رغماً عنهم أحياناً ـ خدمات جُلّى، للمستعمر بعد رحيله.

فمن خلال نخبة من الساسة والمثقفين الأفارقة تحقّق للقوى الاستعمارية من أهدافها ما لم تحقّقه جيوشها وإدارتها في ظلّ الاحتلال، فقد تربّت النخبة الإفريقية في حمى المستعمر وتأثّرت به، وأثرت بدورها أبلغ تأثير في الجمهور العريض من أبناء جلدتها، الذين أسلموا عقولهم وقلوبهم من حيث لا يدرون ـ لغزاة قاوموهم طويلاً وهم حاضرون...

ثالثاً ـ الاستلاب

لقد كان الاستلاب الحصاد الكبير للبذرة التي ألقى بها المستعمر في الأرض الإفريقية، وهو يفتتح مدارسه وينصب إدارته، وكان ما بعد الاستقلال الموسم الأكبر لهذا الحصاد.

كان المسلمون، أول عهدهم بالاستعمار ينفرون منه نفوراً شديداً، يحملون السلاح في وجهه ويقاطعون مدارسه ومؤسساته، ولكنهم اليوم يهرعون خلفه، يتمسحون بأذياله، ويتمنون لو حظوا بقربه ورضاه، ولو أنهم صوّروا على هيئته وساروا على نهجه ولا يألون في ذلك جهداً. إنهم يسجّلون اعترافاً صارخاً بالهزيمة في صياغة خاصة تتملّق عدو الأمس وتعترف له بالفضل والسبق.

لقد شهدت هذه الأجيال بنفاذ بصيرة ابن خلدون وصدق نظريته عندما عقد فصلاً «في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعاداته. والسبب في ذلك أنّ النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال، بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، وإنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك اتصل لها اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه ـ والله أعلم ـ من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنّما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه، في اتخاذها وأشكالها وفي سائر أحواله[1].

إن الولع باحتذاء النموذج الأوروبي، في المجتمعات الإفريقية ـ والمسلمة عامة ـ هو أبلغ إقرار بالغلبة، يمكن أن يصدع به المغلوب أمام الغالب. إنه أبلغ من توقيع اليابان على صكّ الهزيمة في الحرب العالمية الثانية.. إنه إقرار بليغ نصدع به حتى ونحن نشتم المستعمر ونندد به. وقد لمح هذا الموقف الشاذ ـ فرانز فانون ـ وغيره من رجال الادارة الاستعمارية الذين نظروا بإنصاف وتجرّد إلى الشعوب المستعمَرة (بالفتح) وأقرّوا لها ما لا تقرّ لنفسها من حق الاختلاف ومغايرة الشعوب أو الدول المستعمِرة (بالكسر).

وسنرى كيف فعل الاستلاب فعله في عقول الساسة والمثقفين وسواد الناس.

١ ـ الساسة والدولة

قامت الدول الحديثة المستقلة على أمثلة ونماذج جاهزة، شرقية أو غربية، مباينة في بناها الدستورية وطرائق عملها، ومشاربها العقدية لما كان... ولا بد من الإقرار بمشروعية التغيير والتطوير، وفقاً لسنّة الخالق في خلقه، ولما يقتضيه تطوّر الحياة من أحكام تفصيلية ـ فرعية ـ يفضي إليها الاجتهاد الصالح فيما يتصل ببنية الحكم وطرائق العمل، فلا بد من ذلك،

(1) ابن خلدون / المقدمة ـ ص 147.

ولا ضير فيه طالما أن المبادىء والغايات سوية، لا زيغ فيها عن طريق الله. ولكن من الحق أن المسلمين في إفريقيا ـ وفي غيرها ـ لم يكلفوا أنفسهم عناء التأصيل وهم يؤسسون «الدول المستقلة» ويسوسونها. . لقد مالوا إلى السهولة واستمسكوا بالموروث الاستعماري، أو المحاكاة السهلة لنماذج أجنبية، تستمد قدسية خاصة ـ في العقول المستلبة ـ من مجرد كونها أجنبية. .

وقد ورثت دولنا الحديثة حدوداً اختطها المستعمر، مقدسة لا تنتهك، لا لأننا رسمناها لأنفسنا بالتراضي، بل لأنها «الحدود الموروثة عن الاستعمار».

وأقررنا ذلك مبدأ من مبادىء القانون الدولي، وأخذنا على أنفسنا به العهود الأكيدة والمواثيق المغلظة.

وبسبب هذه الحدود، ولأسباب أخرى، لم تفتأ دولنا تتقاتل، والقوى الاستعمارية توقد نار الحرب، ليثري تجار السلاح وتزداد الدول النامية فقراً، وتنهار مقوّمات استقلالها، فترضخ لمصادر السلاح ومراكز النفوذ حتى إذا بلغت الدول الكبيرة من ذلك ما تشاء فرضت الحل الذي يحقق بعض غاياتها غالباً. . إنها تخلق المشكل وتتكرّم ـ بعد لأي ـ بحَلِّه، على صيغة تحقق لها، في الغالب، بعض مآربها الجلية أو الخفية. ومعلوم أن آثار الحرب لا تنتهي بانتهائها، بل تتفاقم أحياناً، مؤدّية إلى مزيد من الانهيار الاقتصادي وتفكك النسيج الاجتماعي.

ورثت دولنا الحديثة قوانين الاستعمار، التي شُرعت وسُنّت مفصلة على مجتمعات غربية بعيدة، وفي أزمان سحيقة أحياناً. . إن بعض دولنا ما تزال تأخذ اليوم بقوانين فرنسية تعود إلى القرن الماضي أو أوائل القرن الحالي. . فهل يراد لمجتمعاتنا أن تتبدل لتلائم قوانين مجتمعات أخرى في عصور أخرى؟

وقد ورثت دولنا الحديثة مصطلحات (ولا مشاحة في الإصطلاح) ومفاهيم ذات مدلولات فاعلة في الحياة السياسية والاقتصادية للشعوب.

فالديمقراطية، مصطلحاً ومفاهيم ومؤسسات، سلعة «جديدة» نغبط بها

غيرنا ونطلبها عنده ، ونأسى أن لا نكون مثله . . ولا نتذكر أنّ لنا غنى في نداء المساواة الخالد منذ عهد الوحي :

﴿يا أيُّها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . . إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات، 13) .

«ليس لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلاّ بالتقوى» (حديث رواه البيهقي) .

«ليس منّا من دعا إلى عصبية» (حديث رواه أبو داود) .

ولا نتذكر سنّة الشورى القائمة منذ يوم بدر والنداء الرباني القديم: **﴿وشاورهم في الأمر﴾** (آل عمران ، 159) **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** (الشورى، 35) .

وتنازعتنا الليبرالية والرأسمالية والاشتراكية دون أن نبحث عمّا هو خالصٌ لنا، صالح لنا ولغيرنا، فنخرج به من معمعات الخلاف بين أولئك وأولئك . . . ألاَ يحق لنا أنْ نكون أمّة وسطاً لها منهج ربّاني، يطلق العقول حين تتشبع به من إسار المحاكاة الموت والتبعية الساذجة؟ .

إنّ النظرية الإسلامية البديعة القائمة على أنّ المال ملك لله ، وأنّ الناس فيه مستخلفون يجب أن لا يحيدوا عن أوامر مستخلِف عدل يرحم ولا يظلم ويوزع بالقسطاس المستقيم . . هذه النظرية لم تحظ بعدُ باهتمام ساستنا واقتصاديينا . . ولو أنّهم درسوها ، بإنصاف وتمعن لأنارت لهم سبيل الاختيار .

هل يعلمون أنّ ماركس، وهو يضع « رأس المال » قد عاد إلى المنابع التي يستهجنون اليوم وينكرون، إلى مراجع الاقتصاد الإسلامي مثل كتاب الخراج لأبي يوسف، كما أنّ نابليون لم يرَ غضاضة في الاستفادة من الفقه المالكي، وهو يحرّر القانون المدني الفرنسي . .

إنّ الحاجز النفسي الذي وضعه منظرو الدول المسلمة الحديثة بينهم وبين الإسلام يبدو أحياناً أثقل وطأة وأكثف حجاباً من نظره العداء للإسلام التي لم تمنع المستعمرين ولا الملحدين من العودة إليه - بدون عقد - والاستفادة منه حين يرون لهم في ذلك نفعاً . .

ولقد ورثت الدول الإسلامية في إفريقيا وغيرها مبدأ أثيراً عند الغربيين هو مبدأ ـ العلمانية ـ الداعي إلى فصل الدين عن الدولة.

فمنذ قيام الثورة الفرنسية خاصة، اعتبر هذا المبدأ أساساً للحكم في فرنسا وأخواتها من دول الغرب والشرق.

ومنذ تفكّك أوصال الدولة العثمانية وسقوط الخلافة ـ الرمز، باستيلاء مصطفى كمال أتاتورك على الحكم في تركيا، سرت إلى الدول الإسلامية عدوى اختزال دور الدين وإلغاء حضوره واعتساف فصله عن السياسة، فحفلت دساتير دولنا بالمواد التي تؤكد علمانية الدولة.

قد نجد عذراً للأوروبيين، الذين حكمتهم الكنيسة عصوراً طوالاً، حكماً متبلداً ثقيلاً، يحتكر ملكوت السماء والأرض في آن.

فالكنيسة في أوروبا هي التي أنشأت محاكم التفتيش وأدارتْها من القرن 13 إلى القرن18 م، وحكمت على أكثر من تسعة ملايين نفس بشرية بالقتل، حرقاً أو شنقاً، أو بالنفي والتشريد.

والكنيسة فرضت «على الناس ضرائب مالية وعقلية وروحية فادحة، فالعشور والإتاوات والعمل المجاني في أراضي الكنيسة الإقطاعية والتجنيد في جيوشها التي تحارب بها الملوك العصاة وتؤدّبهم.. ذلك لون من السلطان المفروض على العباد»... ولون آخر منه ذلك «الخضوع المذل لرجال الدين لحد السجود في الوحل عند مرور أحدهم»[1]...

والكنيسة هي التي عذبت العلماء حتى الموت أو التراجع والتوبة (من العلم!)، أمثال برونو، وكوبر نيكوس وغاليليو الذي برأته الكنيسة ـ فأدانت نفسها ـ بعد موته بقرون طويلة..

يضاف إلى ذلك كلّه مهزلة صكوك الغفران المعروفة.

للأوروبيين حساب عسير مع كنيستهم، ولنا معها حساب أعسر، فقد

---

(1) محمد قطب / جاهلية القرن العشرين ـ ص 33، 34.

سيّرت أساطيلها لتسترقّ شباب إفريقيا وفتيانها، وشدّت من بعد أزر الاستعمار وهو يجتاح أرضنا. . ولكن ما حسابنا مع الإسلام؟.

إنّ الديمقراطيات الغربية ـ وهي ترفع مبدأ العلمانية ـ إنّما تصفي، وبأسلوب مهذب، حساباً طويلاً مع الكنيسة النصرانية بالذات، فهناك «رجال دين» أفسدوا الدولة ولم يصلحوها، وحكموا فلم يعدلوا ولم يرحموا. .

أمّا عندنا فإنّ الإسلام ـ وهو الدين الحق والشريعة الناسخة لما قبلها ـ يختلف عن النصرانية. . لا بابوية في الإسلام ولا كهنوت ـ ولا سلطة تحتكر العلاقة مع الله دون عباد الله.

الإسلام نظام متكامل للحياة. . دين ودنيا، وليس ديناً للآخرة فقط. . هو نظام متكامل يحدد، في دقة وإحكام أسس العلاقات بين الراعي والرعية (السلطة والشعب) وبين الفرد والجماعة وبين الدنيا والآخرة. . فهل نعطل هذا النظام لأنّ الحضارة الغربية لم تأت به؟

وحين كان للإسلام حظ من ممارسة الحكم لم يكن الدين خصماً للعلم بل كان داعياً إليه حاملاً عليه، ولم يكن الإسلام مصادرة لحق الرأي وحرية الكلمة، ولم يكن حرباً على الحياة الدنيا، إلاّ ما كان فيها من ظلم وهوى مطغ ضار بصاحبه أو بمن حوله، بل كان الإسلام يشيد ويبني ويتعهد دنيا الناس وآخرتهم في آن؛ فهل تخاصم ديننا لأنّ أعداءنا خاصموه (!) أم لمجرّد أنّ الكنيسة أرهقت رعاياها من أمرهم عسراً، فخاصموها بأدب قائلين لرجالها: اتركوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله؟!!

إنّ سياسيينا، وهم يستوردون علمانية الدولة، كما صيغت في الغرب ينسون ـ أو يتناسون ـ الفروق الجوهرية بين الإسلام والنصرانية، وبين تجربة الإسلام وتجربة الكنيسة في الحكم، وبين مجتمعاتنا والمجتمعات الغربية. . وتلك فروق واقعية لا يسوغ إنكارها. فإذا تنكّر لها الساسة، فإنّما يقعون في إسار التبعية العمياء والمسخ والاستلاب.

وليس غير التبعية من منطق يفسّر بعض التقاليد الرسمية السائدة مثل تعطيل يوم الأحد وتأريخ الأحداث بالتقويم الميلادي. .

إنّ الأوروبيين ـ رغم علمانيتهم ـ قرّروا أن يعطلوا الأحد ليتيحوا للموظفين المتدينين فرصة التوجه إلى الكنيسة، وعطلوا السبت كذلك، وفيه يفرغ اليهود لعبادتهم. . ورغم الدعوات التي ارتفعت لتغيير التقويم بعد الثورة الفرنسية، فإنّهم تمسّكوا بتقويم غريغوري، مؤكدين بذلك أنهم ـ وعلى علمانيتهم ـ يعتبرون مولد المسيح عيسى عليه السلام أهم حدث في تاريخهم. وهو أولى ـ حتّى من الثورة الفرنسية عند الفرنسيين ـ بأن يكون المحطة الخالدة التي يقاس الزمن وتؤرخ الأحداث انطلاقاً منها.

إنّهم يفعلون ذلك التزاماً ـ ولو رمزياً ـ بديانتهم، فلماذا نفعله نحن؟ ألِأنَّ شعوبنا تدين بدينهم؟ طبعاً، لا . . ولكنها التبعية والاستلاب.

وليس التبرير الاقتصادي للتمسّك بتعطيل الأحَد إلّا تعليلاً واهياً كشفت التجربة ضعفه، فهل تضرّرت اقتصاديات الدول الإسلامية التي تعطل يوم الجمعة أو انقطع اتصالها بالأسواق والمؤسسات الغربية، أم أنّ الدول التي تمسّكت بتعطيل يوم الأحد أوفر حظاً من النمو الاقتصادي بالمقارنة مع مثيلاتها من الدول التي تعطل يوم الجمعة؟

ولقد اعتمدنا التقويم الميلادي ـ الشمسي، وفصلنا عليه حياتنا تفصيلاً، وأعاد المستشرقون تدوين تاريخنا به فحذونا حذوهم في ذلك، وتنازلنا عن التقويم الهجري ـ القمري أو أحلناه إلى المرتبة الثانية في جلّ الحالات.

والواقع أنّنا بذلك نمارس طقساً من طقوس التبعية لا غير، فليس من ضرورة اقتصادية أو ثقافية لإيثار تقويمهم على تقويمنا. . إنّهما ميزانان للزمن، لكن أحدهما أعلق بتاريخنا الخاص وأحفظ له وبه نُعرف ونمتاز، وقد أجمع عليه المسلمون ـ بعد أن سنّه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في القرون الفاضلة، فلماذا الخروج على إجماعهم؟.

هب أنّ التقويم الشمسي يبدأ بتاريخ مولد عيسى عليه السلام ـ وبين علماء النصارى في ذلك خلافات كبيرة ـ أليس محمد ﷺ أولىٰ بنا، وإن كنا أولىٰ بعيسى عليه السلام من النصارى؟ أليس عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أولىٰ بنا من البابا غريغوري؟.

أليس التقويم الهجري أولىٰ بالحفظ من التقويم العبري أو القبطي أو الصيني أو. . . الفارسي. . وهي تقاويم حيّة لم ينسخها التقويم الميلادي إلى اليوم؟!

لقد تبنّينا التقويم الميلادي، لأنّنا فقدنا الثقة، بل الإحساس بذاتيتنا، ولأنه تقويم «الأسياد» وميراثهم الذي نحرص عليه!

تلك تقاليد ومواقف أرساها الساسة وبنوا عليها الدول الحديثة ورعوها حق الرعاية، وظاهرتهم عليها النخبة من المثقفين، الذين لا يسنّون القوانين ـ ضرورة ـ ولا يصنعون القرارات دائماً، ولكنّهم يشاركون في ذلك كلّه، دعوة وتمهيداً ودفاعاً وتبريراً ومشاركة مباشرة أحياناً.

فالمثقفون في بلادنا هم أخطر ضحايا الاستلاب وأجناده، بما يحملون من ثقافة الاغتراب، وبما يملكون من القدرة على نشرها وتعميمها.

2 ـ المثقفون

لقد نجحت المدارس الاستعمارية، الحكومية والكنسية، في تكوين جيل من المثقفين تشبّعوا بثقافة المستعمر وقيم حضارته، وتأهّلوا لخلافته بما يرضيه، وكان منهم في العقود الأخيرة كفاءات كبيرة اعتبرها الغرب من بذره فحصدها ومن بضاعته فاستردّها، فيما يعرف بهجرة الأدمغة أو العقول. . . إنّه استنزاف آخر للموارد البشرية الإفريقية، وغير الإفريقية، التي يستخفّها بهرج حضارة الغرب ومادته فتنساق إليه بلهفة ، وتستفزها دولنا النامية (تفاؤلاً) المتخلّفة (واقعاً) فتهجرها راضية مطمئنة. وكان من الذين اغتذوا بالثقافة الدخيلة طائفة نراها، وإن هي رغبت عن التبعية للاستعمار، لا تجد مَنَاصاً مِن التعبير بلغته، فكان من هؤلاء كتاب آثروا ثقافة المستعمر وخدموه، باستخدام لغته، وإن ناهضوه بموافقتهم الفكرية والسياسية.

إنّ عدداً هاماً من كتّاب إفريقيا الشمالية دوّنوا أعمالهم الإبداعية باللغة الفرنسية. وكان فوز الطاهر بن جلون بجائزة الغونكور الفرنسية مؤخراً اعترافاً

بعطاء هؤلاء وتقديراً لنتاجهم المنتمي شكلاً ـ بل ومضموناً أحياناً ـ إلى دائرة الثقافة الاستعمارية.

وفي المناطق الأخرى من القارة حوصر الحرف العربي وأُجْليَ ليَحل محلّه الحرف اللاتيني بعد أن ظلّت أكثر من 30 لغة إفريقية تكتب من اليمين إلى اليسار قروناً عديدة، ونما أدب إفريقي وطناً، أجنبي لغة وفكراً.

يقول ممادو ديا إنّ الدين غائب في الغالب من إبداعات الكتاب الأفارقة الذين لا تعوزهم العبقرية. وحين يستحضر الكاتب الدين، فإنّما يفعل ذلك في سياق هزلي كما في Les Contes et Lavanes لـ بيراغو ديوب Birago DIop أو بأسلوب قدحي وهجائي كما في Karim لعثمان سيسي، أو في قالب جدلي كما في قصص سمبين Sembene[1]؛ قاعدة لا يخرقها إلاّ قلة من الكتّاب مثل مالك بن نبي في الجزائر في مجمل كتاباته الفكرية الإسلامية، أو السير أبو بكر تيفاوه أحد أبرز القصاصين الأفارقة الناطقين بالإنجليزية، في قصته Shihu Umar (الشيخ عمر).

إنّ نظرة العداء أو اللامبالاة التي ينظر بها الكتّاب الأفارقة المسلمون إلى دينهم، هي نظرة الغربيين إليه، استنسخوها غالباً بدون تصرّف، ومكن لها في قلوبهم جهلهم بالإسلام فكراً أو تاريخاً.

وها هو أحد الكتّاب العرب البارزين، الدكتور زكي نجيب محمود، فيلسوف الوضعية المنطقية عند العرب، يعترف صراحة أنّه عاش طويلاً، وهو لا يعرف شيئاً عن الإسلام، ثقافته وفكره، فهو وقد عاد إليه أخيراً يكتشف عوالم أخّاذة كان يجهلها[2]!!.

ولكن جلّ مفكرينا ومثقفينا لا يكتشفون دينهم، ولا يشعرون بـأنّهم بحاجة إلى اكتشافه، بل إنّ كثيراً من هؤلاء قد اقتنعوا بالدعاية الاستعمارية التى تصوّر الدين أفيوناً للشعوب وتعتبر الإسلام سبب تخلّف المسلمين..

---

(1) Mamadou Dia: Islam et civilisation negro-africaines, p 36.

(2) محسن عبد الحميد، مصدر سابق ـ ص 142.

وقد صدع مفكرون عرب، فعل الاغتراب الفكري فعله في عقولهم، بأنّ الهزيمة التي لحقت بالعرب في معاركهم مع الصهيونية هي نتيجة حتمية لمنظومة التقاليد والعادات والمنطلقات الفكرية السائدة عندهم، أو ـ بشكل صريح ـ للإسلام.! وأنّ طريق النصر والتقدم تمر حتماً بإلغاء الذات التي صاغها الدين، وأحاطها ـ في نظرهم ـ بمعوقات ومثبطات جمّة!!!

إننا لا نريد في هذا المقام أن نناقش دعاة الاغتراب أولئك.. حسبنا أن نذكر بأن شيئاً ما لا يمكن أن يكون سبباً لشيء ولضدّه في آن.. فإذا كان العرب، أو المسلمون تخلّفوا بالإسلام وانهزموا به، فلماذا انتصروا به من قبل وبنوا به أعظم دولة، وشادوا به حضارة عظيمة استقت منها الحضارة المعاصرة نسغها الأول؟

الحقيقة أن العرب والمسلمين إنّما تخلّفوا اليوم وخسروا بعض المعارك لأنهم فرطوا في السلاح الذي به انتصروا من قبل: الإيمان، ولأنّهم اليوم مستلبون، استبيحت عقولهم واسْتُرِقَّت، فليس أمامهم من سبيل للانعتاق وتحرير الأرض وتحقيق التقدّم والعزّة التي يبغون والريادة التي يطلبون إلاّ بتحرير العقول من سلطان الاستلاب المهيمن عليها: عقول الساسة والمثقفين وعقول العامة.

وإذا كان الاستعمار، في عصور الاستكشاف وتجارة المحيطات، قد استنزف موارد القارة البشرية، واجتذب إليه بالقسر والإكراه طاقتها الحية المتمثلة في شبابها النشط العامل، فإنه اليوم ـ في لبوسه الجديد، يواصل عملية الاستنزاف، هذه المرّة بالإغراء المستند إلى بريق حضارة الغرب وجاذبية نمط الحياة في البلاد المصنّعة، ذلك أن إفريقيا، على تخلّفها، قد تحوّلت إلى مصدِّر للعقول والأدمغة، إلى أوروبا وبلاد الغرب عامة، دون أن يتم ذلك عبر اتفاقات دولية أو يحتسب «مساعدة فنية» إفريقية في الغرب الذي يتحدث كثيراً عن «مساعدته الفنية» لإفريقيا.

ورغم تعذّر الوصول إلى إحصائيات كاملة ودقيقة في هذا المجال، فإن تقارير مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية تؤكد أن هناك 80,000 عقل إفريقي (مهندسون، أطباء، محامون... إلخ) يعملون في دول المجموعة

الاقتصادية الأوروبية وحدها، فيساعدون في تنميتها وتقدّمها، وبلادهم محتاجة إلى عطائهم محرومة منه.

من ذلك أنّ جامعة دار السلام (نيروبي) فقدت 39 من أساتذتها وأضعاف ذلك من الباحثين خلال سنة 1983 م، وبلغ عدد الكفاءات الكينية التي هجرت بلادها إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها نحو 4000 شخص. وفيما بين 1966 و 1977 ترك 3310 عالم مصري بلادهم إلى الولايات المتحدة وحدها، حيث يساعدون في تنمية قطاعات البحث والفيزياء النووية وصناعة الأسلحة (نذكر هنا فاروق الباز مدرّب ملّاحي أبولو، الذين وضعوا أقدامهم لأول مرة على سطح القمر)...

وورد في تقارير اليونسكو أنّ نصف الطلاب الأفارقة الذين يدرسون الكيمياء والفيزياء في أوروبا لا يعودون البتة إلى بلادهم، إذ يفضلون عادة البقاء في أوروبا والعمل فيها...

وورد في تقارير مؤتمر الأمم المتحدة للتنمية والتجارة أنّ الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا، غنمت ثلاثتها 51 مليار دولار من ثمرة عمل الكفاءات البشرية المهاجرة من بلدان العالم الثالث (وكثير منهم أفارقة)، بينما لم تتجاوز مساعدة الدول الثلاث للعالم الثالث 46 مليار دولار[1]...

وقد بدأ الأفارقة أخيراً ينتبهون إلى خطر الهجرة العلمية، وأمر الرئيس الأوغندي يوري موسفني Yoweri Museveni بحجز جوازات سفر بعض أطر يوغندا لئلّا يتركوا بلادهم، كما أعلن الرئيس التنزاني علي حسن مويني امتعاضه من هجرة أطر بلاده. لكن جاذبية الغرب تبقى أكبر.. ورغم سمة التلقائية، والارادة الحرة التي تطبع هجرة الكفاءات، فإن الغرب هو الذي ينهب هذه الثروة البشرية النافعة (ليزداد بها الغني غنى والفقير فقراً)، خصوصاً إذا علمنا أنّ الكفاءات العالية تخضع لضغوط شتى، لئلّا تعود إلى بلادها.

---

(1) انظر: صحيفة La Presse التونسية عدد 1990/02/23 م.

وتأخذ هذه الضغوط شكل الإغراء أحياناً، ولكنها عندما لا تؤدي النتيجة المطلوبة، تتحول إلى ضغوط إرهابية تصل في حالات كثيرة إلى التصفية الجسدية، كما حدث لبعض المهندسين الباكستانيين والعراقيين، الذين اغتالتهم أيدي المخابرات الإسرائيلية والغربية لتقليل حظوظ الدول الإسلامية من العلم والتكنولوجيا والنمو.

3 ـ العامة

استطاع المستعمر، وقد استحوذ على عقول الساسة والمثقفين، أن يغزو قلوب العامة وعقولهم، فسرى سرطان الاغتراب في أوصال المجتمع كله، وتبنت شعوب مسلمة منظومة كاملة من العادات والتقاليد الأجنبية الغريبة عليها، انبهاراً بنموذج صوري موهوم «لمدينة فاضلة» أو «مجتمع مثالي» أجنبي.

يقول حسن البنّا: «إن الأوروبيين تمكنوا من أن يغيّروا قواعد الحكم والقضاء والتعليم وأن يصبغوا النظم السياسية والتشريعية والثقافية بصبغتهم الخاصة في أقوى بلاد الإسلام، وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات وخمورهم ومسارحهم ومرافقهم وملاهيهم وقصصهم وجرائدهم وروایاتهم وخيالاتهم وعبثهم ومجونهم، وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم، وزيّنوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة التي تعج بالإثم وتطفح بالفجور في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين [و] الأغنياء وذوي الرأي فيهم وأهل المكانة والسلطان (. . . .) ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح فهو غزو محبّب إلى النفوس لاصق بالقلوب، طويل العمر، قوي الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف»[1] .

لقد صدّرت الحضارة الغربية إلينا نظرتها إلى المرأة، حتى انبرى من بين مثقفينا قوم يدعون ـ جهاراً ـ إلى سفور المرأة ويوهمونها أن تحرّرها

---

(1) القرضاوي / الحلول المستوردة. . . ص .31/30 .

وتقدمها رهينان بمقدار من العري والاختلاط، والانسلاخ من قيم الاحتشام والعفاف.

إنّ غشاوة كثيفة تغطي عيون هؤلاء الذين يصدقون دعوة السفور وتلبس على عقولهم، فالمرأة المسكينة ضحية ـ من حيث لا تدري ـ لنمط جديد من الاستعباد، يسول لها الرجال السفور ويدعونها إليه فتنخدع دون أن تدرك أنها تحولت إلىٰ سلعة تافهة معروضة على الأرصفة وفي المحلات العمومية، فريسة لعيون عابري السبيل ومتصيّدي الشهوات الهابطة.. أي تحرير للمرأة في أن يفرض عليها فرضاً أن تسير في الشارع حاسرة الرأس عارية الساقين أو الفخذين، وأن تعرض نفسها عارية على الشواطىء...؟ لِمَ لا يكون للمرأة حق المساواة مع الرجل الذي شرعت له الحضارة الحديثة من سابغ الثياب ما لم تشرعه للمرأة؟

لَمْ تُسْتَرقّ المرأة في عصر من العصور مثلما اسْتُرِقّت في عصرنا هذا وهي محكومة بأن تدور في الشوارع سافرة عارية، معرضاً جوّالاً يقدم دعاية مجانية لمصممي الأزياء وتجار الموضة والمساحيق والأصباغ وأدوات الزينة المصطنعة.

لقد تحولت هذه المغالطة الكبيرة إلى مبدأ مقدس من المبادىء التي ترفعها، وتطبّقها المجتمعات المسلمة في إفريقيا وغيرها، وما زالت التجربة الأتاتوركية حاضرة في دعوات ندية الصوت مشدودة العضد لحرمان المرأة من حقها المشروع في ارتداء زي محتشم والدخول به حيث تشاء.

وقد ثارت أخيراً ضجة كبيرة في فرنسا حول حق فتيات مسلمات في ارتداء الزي الإسلامي في المدرسة، وكان من حجج المتطرفين أنّ بعض الأنظمة الإسلامية تصادر هذا الحق، فلماذا يطلب إذاً، من دولة علمانية، تسود فيها النصرانية، أن لا تصادره؟ هل نتوجه بالشكر «لمادام متران»، التي بزّت بعض ساستنا ومثقفينا في موقفها المتسامح المؤيد لحق المرأة في ارتداء زي محتشم؟ مفارقة مثيرة! يبدو جلياً أنّ ولاءنا للغرب أكبر من ولائه لنفسه.

ومهما يكن من أمر، فإن القيم الاستعمارية التي شجعت السفور قد

صَدَّرت إلينا تكنولوجيا الخلاعة وفكرها وممارساتها، فانتشر التحلل الأخلاقي وسادت الإباحية، لا في مراكز خاصة، بل في الشارع وفي البيت «بفضل» أفلام الفيديو والسينما وبرامج التلفزيون. . وكثيراً ما يأخذ التفسخ في مجتمعاتنا طابعاً استفزازياً وقحاً، ففي عهد غير بعيد ـ وهذا مجرد مثال ـ كانت تحيط بجامعي هرر وجمة بالحبشة بيوت الدعارة وحانات الخمارة. . والصورة تتكرر هنا وهناك في كثير من مدن القارة. .

وها هي حضارة الخلاعة تقدم لإفريقيا آخر هداياها:

مرض السيدا (الآيدز) الذي يهدّد نحو عشرة ملايين من سكان العالم، فقد تسرب المرض الذي تشكل العلاقات الجنسية غير المشروعة أبرز أسبابه إلى إفريقيا بعد أن نشر الرعب في أمريكا وأوروبا. وفي قرار الرئيس الكيني بعزل آلاف المصابين بالمرض عن المجتمع ما يكشف درجة انتشار المرض في القارة ومستوى الرعب الذي يبثه في القلوب.

وبالجملة فإن رياح الاستلاب تجتاح مجتمعاتنا المسلمة، في إفريقيا، وأوساطها المثقفة على الخصوص فلا يكاد الأغراب يدخلون جحر ضب إلاّ ودخلناه أو جمهور كبير منّا، لا يألون جهداً في تقفّي خطوات الغرب، من الزي الذي يلبسون إلى الفكر الذي يسرّون أو يعلنون؛ استلاب شامل يجسّده ولع بعض الأفارقة ـ والإفريقيات خاصة ـ بالانسلاخ من جلودهم، أو جلودهن، واستبدال ألوانهم باستخدام مستحضرات الطلاء، في موضة معروفة عند النساء السنغاليات باسم « خيصل » .

وكأن مجتمعاتنا وهي تنظر إلى مستعمريها بعين الإعجاب والتقدير والانبهار لا تدرك أن جزاءها في ذلك ليس إلاّ النظر إليها بعين التعالي والمضي قدماً في طريق إذلالها واستغلالها.

لقد مزّقوا بلادنا إرباً إرباً، وأوقدوا بينها نار الحرب واستنزفوا خيراتها ونهبوا ثرواتها وأثقلوا كاهلها بالديون المجحفة، وسخروا شعوبها لخدمة حضارتهم والتغني بها واستهلاك سلعها، وها هم اليوم يتطلعون إلى أن تكون قارّتنا مقبرة، أو مستودعاً للنفايات السامة التي يضنون ببرّهم وبحرهم عنها. وهم، بذلك يلخصون ببلاغة نظرتهم الظالمة إلى القارة.

المبحث الثالث

روافد الاستعمار

ليس الاستعمار، في اصطلاحنا هنا، محصوراً في حركة الاحتلال الأوروبي للقارة، بما في ذلك مقدماتها وعواقبها المباشرة، إنه مجمل حركة القوى المعادية للإسلام، المناوئة لأهله، مهما تعدّدت أسماؤها واختلفت أزياؤها، ما دامت تسعى جميعاً إلى غاية واحدة: استلاب الإنسان بتشويه فطرته ومسخ عقيدته ومصادرة قيمه الخاصة، ومحق بنيانه الحضاري المتميّز.

إن الاستعمار بذلك ينتظم مجموعة من الروافد سعت سعي جيوش الاحتلال وإدارته وعاثت فساداً في قلوب الناس.

وقد كانت هذه الروافد تلبس لبوس الإسلام في بعض الحالات، وتلبس لبوس الإلحاد في حالة أخرى، وتلبس، في حالات أُخر، لبوساً غير هذا وذاك.

القاديانية

أمّا مظلة الإسلام، فقد استغلّتها القاديانية بدهاء منذ مطلع القرن.

وتعتبر القاديانية من أخطر النحل التي انتشرت في القارة متلفعة بثوب الإسلام، منتحلة الاسم الجميل «الطائفة الأحمدية».

لقد نشأت القاديانية على يد ميرزا غلام أحمد، رجل هندي صدع بعقائد منحرفة، وحظي في نشرها برعاية الاستعمار البريطاني وتشجيعه، فكان تعطيل الجهاد وموالاة الاستعمار من أهم مرتكزات النحلة الجديدة.

يقول الميرزا غلام في كتابه «ترياق القلوب»:

«لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها. وقد

ألّفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولي الأمر الإنجليز» (. . .) «قد ألّفت [كثيراً] من الكتب والإعلانات والنشرات. وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية وتركيا. وكان هدفي دائماً أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة».

وفي كتابه «تبليغ الرسالة» يقول الميرزا:

«لقد ظللت منذ حداثة سني ـ وقد ناهزت اليوم الستين ـ أجاهد بلساني وقلمي لأصرف قلوب المسلمين إلي الإخلاص للحكومة الإنجليزية والنصح لها والعطف عليها (. . .) وأرى أنّ كتاباتي قد أثّرت في قلوب المسلمين وأحدثت تحوّلاً في مئات الآلاف منهم».

وفي رسالة له يقول: «ولا يخفى على هذه الدولة المباركة [بريطانيا] أنّا من خدامها ونصاحها ودواعي خيرها من قديم، وجئناها في كل وقت بقلب حميم. وكان لأبي عندها زلفى (. . .) سبقنا في كل خدمة مع السابقين»[1].

تلك الألفة الحميمة بين القاديانية والاستعمار البريطاني مهّدت لهذه النحلة الجديدة طريقها في إفريقيا، لتكون عوناً في تدعيم أركان الادارة الاستعمارية.

فكما أقبلت النصرانية إلى نيجيريا صحبة الاستعمار، فكذلك دخلتها القاديانية. ففي عشرينيات القرن الحالي، «وصل من إنجلترا إلى نيجيريا «مبشر» الطائفة الأحمدية (القاديانية) مولوي عبد الرحيم نيار، فكان أمراً عظيماً حينذاك حيثَ ينزّل مسلم ضيفاً على الحكومة الإنجليزية بالشرف والكرامة»[2].

ومن المستعمرات البريطانية، تسللت القاديانية إلى بقية البلاد الإفريقية، وكان لها حضور قوي في Koho و Boromo بفولتا العليا (بوركينافاسو).

وفي الخمسينيات كانت أعداد القاديانيين في غانا تقدّر بـ 25000

(1) عبدالله سلوم السامرائي/ القاديانية والاستعمار الانجليزي ـ ص 26، 27 .
(2) الألوري ، مصدر سابق ص 70 .

شخص، وكان لهم سنة 1954 نائبان في البرلمان الغاني، ووزراء في تنجانيقا، وكانت أعدادهم تقدّر بـ 3000 في سيراليون و 7000 في نيجيريا[1]، وقد تطورت هذه الأعداد تطوّراً كبيراً، وانتشرت القاديانية انتشاراً واسعاً، خاصة في شرق إفريقيا، وبلغت مليونين في مدة لا تتجاوز 15 سنة!

وقد استفادت القاديانية في دعوتها من انتشار الجهل في القارة، ووظفت أموالاً طائلة ووسائل بالغة التأثير.

ففي لاغوس نشروا صحيفة The Truth (الحقيقة.!) بالإضافة إلى أربع مجلات أخرى في إفريقيا، وفتحوا 47 مدرسة و 260 مسجد ومكتبات ومستشفيات ومراكز اجتماعية كثيرة[2].

وكان من خططهم البارعة أن نشروا أول ترجمة للقرآن (1953 م) باللغة السواحيلية واسعة الانتشار، سوقوها بسعر رمزي، وأفصحوا عن خبث نواياهم حين نشروا في إفريقيا المتفرنسة مصاحف مكتوبة بالحرف اللاتيني وعليها تعليقات بالفرنسية[3].

لقد وجد الاستعمار في القاديانية، ووجدت الصهيونية في البهائية أداتين طيّعتين لتحقيق مآربهما في القارة، فالقاديانية بتعطيلها الجهاد وإنكارها ختم النبوة، وما تشيع بين المسلمين من عقائد منحرفة، والبهائية بدعوتها المضللة إلى توحيد الأديان، إنّما تشكلان معولين من معاول الهدم والتخريب التي تعبث بالإسلام عقيدة وشريعة وبالمسلمين مجتمعاً في القارة الإفريقية.

الماركسية:

وعلى خلاف القاديانية ظهرت الماركسية في إفريقيا في لبوس الحركة التحررية المعادية للاستعمار، ولكنها كانت، في فلسفتها الإلحادية، أو دعوتها إلى نبذ الدين، ظهيراً قوياً للاستعمار في محاربته للإسلام. وقد كانت نجاحات الماركسية الكبرى نقضاً لأطروحاتها الفكرية السياسية، حيث لم

---

(1) V. Monteil, idem, p 270, 271.

(2) إحسان إلاهي ظهير / القاديانية... ص 15

(3) V. Monteil, idem, p 270, 271

تصدق نبوءة ماركس بوصول النظام الرأسمالي إلى أزمة خانقة تتمخض عن ميلاد سلطة البروليتاريا أو حكم الطبقة العاملة، فقد كان أول بلد تصل فيه الشيوعية إلى الحكم روسيا، وهي بلد زراعي غير صناعي آنذاك، ثم الصين ولم تكن بلداً صناعياً كذلك. ورغم هذا فقد لقيت الشيوعية صدىً واسعاً في المجتمعات الإفريقية، ووصل الماركسيون، اللينينيون أو الماويون إلى السلطة في عدد من البلدان، وجرّبوا حظوظهم مع عقيدة تكفر بالله، ذات مناهج لم تفتأ التجربة الحية تدعو بإلحاح إلى تغييرها.

وقد حاولت الكنيسة أن تستغل تعارض الرأسمالية والشيوعية، فتوهم الأغرار أن الشيوعية والإسلام صنوان (!) وأن دمار القارة فيهما ونجاتها في المسيحية (والاستعمار الغربي من ورائها)، كما جاء في نداء وجهه كبير أساقفة دكار سنة 1959 إلى الأفارقة، ولكن رد الشيخ إبراهيم نياس الكولخي جاء مفحماً مبيّناً للحقائق، حيث قال في رسالة رد مطوّلة: «الحق أنّ الإسلام ضد الشيوعية، والشيوعية ضد الإسلام، وهل الشيوعية في أوروبا سببها الإسلام؟ (. . . .) إن بلادنا هذه دخلها الإسلام ـ إن لم نقل نشأ فيها ـ عدة قرون قبل دخول الأوروبيين. . وما دخلتها الشيوعية، بل ولا المسيحية إلاّ بعد تمكن الأوروبيين فيها»!!

تلك حقيقة. . فقد دخلت الشيوعية في ظل الاستعمار، واعتنقتها من بعد أجيال تربّت في مدارسه وجامعاته. . وحاول بعض الشيوعيين أن يزاوجوا بين مذهبهم العقدي وبيئتهم الخاصة متذرّعين بأنهم إنما يأخذون من الفكر الماركسي منهجيته وبعض نظرياته الاقتصادية لا فلسفته المنكرة لوجود الخالق. ومع ذلك تبقى هذه المحاولة تلفيقية غير مقنعة، ملتقية مع الحركة الاستعمارية فيما تسعى إليه من فرض نموذج حضاري غريب على مجتمعاتنا.

وما بنا من حاجة للإطالة في هذا المقام، فقد عصفت زوابع «البيرسترويكا والغلاسنوست» وتوابعها بأهم الأنظمة الماركسية في العالم، وانهار الاتحاد السوفياتي وتفككت أوصاله وانماعت الأمبراطورية الكبيرة بسقوط دول الكتلة الشرقية، واخترقت رياح الليبرالية جدار الصين، كما

اخترقت جدار برلين حتى نقضته حجراً حجراً. . . وبدت الشيوعية ـ والحال هذه ـ نظرية مفلسة، فلنترك الحكم عليها للتاريخ.

العصبيات الضيقة:

وإذا كانت الماركسية حركة أممية فإن إفريقيا قد أتيت أيضاً من قبل العصبيات الضيقة.

فقد كان من هدف الاستعمار أن يسود، ومن الوسائل التقليدية لبلوغ هذا الهدف التفرقة. ولعل أنجع سلاح في التفرقة بين الشعوب المتعارفة المتآخية هو إثارة النَعَرات العنصرية. وقد أجاد الاستعمار استعمال هذا السلاح، مستغلاً بعض الظروف والعوامل المساعدة.

ففي الساحة العربية، وَجدت «القومية العربية» أول تبرير لها في انبثاق القومية الطورانية التي نادت بمجد الأتراك، واهتضمت مكانة العرب وهوّنت من شأن اللغة العربية، بينما كانت الخلافة العثمانية تحتضر.

وقد كان بإمكان ثورة الشريف حسين (1917 م) لو نجحت في تحقيق حلمها بإقامة دولة عربية جامعة أن تعوّض الضرر ـ المعنوي على الأقل ـ الناتج عن سقوط الخلافة الإسلامية، ولن تكون الوحدة العربية، إن تحققت إلاّ قوة للإسلام ومنعة للمسلمين وخطوة على طريق وحدة الأمة الإسلامية المنشودة. . لكن القوى الاستعمارية لم تكن تريد لهذا المشروع أن ينجح في الحقيقة، وكان قصارى أملها أن تكون شعارات «القومية العربية» مجرّد أطروحات استفزازية يُوَلِّد لها الاستعمار أطروحات مضادة إمعاناً في توهين الصف الإسلامي. . لذلك لا عجب أن تظل شعارات القومية العربية، وأهمها (الوحدة) معلّقة في الهواء لا تزعزع أركان الدولة القطرية المنيعة! ولا عجب أن تتنامى عصبيات أخر في إفريقيا، يحركها الاستعمار، مهولاً من خطر العصبية المقابلة، فتتصارع النظريات والعصبيات المحلية، والمستعمر يتفرّج.

لقد ولدت نظرية «الزنوجة» لتكون مقابلاً ـ نقيضاً للعروبة (أو العروبية) لا لتكون أداة للنضال ضد الاستعمار الذي برزت من رحمه ورضعت من

لبانه، فقد بدأت حركة القومية الزنجية تنمو منذ انعقاد المؤتمر الإفريقي الأول بباريس سنة 1919 م برعاية رسمية.

وفي سنة 1924 م، وبباريس أيضاً أسس هوينو Marc Kodjo Tavalou Houenou الرابطة العالمية للدفاع عن العرق الأسود: Ligue Universelle Pour la Defense De La Race Noire وكان خَلَفَه في قيادتها لامين سنغور (انتسب للحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1923 م) الذي أسس صحيفة La Voix Des Negres وكان خليفته فيها، المالي كورياتي T. Garan Kouyate، شيوعياً أيضاً (ازدواج غريب بين الأممية الواسعة والقومية الضيقة).

وفي سنة 1939 م ظهر لأول مرة مصطلح الزنوجة Negritude في كتاب أصدره المارتينيكي سيزير Aime Cesaire بعنوان Cahier d'un retour au pays natal وكان سيزير زميلاً لليبولد سدار سنغور - رئيس السنغال فيما بعد. وقد أسسّا معاً صحيفة L'étudiant noir. وتنامت نظرية «الزنوجة» من بعد في كتابات سنغور ودعوته السياسية، متلازمة، في تناغم تام، مع شعره الفرنسي ودعوته الصريحة لإعلاء شأن اللغة الفرنسية والمحافظة عليها وعضويته أخيراً في الأكاديمية الفرنسية.

لقد كانت «الزنوجة»، وما تفرّع عنها من نظريات ودعوات أداة من أدوات تمزيق القارة، وتشتيت شملها، ودفعها إلى الكفر بذاتها، ونكران الأوجه المنيرة من عطائها الحضاري الخالص، فتحت مظلة الزنوجة أخذ «الاستعماريون» وبعض المثقفين الإفريقيين المغتربين حضارياً والذين يماثلونهم يستعملون الأصالة الإفريقية التي يدّعونها في اتجاه واحد، حجة ضد الفكر العربي الإسلامي الإفريقي، جاهلين ومتجاهلين كل هذا التراث الإفريقي، الرفيع في مستواه، والضخم في حجمه وتنوعه، منكرين أنه إنتاج إفريقي صميم معبّر عن الحضارة التي شارك في صنعها الإفريقيون أنفسهم مشاركة الأصيل المبدع، لا مشاركة التابع أو المقلّد[1].

---

(1) محيي الدين صابر، مرجع سابق، ص 24.

إنَّ المبشرين بالزنوجة، إذ ينسلخون بها من تراث إفريقي عريق وعظيم، بل من واقع حي معيش يؤمنون في الوقت ذاته أن لا تناقض بينها وبين الاستعمار.

وقد نشرت مجلة الخطوط الجوية الفرنسية Balafon في عدد دجمبر 1989 استطلاعاً مسهباً لآراء مجموعة من الكتّاب والفنانين الأفارقة المقيمين في فرنسا، والذين يعلنون انسجامهم التام مع البيئة الفرنسية ألتي اختاروها أو اكتشفوا مدى التناغم والتكامل بينها وبين البيئة الإفريقية وآدابها وفنونها! إنهم يردّدون بذلك، على نحو آخر قولة سنغور: «لقد اكتشفنا الزنوجة في باريس»!

ذلك كفران واضح بالذات الإفريقية وتقزيم لها، واستكانة مهينة لإرادة المستعمر بمسخها واستلابها، كأن الأفارقة ما كانوا وليس لهم أن يكونوا إلا في رحاب «الزنوجة» نظرية وليدة هجينة، برزت من رحم الاستعمار، وصنعت على عينه ونَمَتْ في أحضانه، فهو وارثها وجاني ثمارها كل حين.

ورغم المحتوى الفني والأدبي الذي يمنح أحياناً لمصطلح «الزنوجة» فإننا لا نستطيع أن نجرّده من مدلوله السياسي، الذي اعتنقته أوساط رسمية وسياسية وثقافية واسعة في القارة، وجسمته في أنشطة مبرمجة مثل «المهرجان الإفريقي للثقافات والفنون الزنجية» (قبل أن يفتح باب المشاركة فيه للدول العربية)، وفي دعوات جديدة مثل جامعة الشعوب السوداء التي نادى بها الرئيس الزائيري في السنوات الأخيرة، ومعهد الفنون السوداء الذي تعد بوركينافاسو لإنشائه.

لقد كان د. محيي الدين صابر محقاً عندما قال: إن الاستعمار (وحلفاءه) هو الذي قسم القارة إلى إفريقيا بيضاء وإفريقيا سوداء، وإلى دول جنوب ـ الصحراء ودول شمال الصحراء[1].

---

(1) المرجع نفسه، ص 18.

إنّ منطق الإسلام لا يقر التفاضل والتفاخر بالألوان. . إنه المنطق الذي تستطيع إفريقيا، والأمة الإسلامية عامة، أن تستعيد في ظله الوحدة والوئام.

هذا وقد كان للاستعمار في إفريقيا رافدان أساسيان هما حركة التنصير، وقد أسلفنا الحديث عنها، في مبحث سابق، والحركة الصهيونية ولنا عنها حديث في مبحث لاحق.

الفصل الرابع

إفريقيا بين الولاء للذات والولاء للصهيونية

لقد نظرنا من قبل في الوشائج العديدة التي تربط بين الأفارقة والعرب، باعتبار إفريقيا موطناً مشتركاً، وبما كان للعرب والأفارقة فيها من امتزاج سلالي، وتعاون وثيق في بناء الإنسان والحضارة، على هدي دين يجمع ولا يفرّق، ويعامل بني البشر بقسطاس العدل والمساواة.

لكن تلك العلائق، وقد كادت تصبح جزءاً من تاريخ منسي، لم تكن كافية، فيما يبدو، لتدفع بإفريقيا (الأنظمة) إلى موالاة العرب، ولاء لنفسها، في صراعهم منذ منتصف القرن العشرين، مع الحركة الصهيونية العاتية، فقد كان ولاء دول إفريقية كثيرة خالصاً لإسرائيل.

وحين ظهر العرب في السبعينيات على جانب من القوة بتضامنهم، وبثرواتهم، تعدل الموقف الإفريقي شيئاً ما لصالح القضايا العربية. وسعى العرب للحفاظ على ما كسبوا من «ود» الأفارقة بوسائط مختلفة في مقدمتها الإنفاق من المال الذي أوتوه، لكن هذا السعي لم يصن «التضامن العربي ـ الإفريقي» من التصدّع، فسرعان ما عادت العلاقات الإفريقية ـ الإسرائيلية إلى سابق عهدها، وانقلبت إفريقيا ضد ذاتها من جديد، وهي تنأى بعض النأي عن مناصرة القضايا العادلة لبعض أبنائها.

إن تقلّبات العلاقات الإفريقية ـ العربية، في سياقها المعاصر ذاك تقتضي منّا استكناه أثر الحكرة الصهيونية في القارة أولاً، لننظر ثانياً في مسيرة التعاون العربي ـ الإفريقي، منقبين عن أوجه الخلل فيها.

المبحث الأول

الصهيونية في إفريقيا

تشكل الصهيونية الأساس العقدي، الذي تقوم عليه دولة إسرائيل، منذ غرسها الاستعمار في قلب الوطن العربي. وتعود نشأة هذه الحركة الفكرية الشاذة إلى أواخر القرن الماضي خاصة، عندما بدأ الإعداد بشكل جدي للبحث عن «أرض الميعاد» التي تصلح وطناً قومياً يلم شتات اليهود الذين يرون أنهم «شعب الله المختار». وحسبك بهذه العبارة دليلاً على نظرة الصهاينة للآخرين، فبقية شعوب الأرض كلها شعوب منحطة، في نظرهم، وقدَر اليهود وهم الصفوة في دعواهم، أن يكونوا سادة في هذه الأرض، يخضع لهم كل من هب ودب، من الناس. ولتحقيق هذه الغاية رسمت الحركة الصهيونية منذ البدء مخططها، ووضعت القواعد والأسس التي تراها كفيلة بتحقيق مآربها في بلاد الله.

هذه «بروتوكولات حكماء صهيون» التي ظهرت عام 1902 تتحدث بصراحة:

«يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، فتسهل سيطرتنا. إنّ فرويد منّا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدّس، ويصبح همّه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه»[1].

لقد نظر فرويد إلى الإنسان نظرة بهيمية، كما نظر إليه داروين، ورد إلى الجنس جميع دوافع حركة الإنسان وسلوكه، وروجت الصهيونية لهذه الأطروحة الزائفة، لتكون سلاحاً في يدها تعطل به حصانة المجتمعات البشرية: «علينا أن نشجع الانحلال في المجتمعات غير اليهودية، فيحل

---

(1) محمد قطب / جاهلية... ص 203, 204.

الفساد ويعمّ الكفر وتضعف الروابط المتينة التي تعتبر أهم مقوّمات الشعوب فتسهل علينا السيطرة[1] (. . .)».

«لقد رتّبنا نجاح داروين وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم، وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد»[2].

ويعترف حكماء صهيون أنهم، علاوة على الحرب الأخلاقية، قد حرشوا بين الناس وشغلوهم بالتوافه ليوهنوا من قواهم:

«قد فتنّا بعضهم ببعض بالأمور الشخصية والشؤون القومية لكل منهم، وسيظل هذا الانهيار في طريقه حتى يستنزف قوى الإنسانية وتهلكها الانقسامات وتفشو فيها الكراهات والمكايدات والحسد كما تفشو المجاعات»[3].

هذه النظرة الحاقدة على الإنسان الطامحة للاستبداد، دون بقية الناس، بالنفوذ والقوة، بل وبالحياة، هي أساس من الأسس العقدية للفكر الصهيوني، وهي باقية حاضرة حضور الصهاينة تفعل فعلها في المجتمعات الإسلامية الإفريقية بالذات، خاصة من خلال الأندية والهيئات العالمية التي أسستها الصهيونية مثل الحركة الماسونية ذات المحافل المنتشرة في أرجاء القارة، وهي حركة تختفي خلف أسماء أندية وحركات كثيرة أخر مثل شهود يهوه والبهائية وبناي برت وأندية الروتاري والليونز.

وتمارس بعض هذه الأندية نشاطها بشكل علني مكشوف تحت غطاء العمل الإنساني، والمساعدات الخيرية، متصيّدة ذوي النفوذ والتأثير من علية القوم، وقد شاهدنا مسؤولين سامين، في بلاد إفريقية مسلمة، يشرفون بأنفسهم تحت أضواء وسائل الاعلام، على افتتاح الأندية الماسونية ويباركون نشاطها (وهم يجهلون الحقيقة؟).

---

(1) أنور الجندي / شبهات. . . ص 24
(2) محمد قطب، م س. . ص 204
(3) أنور الجندي، م س. . . ص 24

وتعوّض هذه الأندية غياب البعثات الرسمية الإسرائيلية في البلاد التي لا تقيم علاقات مع «إسرائيل». على أنّ «إسرائيل» الرسمية نفسها حاضرة حضوراً قوياً في القارة، فهي حاضرة باستخباراتها التي تنتشر في بلاد القارة، تحت أغطية مختلفة. وهي حاضرة حضوراً مكشوفاً ببعثاتها الدبلوماسية، وبقنوات التعاون المتعدد المجالات التي تربط بينها وبين عدد كبير من الدول الإفريقية.

لقد نسي الأفارقة - وكثير منهم يبسط يد الود «لإسرائيل» - أن الحركة الصهيونية، التي تشكل «إسرائيل» قاعدتها، هي عدوّ عتيد لإفريقيا. فقد كادت أوغندا أن تكون «أرض الميعاد»، عندما اقترحها شامبرلين سنة 1903 وطناً قومياً لليهود، وكانت أعالي كينيا أيضاً محل نظر. . . ولقد ظل هرتزل، مؤسّس الحركة الصهيونية يفكر في أنه على دولة اليهود - إذا قامت في فلسطين - أن تتوسّع في اتجاه إفريقيا، على أن تكون البداية بمصر. وفكّر هرتزل في تعويض البرتغال عن الموزمبيق لتتنازل عنها لصالح بريطانيا، على أن تتنازل بريطانيا بدورها عن العريش لإقامة الدولة الصهيونية. وكذلك فكّر هرتزل أيضاً في زائير. وأعدّت خطتان أخريان سنة 1905 لتوطين اليهود في السودان[1].

ولئن تخلّت الحركة الصهيونية عن مشاريع استيطان بعض الدول الافريقية، فإنها لم تأل جهداً في أن تغزو القارة بوسائل أخرى، وتتغلغل فيها، من دروب مختلفة. وقد كتب لها في ذلك مقدار كبير من النجاح، حتى قبل أن تتأسّس «دولة إسرائيل»، حيث التقى حلم إقامة الدولة الصهيونية وحلم تحرير الأفارقة لقاء مصطنعاً، كان له تأثير عميق في بعض الأوساط الإفريقية، رصد أ. د مدثر عبد الرحيم بعض مظاهره؛ فقد نجحت الحركة الصهيونية منذ أوائل القرن العشرين في أن تغزو وجدان الإنسان الإفريقي، وتتلبّس نوازعه إلى الحرية، وتركب له نماذج ومثلاً مستوحاة من التراث الإسرائيلي دخلت الخطاب السياسي الإفريقي، الداعي إلى التحرّر، وفعلت فعلها في نظرة الأفارقة إلى إسرائيل وإلى العرب. من ذلك أن «شاعت في

(1) Med. O. Beshir / Terramedia... P. 57

أناشيد الزنوج المتطلّعين إلى الحرية والخلاص (في القارة الأم وفي العالم الجديد) الإشارات والاستعارات الدينية المستمدة من العهد القديم، ومن قصص اليهود [بَني إسرائيل ـ البيان منا] المتصلة باستعبادهم في مصر، ثم نجاتهم بقيادة موسى إلى فلسطين ونهر الأردن». ومن ذلك أن خُلع لقب «موسى الأسود» على ماركوس جارفي Marcus Garvey الذي كان من أكبر القادة الزنوج أثناء النصف الأول من القرن العشرين ، ومن أعظمهم أثراً على الحركات التحرّرية بين الجماعات الزنجية والإفريقية في الولايات المتحدة، وجزر الهند الغربية، كما في غانا ونيجيريا وغيرهما من الأقطار الإفريقية». وكان ألبرت لوتولي Albert Luthuli القائد الزنجي الذي نال جائزة نوبل للسلام قبل نحو ثلاثين عاماً، يردد ـ عندما ألّف كتابه Let My People go (دع شعبي يذهب) ـ أصداء دعوة موسى عليه السلام لفرعون ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل. . ﴾[1] .

لقد مهّدت هذه الصور لعلاقات متينة قامت من بعد بين «إسرائيل» والدول الافريقية. وكان فيض المهاجرين اليهود من إفريقيا إلى الدولة الصهيونية منذ تأسيسها ضرباً من ضروب الإسهام (غير المقصود أحياناً) في تدعيم وجود تلك الدولة. وهو إسهام تواصل إلى عهد قريب، وكان مصدر مدد ديمغرافي غير يسير. ففي الفترة ما بين 1948 - 1960 بلغت نسبة اليهود القادمين إلى فلسطين المحتلة من إفريقيا نحو 47% من مجموع المهاجرين اليهود من مختلف أصقاع العالم في الفترة ذاتها.

وتميّزت الثمانينيات وأوائل التسعينيات باستجلاب عشرات الآلاف من الفلاشة (اليهود الحبشيين)، الذين تم ترحيلهم من الحبشة إلى أرض فلسطين، وفقاً لخطة محكمة كانت سرية في أول الأمر، ثم أصبحت علنية مكشوفة، في أكثر مراحلها كثافة («عملية سليمان» مايو 1991 م).

وقد برزت الحركة الصهيونية من رحم الاستعمار، الذي مهّد لها وطّأ ليعزّز حضورها في بلدان القارة قبل استقلالها، فكانت إسرائيل القابلة

---

(1) أ. د. مدثر عبد الرحيم في دراسات إفريقيا عدد 2 ـ شعبان 1406 / أبريل 1986 ـ ص 14. .

والحاضنة والمربية لعدد من الحكومات الإفريقية غداة «الاستقلال».

فقبل استقلال كينيا كانت إسرائيل حاضرة تدرّب لها أطرها وموظفيها، وتتابع بعناية ميلاد الدولة الجديدة وتزرع رجالها في مواقع السلطة منها ومراكز النفوذ، وقد أبرم الهستدروت معاهدة مع اتحاد العمال الكينيين قبل الاستقلال. كما شهدت إسرائيل، بالطريقة ذاتها تقريباً، ميلاد غانا سنة 1957.

وتعود العلاقة مع ليبيريا إلى عهد أقدم من ذلك، فقد صوّتت ليبيريا لصالح تقسيم فلسطين، وكانت ثالث دولة تعترف بإسرائيل، بعد أمريكا والاتحاد السوفياتي، بينما كانت غانا ثاني دولة إفريقية تعترف بإسرائيل.

وفي سنة 1958 ، استغلّت إسرائيل أفق الاستقلال المفتوح أمام الدول الافريقية فأعلنت «برنامج المساعدة الإسرائيلية لإفريقيا»، ولم يكن هذا البرنامج، في حقيقته إلّا أداة للتغلغل السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي في القارة حققت بها إسرائيل أكبر نجاح لها في ساحل العاج وبوتسوانا والغابون وغانا وداهومي (بنين) وزائير وكينيا وليسوتو ومدغشقر وملاوي ونيجيريا وسوازيلاند وأثيوبيا.

وشهدت منروفيا (ليبيريا) في 1959/4/9 م توقيع أوّل اتفاقية صداقة إسرائيلية ـ إفريقية[1] .

وفي مطلع الستينيات كان لإسرائيل 6 بعثات دبلوماسية في إفريقيا. وبعد سنة واحدة ارتفع هذا العدد إلى 23 بعثة[2].

وقبل أن تندلع حرب يونيو / حزيران 1967، كانت إسرائيل قد نجحت في إقامة علاقات دبلوماسية مع 31 دولة إفريقية، وتوقيع اتفاقيات «تعاون» مع 20 دولة[3]. وفي السنوات الموالية للحرب التي احتلّت فيها أراضي إفريقية

---

(1) انظر للمعطيات السابقة: ديمتري / سياسة إسرائيل. . . ص 34، 35، 12، 39 .
(2) حلمي شعراوي في (العرب وإفريقيا) ص 328
(3) ديمتري، م س ـ ص 42 .

وعربية لم ينخفض عدد البعثات الدبلوماسية الاسرائيلية في القارة، بل نجد هذا العدد يصل سنة 1972 إلى 23 بعثة[1]. ونجد 12 بعثة دبلوماسية إفريقية في إسرائيل في آخر سنة 1967[2] .

ونشطت حركة الوفود جيئة وذهاباً ما بين إسرائيل ودول إفريقيا، فكانت لغولدا مائير وزيرة خارجية الدولة الصهيونية آنذاك خمس جولات في إفريقيا ما بين 1958 ـ 1964 م، وأدّى عشرون من رؤساء الدول الإفريقية زيارات لإسرائيل خلال الستينيات[3].

وفي سنة 1961 م أدلى الرئيس الغابوني الذي كان في زيارة رسمية لإسرائيل بتصريح قال فيه: «إنَّ أحد الأسباب الهامة التي تجعلني أفتح أبواب بلادي لأي مبادرة إسرائيلية هو أن إسرائيل والغابون تربطهما محبة فرنسا برباط وثيق»[4]! .

وإلى غاية 1970 م كانت إسرائيل مرتبطة باتفاقيات «تعاون» مع كل من ساحل العاج وبوروندي وفولتا العليا والغابون وغامبيا وغانا وداهومي والكاميرون وكينيا وليبيريا ومدغشقر وملاوي ومالي والنيجر ورواندا وسيراليون وتنزانيا، والتوغو، وأوغندا، وإفريقيا الوسطى، وتشاد. وكان لها «تعاون» وثيق، بدون اتفاقيات مع السنغال وزائير وأثيوبيا[5] على أنّ التعاون مع أثيوبيا كان قوياً، ولم ينقطع بسقوط هيلا سيلاسي، الذي كسبت إسرائيل ودّه، ونَظَّرت ـ تاريخياً ـ للعلاقة معه باستحضار العلاقة التي ربطت سليمان عليه السلام ببلقيس ملكة سبأ التي تنسب إليها سلالة أباطرة الحبشة.

وكانت الدولة الصهيونية تعزّز نشاطها الرسمي بالنشاط الموازي للمنظمات الإسرائيلية غير الحكومية، فقد استطاعت أن تتحرّك بواسطة تلك المنظمات تحرّكاً فاعلاً، وربطت عن طريق «الهستدروت» خاصّة علاقات

---

(1) حلمي . . . م س ـ ن ص.

(2) M.O. Beshir, Idem p.61

(3) ديمتري، م س ـ ص 106 .

(4) صوت البلاد / 1 ابريل 1990 .

(5) ديمتري، م س ـ ص 55 .

وثيقة مع القادة الأفارقة ذوي الميول الاشتراكية الإصلاحية[1]. .

وهكذا بدت الطريق سالكة أمام التغلغل الإسرائيلي في إفريقيا، ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً.

أما على المستوى الثقافي فقد اهتمّت إسرائيل اهتماماً خاصاً ببرامج التدريب والتكوين، ليكون لها دور متميّز في صناعة عقول الأفارقة والتأثير بواسطة خرّيجي مدارسها على مجرى الحياة العامة في إفريقيا .

وقد أنشأت «إسرائيل» مراكز خاصة عهدت إليها باستقطاب الطلبة الأفارقة، وإعدادهم لاستلام مهام قيادية في بلادهم. وكان من هذه المراكز معهد الدراسات الأفرو- آسيوية، الذي أسّس بتل أبيب سنة 1960، ومركز الخدمات العامة الذي أسّس في حيفا سنة 1962، واختصّ في استقبال النساء الإفريقيّات[2].

وكان برنامج تدريب الطلبة الأفارقة قد بدأ قبل ذلك، كما رأينا، ومع كينيا بالذات. وفي سنة 1958، وجّه 10 طلّاب داهوميين للدراسة في إسرائيل. وبلغ عدد الطلبة والمتدرّبين الأفارقة في إسرائيل 250 شخصاً سنة 1959، وقد ازداد هذا العدد زيادة بيّنة في السنة التالية 1960، حيث أنهى 800 متدرّب، منهم نسبة كبيرة من الأفارقة دورات نظّمها لهم الهستدروت. وفي السنة ذاتها أعلنت غولدا مائير برنامج الألف منحة لطلاب آسيا وإفريقيا، وفي سنة 1965 كان عدد الطلاب والدارسين الأفارقة في إسرائيل قد بلغ 1200 شخص[3].

وفي تقرير قدمه رئيس الوزراء الصهيوني أشكول إلى البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) سنة 1966، نجد أن 6,300 إفريقي قد أنهوا تدريبهم في «إسرائيل»، بينما كان 300 إفريقي يواصلون دراستهم في العام ذاته.

---

(1) ن م، ص 34، ص 35 .

(2) M.O. Beshir, Idem, P 63

(3) ديمتري، م س - ص 34، ص 43 .

وفي الفترة ما بين 1958 ـ 1969 م استقبلت «إسرائيل» 13025 متدرّباً من بلاد نامية، كان من بينهم 6272 إفريقي[1].

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء بل إنّ إسرائيل كانت تدرّب بعض الأمريكيين الموجّهين للعمل في إفريقيا، ففي أواسط الستينيات، تابع بعض أعضاء «فيلق السلام» الأمريكي دورة دراسية لتعلم اللغة الفرنسية، نظمتها إسرائيل بمركز الإعداد التقني في ناتانيا، وذلك قبيل سفرهم إلى ساحل العاج للعمل هناك[2].

وحرصت إسرائيل على أن ترعى بذرتها تلك فعملت على إقامة هيئات ينتظم فيها شمل الطلبة والمتدرّبين الأفارقة الذين درسوا في إسرائيل، وما يسمّى بأندية «شالوم». وكانت السفارات الإسرائيلية ترعى هذه الهيئات والأندية وتوجهها بانتظام. وقد أسّس أول ناد من أندية «شالوم» في جمهورية إفريقيا الوسطى سنة 1962م، وكان للنادي الكيني فروع داخل البلاد[3]. وتأسست في كينيا الحركة الإسرائيلية الكينية لتدريب الشباب، وكان من قادتها عسكريون تلقّوا تكوينهم في «إسرائيل»[4].

واهتمت إسرائيل اهتماماً خاصاً بتعليم العبرية في إفريقيا بحجة «الفهم المتبادل للثقافات والعادات»، ونظّمت دورات دراسية لتعليمها في بعض البلدان الإفريقية مثل نيجيريا[5].

وكان هذا النوع من الدورات، خارج إسرائيل، حلقة في برنامج يقضي بتكثيف الحضور البشري الصهيوني في إفريقيا، عن طريق جيش من الخبراء والمدرّسين ورجال الأعمال... إلخ.

وكان هذا الحضور قوياً، لأوّل عهد الدول الإفريقية بالاستقلال، ففي

---

(1) M.O. Beshir, Idem, P 62

(2) ديمتري، م س ـ ص 117 .

(3) ن م ـ ص 102

(4) M.O. Beshir, Idem, p 66

(5) ديمتري، م س ـ ص 101

سنة 1960، كان لإسرائيل عدد هام من الخبراء في عدد من الدول الإفريقية نذكر منها على سبيل المثال :

- سيراليون: 20 خبيراً.
- ليبيريا: 50 خبيراً.
- غانا: 100 خبير.
- نيجيريا: 100 خبير.
- أثيوبيا: 150 خبيراً.

وفي سنة 1963 صرّح سفير غانا بإسرائيل بأنّ عدد الخبراء الإسرائيليين في بلده يفوق عدد خبراء أي دولة أخرى. وفي سنة 1965 بلغ عدد الخبراء الإسرائيليين العاملين في دول إفريقيا الاستوائية 600 شخص، عدا المستخدمين في المؤسسات المشتركة.

وقد انتدبت إسرائيل 3476 خبيراً للعمل في الخارج، وذلك في الفترة ما بين 1958 - 1966. ووُجّه أكثر من ثلثي هؤلاء (2485) إلى إفريقيا للعمل في ميادين مختلفة كالزراعة والتربية والادارة والري والمياه وتخطيط المدن والسياحة[1].

وارتفع مجموع الإسرائيليين المبعوثين إلى إفريقيا حتى وصل 20,000 شخص سنة 1971 م.

ولم تكن الخبرة البشرية الاسرائيلية تدخل القارة بقنوات الدولة الصهيونية وحدها، بل تسرّبت عبر قنوات أخرى بما فيها الأمم المتحدة، فقد بعثت هذه المنظمة في سنة 1969 وحدها (بعيد حرب 1967) 91 خبيراً إسرائيلياً للعمل في إفريقيا[2].

ولم يكن «التعاون الثقافي» بين إسرائيل والدول الإفريقية تعاوناً عشوائياً، بل كان تعاوناً مؤسسياً محكوماً باتفاقات تكسوه صبغة إلزامية. وقد

---

(1) M.O. Beshir, Idem, p 63

(2) ديمتري، م س - ص 40، 44، 60، 61.

بلغ مجموع عدد الاتفاقيات الثقافية الاسرائيلية ـ الإفريقية لغاية 1964 نحو 60 اتفاقية، فتحت بها أبواب إفريقيا أمام «الخبرة» البشرية الإسرائيلية، فكان من الصهاينة أساتذة، بل وعمداء كلّيات، مثل كليات العلوم والهندسة والآداب في أديس أبابا، وكلية الهندسة بجامعة غانا وكلية العلوم الطبيعية بليبريا، وكان منهم خبراء ومديرون في مؤسسات الإعلام، مثل محطة الإذاعة والتلفزيون في ساحل العاج.

وبلغ التغلغل الإسرائيلي مداه، مغالطة وتأثيراً، بوقوع بعض المسلمين في فخ الدعاية الصهيونية، ففي سنة 1962 زار «إسرائيل» زعيمان مسلمان من سيراليون، وقابلا بعض المسؤولين وبحثا إمكان إرسال طلبة من سيراليون لدراسة العربية في «إسرائيل»[1]. . !

ويبدو أن الواقعة تكرّرت على نحو آخر في الثمانينيات عندما طرقت جمعيات سيراليونية مسلمة أبواب العديد من الهيئات العربية الإسلامية طلباً للمساعدة في تعليم اللغة العربية في سيراليون، فإذا بإسرائيل تعلن استعدادها لأداء المهمة، على تصامم أو تلكؤ من الجهات العربية ـ الإسلامية، إلّا أنّ الجمعيات السيراليونية لم تقع في الفخ هذه المرة. .

وفي سنة 1969 زار الأرض المحتلة أحد زعماء الاتحاد الوطني للجمعيات الثقافية الإسلامية بالسنغال، وأجرى مقابلة مع صحيفة صهيونية قال فيها: «إنّ من أسباب زيارتي لإسرائيل التأكّد من صحة الاتهامات الموجّهة ضدها، لأنّ الصحف العربية التي تأتينا في السنغال تصوغ أخطر التهم ضدّها». وقال إنه زار مدينة القنيطرة ومرتفعات الجولان السورية وادّعى أنّ سكان تلك المناطق «الذين استطعت أن أتحدّث إليهم يتمنّون العيش بسلام مع الإسرائيليين». وقد أصابت الأمانة العامة للاتحاد عندما نشرت بياناً تعلن فيه براءتها من تصريحات هذا الرجل، ـ وتفنّد مزاعمه[2] .

---

(1) حلمي شعراوي م س ـ ص 531 .

(2) عبد القادر سيلا / المسلمون في السنغال ـ ص 170 .

وقد حاولت إسرائيل استمالة بعض الجماعات الإسلامية في نيجيريا، وحدث أن زارها وفد من حركة إسلامية نيجيرية سنة 1965، لكن تلك المساعي لم تثمر، فقد وقف المسلمون النيجيريون وحكوماتهم الاقليمية بحزم في وجه التعاون مع إسرائيل. فعندما وقّع وزير مالية الحكومة الاتحادية النيجيرية اتفاقية مع إسرائيل في يونيو / حزيران 1960م، انتقده برلمان الشمال المسلم ورئيس وزراء ولاية الشمال، وطالبا الحكومة الاتحادية بعدم قبول أي قروض من إسرائيل، ولذلك وجّهت إسرائيل مساعداتها إلى المناطق الشرقية والغربية التي يقل فيها عدد المسلمين[1].

وإذا كان النشاط الثقافي الإسرائيلي قد ارتكز على محاولة غزو عقول الأفارقة وتكوين مجموعات ضغط ومراكز نفوذ تابعة لإسرائيل في إفريقيا، فإنّ النشاط الاقتصادي قد جاء ليعزز هذا المسعى بشراء الذمم وتشكيل «مصالح مادية مشتركة» تضمن بها إسرائيل حضورها السياسي في إفريقيا، فضلاً عما تكسبه من أرباح طائلة باستغلال خيرات القارة وتصريف المنتجات الإسرائيلية فيها، وتغطية نشاط رجال الاستخبارات الاسرائيلية المنبثين في أرجاء القارة.

وتعود جذور النشاط التجاري الاسرائيلي في القارة إلى عهد الاستعمار، إلاّ أنه شهد أخصب فتراته، بعد استقلال الدول الإفريقية. وكانت ليبيريا، وهي أقدم الدول الافريقية استقلالاً، سباقة إلى ما يرضي «إسرائيل» فبعد أن بادرت إلى الاعتراف بها سنة 1948م، نجدها تحتضن، منذ 1956 شركة إسرائيلية للإنشاءات تعمل تحت اسم: Liberian construction corporation وكانت الشركة الإسرائيلية ـ الغانية المشتركة للبواخر، وشركة بلاك ستار (النجمة السوداء) Black Star Line توأماً لدولة غانا المستقلّة (1957). ونشطت إسرائيل في تأسيس عدد كبير من الشركات المختلطة مع البلاد الإفريقية، فكان منها شركة البناء الوطنية في غانا The Ghana National Construction Company (1958)، وشركة البناء في شرق نيجيريا The Eastern Nigerian Construction وشركة التموين النيجيرية The

---

(1) M.O. Beshir, Idem, P 71

والشركة الوطنية للبناء في سيراليون The furniture company of Nigeria National construction company ولم تنصرم سنة1963 حتى كانت إسرائيل قد أقامت 43 شركة مشتركة مع بلدان إفريقيا[1].

وكان يعمل في تلك الشركات أكثر من 350 فنياً ومهندساً إسرائيلياً، بينما نشطت 100 شركة إسرائيلية في ضروب التجارة مع إفريقيا السوداء.

وقد بلغت أرباح إسرائيل من الشركات المختلطة وحدها 72 مليون دولار أمريكي سنة 1969 م.

واستفادت إسرائيل كثيراً من هذه العلاقة، فقد وفّرت لها إفريقيا احتياجاتها من اللحوم والأسماك والحبوب وبذور الأعشاب والأخشاب الثمينة. وكانت إفريقيا، بدورها، سوقاً لترويج السلع والبضائع الاسرائيلية، ففي ساحل العاج، مثلاً، كانت اسرائيل تشغل المرتبة الثانية في السوق، بعد فرنسا، وبدت ساحل العاج وكأنها واجهة زجاجية لعرض السلع الإسرائيلية في القارة.

وقد عرضت 35 شركة إسرائيلية بضاعتها في معرض كنشاسا الدولي الثالث سنة 1973، وشاركت 58 مؤسسة صناعية إسرائيلية في المعرض الدولي الثاني في غانا سنة 1971 م.

وفي سنة 1972 بلغ حجم تجارة إسرائيل مع إفريقيا 78,2 مليون دولار أمريكي. وكانت الصادرات الإسرائيلية، ما بين 1966 و1972، تتزايد سنوياً بنسبة 20%[2]، وفيما بين 1973 ـ 1978 استثمرت الشركات الإسرائيلية نحو 800 مليون دولار في نحو 20 دولة إفريقية منها زائير وكينيا وساحل العاج وتوغو ونيجيريا[3].

---

(1) Idem, P 63, 64

(2) ديمتري، م س ، ص 34، 35، 90، 91 .

(3) حلمي شعراوي، م س ـ ص 342 .

لكن المجال الأهم لنشاط إسرائيل في القارة كان تجارة الماس ونهبه بأي طريقة، لإعادة بيعه في أسواق الصياغة العالمية. وقد حصلت إسرائيل من تجارة الماس الإفريقي على 215,9 مليون دولار أمريكي سنة 1969 م، و395 مليون دولار سنة 1962 م، وهو ما يعادل ثلث قيمة الصادرات الاجمالية لإسرائيل.

والملاحظ أن القطيعة الدبلوماسية بين جل دول إفريقيا وإسرائيل بعد حرب رمضان / أكتوبر 1973 لم ترافقها قطيعة اقتصادية، بل إن النشاط التجاري الاسرائيلي في القارة قد تضاعف بعد 1973، فكان فيه عوض كاف عن التعاون السياسي الذي لم يحفظه في صيغة علاقات دبلوماسية إلاّ سوازيلاند وملاوي ولوسوتو، وهي البلدان الواقعة تحت التأثير المباشر لجنوب إفريقيا.

وعلى ما للنشاط الثقافي والاقتصادي الصهيوني في القارة من أثر كبير، فإنّ «التعاون» العسكري يظل أكثر أوجه العلاقات إفصاحاً عن نية إسرائيل وفضحاً لمطامعها في إفريقيا وقد واكب هذا التعاون استقلال الدول الافريقية، حيث كانت لإسرائيل فيما بين 1961 ـ 1963 اتفاقيات أمنية وعسكرية مع كل من أثيوبيا وأوغندا وزائير وكينيا وروندا وإفريقيا الوسطى والتشاد[1].

ودرّبت إسرائيل مجموعة من قطع جيوش زائير وأوغندا وتنزانيا وأثيوبيا. وتلقى أول الطيارين العسكريين الكينيين تدريبهم في إسرائيل، قبل استقلال كينيا. وأنشئت أول كلية بحرية في غانا بعيد استقلالها، بمساعدة إسرائيلية. ونصت اتفاقية انشاء الكلية على أن يكون المدرّسون فيها إسرائيليين. وكان مدير الكلية نفسه إسرائيلياً.

وقد تطوّرت، بشكل منتظم، أعداد العسكريين الأفارقة الذين يتلقون تدريبهم في إسرائيل. ففي سنة 1963 درّبت إسرائيل 250 مظلياً زائيرياً، وإلى غاية 1966 كانت إسرائيل قد درّبت 1000 عسكري زائيري بينهم 40 امرأة،

---

(1) ن. م ـ ص 329 .

منهم فرق كوماندوس زائير الأول. وبلغ عدد العسكريين التانـزانيين الذين تدرّبوا في إسرائيل 500 شخص لغاية 1964.

وفي سنة 1970 ارتفع عـدد الأفارقة الذين تـدرّبوا في المعسكـرات الحربية الاسرائيلية إلى نحو8000 من الجنود والضباط.

وكان لإسرائيل في إفريقيا سنة 1982 نحو4000 جندي، منهم300 في زائيـر و2000 في نيجيريا وحدها. وحين أعادت زائير سنة1982 عـلاقاتهـا الدبلوماسية مع إسرائيل بادر رئيس الوزراء الصهيوني إسحاق شامير بزيارة كينشاسا في نوفمبر من السنة ذاتها، على رأس وفد كبير يضم 84 خبيراً لتوقيع معاهدة صداقة واتفاق عسكري لتطوير الجيش الزائيري[1].

وقبل حرب 1967 م كانت 20 دولة إفريقية تتلقى مساعدات عسكرية إسرائيلية. وبلغت المعاهدات العسكرية الإسرائيلية ـ الافريقية، المبرمة لغاية 1971 «12 معاهدة»، كانت الأطراف الافريقية فيها ساحل العاج وفولتا العليا (بوركينافاسو) وغانا وداهـومي (بنين) وزائير وكينيـا وتنزانيـا وتوغـو وأوغندا وإفريقيا الوسطى وتشاد وأثيوبيا[2].

وكان لإسرائيل تأثير قوي في الجيش وقوى الأمن، بأوغنـدا، بل إن عيدي أمين كان من حوارييها، إذ تلقّى تدريبه العسكري فيها. وقد أثر عنه قوله ـ وهو آنذاك قائد عام للجيش الأوغندي ـ في حفل أقيم في كمبالا ترحيباً بعسكريين إسرائيليين: «إنه ليسرنا أعظم سرور أن يشرف على تدريب قواتنا رجال يستطيعون أن يعلّمونا كيف نكسب الحرب في ستة أيام»[3].

وقد استلم عيدي أمين السلطة بانقلاب عسكـري، وحرص على أن يحل «بإسرائيل» في أول سفر له خـارج إفريقيـا، وكان محـاطاً بنحـو500 عسكري إسرائيلي قبل أن يخلع ربقة الطاعة فجأة، ويقرر، عام 1972، طرد الخبراء العسكريين الصهاينة والبريطانيين، ويسلك مسلكاً جديداً حميداً في

---

(1) ن. م ـ ص 345.

(2) ديمتري، م س ـ ص 24، 38، 68، 71.

(3) مدثر عبد الرحيم في (دراسات إفريقية ـ م س ـ ص 19).

سيرته السياسية. وقد جاءت عملية «عين تيبه» التي نفّذها الجيش الاسرائيلي سنة 1976 منتهكاً سيادة أوغندا وحرمتها الاقليمية انتقاماً واضحاً من السياسة الجديدة للرئيس الأوغندي الذي لم يكتب له البقاء طويلاً من بعد، في قيادة الدولة.

ورغم فترة القطيعة الدبلوماسية التي تلت حرب رمضان ـ أكتوبر 1973م، فإن العلاقات بين إسرائيل والدول الافريقية تواصلت في المجالات الاقتصادية والعسكرية وغيرها. واستطاعت إسرائيل أن تجد أغطية مختلفة لمواصلة حضورها في القارة، لدرجة أنها استغلّت غطاء الأمم المتحدة، فتحت مظلة مكتب برنامج الامم المتحدة للبيئة، واصلت السفارة الإسرائيلية عملها في كينيا[1].

وظل النشاط الاقتصادي جسراً وثيقاً يربط الطرفين، ففي ساحل العاج بسطت شركة سوليل بونه Solel Boneh الاسرائيلية سلطانها، ودخلت مجال المقاولات بشكل واسع، فكان من إنجازاتها بناء العمارة الهرمية والكاتدرائية الكبيرة في أبيدجان، والفندق President التابع لمؤسسة هوفويت بونييه، في ياموسكرو، وعهد الرئيس العاجي إلى الخبراء الإسرائيليين بإدارة أعمال مؤسساته في هذه المدينة[2].

وكان لإسرائيل في أثيوبيا عدد من الشركات منها شركة «أنكودا» لتعليب اللحوم، وشركة «أتاجين» الزراعية وشركة «هارون إخوان» للاستيراد والتصدير[3]. وتمركزت منذ سنة 1981 م في الكاميرون شركة رينولد Reynolds الإسرائيلية للأشغال العامة[4].

لقد حفظ هذا النشاط لإسرائيل حضورها، ومهّد لعودة العلاقات الدبلوماسية، بعد سنوات معدودة من القطيعة. وكان أول العائدين إلى

---

(1) Jeune Afrique, 8 Mai 1985.

(2) Idem

(3) صوت البلاد، م س.

(4) Le matin (France) du 26/8/1986

أحضان إسرائيل دبلوماسياً الجنرال موبوتو سيسي سيكو الذي قرر في 1982/5/14 إعادة العلاقات مع الدولة الصهيونية، متذرعاً بقوله: «إذا لم تجد مصر، وهي أكبر دولة عربية تأثرت بالاحتلال الإسرائيلي لأراضيها مانعاً في عقد معاهدة صلح وإقامة علاقات دبلوماسية وطبيعية مع إسرائيل، فما الذي يمنعنا نحن الإفريقيين من إعادة علاقاتنا مع إسرائيل إلى سابق عهدها؟». وحثت ليبيريا خطاها على أثر زائير، فقررت إعادة العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل في 1983/8/13، وتبعتهما ساحل العاج في 1985/12/18، حيث تحدث هوفوت بونييه بمنطق مشابه لمنطق موبوتو، ثم جاء دور الكاميرون فالتوغو، وتتالت الاعترافات وإعادة العلاقات بين الدول الافريقية وإسرائيل تكفيراً عن سنوات قليلة من قطيعة غير قاطعة.

وكان الرئيس العاجي شديد الميل لإسرائيل لدرجة أنه رفض مساعدة عربية بمبلغ 100 مليون دولار لتمويل مشروع تنموي في بلاده، لما طلب منه الأمين العام لجامعة الدول العربية ورئيس المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في إفريقيا ألّا يصرف هذه المساعدة إلى شركات إسرائيلية، فاعتبر ذلك مسّاً بالكرامة. وأعلن من بعد أنه يرفض المال العربي وسيتوجّه إلى البنك الدولي، ولكن لا البنك الدولي ولا غيره بادر بإسعافه بمطلبه إذ إن الأطراف الأخرى لا توفّر الشروط الميسّرة التي توفرها مصادر القروض العربية (فائدة من 4% فقط، و 25 سنة استرداد في الحالة المذكورة).

وقد اتّكأ الزعماء الأفارقة أمنياً على إسرائيل خلال اجتياحها الدبلوماسي الثاني للقارة، فكان كثير منهم يلجأ إليها عندما يتعرّض نظامه لمحاولة انقلاب، حتى تحصنه ضد خصومه. وهكذا فعل الرئيس الكاميروني بول بيا بعدما تعرّض في 6 أبريل 1984 لمحاولة انقلاب دبّرها الشماليون المسلمون بقيادة العقيد صالح إبراهيم. فقد مهّد لعودة العلاقات أولاً بالاتصال مع رجل الأعمال الإسرائيلي مير ميوهاس Meir Meyouhass الذي كان قد اعتقل في مصر سنة 1953 لنشاطاته الاستخبارية وأطلق سراحه سنة 1967 في إطار تبادل أسرى بين مصر وإسرائيل. ثم دعا الرئيس الكاميروني خبراء عسكريين إسرائيليين لتأطير حرسه الخاص. كذلك عهد موبوتو، رئيس

زائير إلى إسرائيل، بعد إعادة علاقاته معها، بإعادة تكوين فيلق الأمن الرئاسي، الذي كانت حرب شابا قد أنهكته[1].

أما هوفوت بونييه، رئيس ساحل العاج، فقد كوّنت له إسرائيل حرساً غير مرئي، يسهر على أمنه دون أن يلفت انتباه الناس[2].

وفي أثيوبيا أخذ التعاون العسكري والأمني طابعاً أوسع، فقد تسرّبت أخبار عن ترخيص أثيوبيا لإسرائيل بإقامة قاعدة عسكرية في جزيرة «دهلك» 1990م وفي مارس من السنة ذاتها تلقّت أثيوبيا شحنة كبيرة من المعدات العسكرية الإسرائيلية يرافقها 134 خبيراً عسكرياً ومدنياً. ولم تكن إلاّ جزءاً من صفقة ترحيل اليهود الفلاشا فيما عرف أولاً بعملية «موسى» وأخيراً بعملية «سليمان».

وفي مدينة «دقي امحري» أقامت إسرائيل مدرسة عسكرية لتدريب الجنود الأثيوبيين على حرب العصابات، كما أقامت محطة للتجسس تعرف بمحطة «كانيو» على مقربة من العاصمة الأريترية (أسمرة)، وكان يعمل فيها نحو 1500 عسكري إسرائيلي وأثيوبي يقيمون مع عائلاتهم بجوار المحطة.

وقد شارك 300 خبير إسرائيلي في تدريب قوات أثيوبيا، وفي تدريب المتمرّدين الجنوبيين السودانيين بزعامة جون قرنق[3].

ومن غرائب نجاحات إسرائيل تلك ما تناقلته وسائل الاعلام في فبراير 1992 من استدعاء الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا خبراء عسكريين إسرائيليين إلى أريتريا!

وفي فترة العودة الثانية لإسرائيل ظهر عدد من القادة الأفارقة محاطين بمستشارين إسرائيليين، فقد استطاع اليهودي اللبناني إسحق بوليتيس Isaac Politis أن يندس في الماسونيين، الذين يحيطون بالرئيس الغابوني. وكان

---

(1) Idem

(2) Jeune Afrique, idem

(3) صوت البلاد، م س

الرئيس السنغالي يصغي كثيراً إلى المستشار الإسرائيلي دافيد ليبون David Libon [1]. وقد استعان الرئيس الملاوي الدكتور بندا بالخبيرين الإسرائيليين «غاندا» و«ناهال» اللذين نظّما لفائدته «حركة الشباب» وأسديا نصائحهما فيما يتعلّق بتعذيب المعارضين السياسيين وقتلهم، وكانت صلة بندا وثيقة بالنظام العنصري في جنوب إفريقيا.

وعموماً، فإن سنوات القطيعة الدبلوماسية لم تطل، وربما لم تحصل، فمنذ سنة 1975 تحفظت أثيوبيا وغانا وزائير وسيراليون وساحل العاج على قرار عرض على قمة كمبالا الإفريقية (آب / اغسطس) لإدانة إسرائيل بسبب عنصريتها واحتلالها للأراضي العربية (وانظر جدول التعاون البشري خلال فترة القطيعة في الصفحة التالية) .

* * *

لقد بنت إسرائيل «تعاونها» مع الدول الافريقية على مغالطات كبيرة. . وكان هذا «التعاون» نفسه مغالطة كبرى، تربح فيها إسرائيل بقدر ما تخسر إفريقيا.

فقد قامت الدعاية الصهيونية على تصوير إسرائيل بلداً منتمياً لمجموعة الدول النامية مؤمناً بوحدة المصالح بينه وبين دول إفريقيا، مناصراً لقضايا التحرر في القارة، متمتعاً بتجربة نموذجية في نظامه الاقتصادي الوسطي وفي مبادراته لإعمار الصحراء وأنّ إسرائيل بذلك كله قادرة على الأخذ بيد الدول الإفريقية وتوجيهها الوجهة الصحيحة وحل ما تعانيه من مشاكل التخلّف.

وبالمقابل قدّمت الدعاية الصهيونية العرب على أنهم تجار عبيد وأصحاب إمبريالية نفطية.

وببراءة (؟) تشبه السذاجة تقبل أفارقة كثر مغالطات الدعاية الصهيونية

Jeune Afrique, idem

جـــدول التعاون الإسرائيلي ـ الإفريقي
في مجال التدريب والخبرة خلال
سنوات القطيعة (1973 ـ 1984 م)

الـــدول	متدربون		خبراء	إسرائيليون
	تدريبات في إسرائيل	أفارقة: تدريبات في إفريقيا	مهمات قصيرة	مهمات طويلة
بنين	25	—	1	5
بوتسوانا	2	—	2	—
بوركينافاسو	86	65	3	2
بوروندي	3	—	—	—
الكاميرون	14	—	5	—
ج. ا. الوسطى	26	—	1	18
ساحل العاج	50	50	28	31
أثيوبيا	68	147	19	19
الغابون	7	26	3	2
غامبيا	5	—	1	—
غانا	214	162	18	2
غينيا	1	—	—	—
كينيا	466	171	53	22
لسوتو	198	236	39	31
ليبيريا	42	20	7	3
مـلاوي	100	137	46	48
موريشيوس	69	—	4	1
النيجر	—	—	—	4
نيجيريا	178	20	7	—
أوغندا	16	—	—	—
رونـدا	11	—	—	4
السنغال	9	—	2	3
سيراليون	75	20	2	1
سوازيلاند	174	156	40	26
تنزانيا	11	—	1	—
تشـاد	1	—	—	—
التوغـو	97	—	4	2
زامبيا	18	—	4	9
زائير	114	86	16	4
زمبابوي	25	—	2	—
المجمـوع	2105	1296	314	237
	3401		551	

المصدر : In ISRAEL et L'Áfrique/ Guy Dévernois Défense Nationale (Juillet 1987).

وأساطيرها كما لو كانت حقائق مسلّمة. ووجد الصهاينة، حتى وهم يضربون بور سعيد عام 1956 ويحتلّون جزءاً من الأرض الإفريقية (سيناء) عام 1967 من يصغي إليهم وهم يردّدون في إفريقيا عبارة لهرتزل تعد بتحرير الأفارقة بعد حل مشكلة «التفرقة ضد اليهود».

ولسنا بحاجة، في الواقع، لإقامة الحجة على بطلان الدعاية الصهيونية، بما قامت عليه دولة إسرائيل من الظلم والاحتلال، وبعدوانها على دول عربية إفريقية (مصر، تونس ـ حمام الشط).. بل إن برنامج «المساعدة» الإسرائيلية لإفريقيا يفضح نفسه بنفسه، ونشاط إسرائيل في القارة السمراء يشكّل في مجموعه وثيقة إدانة فاضحة لمطامعها المشبوهة.

لقد اتضح لنا من قبل أن النشاط الاقتصادي الاسرائيلي في القارة، ليس «تعاوناً» بما يقتضيه التعاون من الأخذ والعطاء والتبادل المتكافىء.. بل هو بدرجة كبيرة غطاء للنشاط السياسي والاستخباري الصهيوني في المنطقة، لذلك كان في استمراره خلال سنوات القطيعة الدبلوماسية مع إسرائيل ما يعوّض البعثات الدبلوماسية التي قد تكون أهون أدوات العمل الصهيوني في القارة وأقلّها تأثيراً..

ومن الناحية المادية الصرف يقوم النشاط الإسرائيلي في القارة على محاولة ذكية لاستغلال موارد إفريقيا وجعلها سوقاً مفتوحة لترويج السلع والبضائع الإسرائيلية، وإعادة تصديرها أحياناً حتى إلى بعض البلدان العربية.

وقد رأينا كم هي طائلة الأرباح التي جنتها إسرائيل من هذه التجارة. وأكيد أن هذه الأرباح كانت في الغالب خسارة صافية في حساب الطرف الآخر (إفريقيا)، خاصة وأن التجارة الإسرائيلية في القارة تقوم على التهريب وعلى التهرّب من الضرائب.

ففي سنة 1971 اضطرّت جمهورية إفريقيا الوسطى إلى طرد الشركة الإسرائيلية «سوبيا كاد» المتخصصة في استخراج الماس لممارستها التهريب

غير المشروع للمادة ولتهرّبها في الوقت ذاته من الضرائب[1].

وبعد الإطاحة ببوكاسا وجد الحكام الجدد أنّ مستشاره الإسرائيلي الجنرال سومائيل قونن الملقب «قوروديش» لم يكن يدفع الضرائب الكبيرة المترتبة عليه لخزينة الدولة، ممّا اضطرهم لوضعه رهن الإقامة الجبرية شهوراً، لكن مناحيم بيغن كافأه بترشيحه ـ وقد فاز ـ لعضوية مجلس شمال تل أبيب[2].

وفي يناير 1990 ، أعلنت الشرطة في سراليون عن اعتقال بعض الإسرائيليين بتهمة تتعلق بتخريب اقتصاد البلاد، فقد ضبطت شحنة من الماس تبلغ قيمتها نحو 5 ملايين دولار أمريكي، حاول رجلا الأعمال الإسرائيليان نيرجواز ويومي نويل تهريبها[3].

وحين ألقت السلطات التونسية القبض على عصابة مختصة في تهريب العملات والذهب، يديرها بعض اليهود كان إعراب السلطات الإسرائيلية عن «قلقها» من الحادث، فضحاً بيناً ـ من حيث لا تدري ـ للتغطية الرسمية التي توفرها إسرائيل لعصابات التهريب.. وهو أمر لا يحتاج لإقامة البراهين بعد افتضاح الدور الإسرائيلي في إقامة شبكات التهريب العالمية والإتجار بالمخدرات لا في إفريقيا فحسب، بل في العالم أجمع، وفي أمريكا اللاتينية بالذات حيث تقوم إمبراطورية المخدرات العظمى على كواهل اليهود الصهاينة.

ولا ينحصر النشاط التخريبي الإسرائيلي في إفريقيا في المجال الاقتصادي وحده، بل إنّ «إسرائيل» كانت حاضرة في الفتن التي شهدتها القارة ، تحث على الحرب وتؤجّج نارها وتشيع فيها أسباب الفوضى والدمار ، وتحيك المؤامرات للإطاحة بالقادة الذين يشقون عليها عصا الطاعة .

---

(1) ديمتري، م س ـ ص 96 .

(2) أوراق (إماراتية) ـ عدد 23 ـ في 1985/8/20

(3) الصباح (تونسية) في 17 جمادى 2 ـ 1410 هـ 1990/1/14 م .

ففي حرب بيافرا (1970 - 1967) ألقت إسرائيل بثقلها إلى جانب أوجوكو والانفصاليين، حرصاً منها على تمزيق وحدة نيجيريا، فأمدّت الانفصاليين بمدربين عسكريين وزودتهم بالمدفعية والصواريخ ومنحتهم 250 ألف جنيه استرليني «مساعدة إنسانية». . .

ومن قبل أعدّت إسرائيل لاغتيال الزعيمين النيجريين المسلمين أبو بكر تيفاوه وأحمد بللو، اللذين انتهجا سياسة معادية للاستعمار والصهيونية.

وشاركت إسرائيل في المؤامرة التي أودت بحياة باتريس لومومبا في الكونغو. وكانت فرقة المظليين يومذاك تحت إمرة ضباط إسرائيليين.

ورغم كلّ التنازلات التي قدّمتها غانا منذ استقلالها، لإسرائيل، فإنّ ذلك لم يكف الزعيم الغاني كوامي نكروما شر غضب إسرائيل التي شاركت في الإطاحة بنظام حكمه.

وكانت إسرائيل ضالعة في المؤامرة الفاشلة التي استهدفت سنة 1973 نظام الرئيس الغيني السابق أحمد سيكوتوري.

وحاولت إسرائيل جهدها أن تعطل حركة تصفية الاستعمار من القارة، بدعمها للسلطات البرتغالية في حربها على حركات التحرر الإفريقية في أنغولا وموزمبيق وغينيا بيساو. وقد غنم الثوار الأفارقة في معاركهم ضد البرتغاليين بعض رشاشات «عوزي» الإسرائيلية. وأعلنت الحركة الشعبية لتحرير أنغولا سنة 1972 أنّها قتلت أربعة مستشارين إسرائيليين في إحدى معاركها ضد القوات البرتغالية. ووفاء بدين إسرائيل هذا قبلت البرتغال أن تكون محطة للجسر الجوي العسكري الذي أقامته أمريكا لنجدة إسرائيل في وجه الزحف العربي الظافر خلال حرب رمضان / اكتوبر 1973 م [1].

ولم تخف إسرائيل تورطها في إيقاد نار الحرب بين أثيوبيا والصومال، وبين الحكومة الأثيوبية والثوار الأريتريين، فقد صرّح موشي دايان في 6 فبراير 1978م بأنّ بلاده تمد أثيوبيا بالسلاح في حربها تلك، متذرعاً بأنّ أثيوبيا هي

---

(1) ديمتري، م س - ص 79، 80، 138، 139.

الدولة غير العربية الوحيدة المطلة على البحر الأحمر[1]. وقد سعت إسرائيل مع أثيوبيا خلال السنوات الأخيرة لإقامة سدود على بعض روافد النيل الأزرق للتأثير على منسوب مياه النيل، في اتجاه السودان ومصر. .

وقد كشفت بعض التقارير عن تورط الأيادي الخفية لإسرائيل في إيقاد الفتنة التي شهدها رمضان / ابريل 1989م بين السنغال وموريتانيا. ولم تكن جهات استعمارية غربية بعيدة عن هذا الصراع الذي أودى بأرواح أعداد كبيرة من المدنيين في البلدين. لكن مظهر الأحداث في السنغال كان مريباً على نحو خاص، فقد بدأت فيه الأحداث مع بداية العشر الأواخر من شهر رمضان (لاحظ التوقيت) بنهب جميع ممتلكات العرب الموريتانيين، الذين كانوا يسيطرون على تجارة المفرّق في البلاد، وكانوا في الوقت ذاته دعاة ينشرون الإسلام وثقافته أينما حلّوا. ثم اختير يوم الجمعة الموافق 27 من الشهر ليكون يوم المجزرة البشرية الكبرى. ولم تمضِ أيام حتى كان مئات الآلاف من الموريتانيين قد جرّدوا من جميع ممتلكاتهم. وقتلٍ كثير منهم، وحشروا في بعض المساجد والسفارات ومراكز الشرطة استعداداً لواحدة من أكبر عمليات الترحيل في التاريخ المعاصر. والغريب أنّ هؤلاء الأبرياء لم يجدوا مأمناً لدى أي من الأسر الدينية العريقة التي تزخر بها السنغال باستثناء آل الشيخ إبراهيم أنياس، الذين حوّلوا حاضرتهم إلى ملاذ لآلاف الموريتانيين قبل أن يؤمّن نقلهم إلى بلادهم. وكان خطاب الحاج عبدالله بن الشيخ إبراهيم في جموع اللاجئين قبل ترحيلهم إلى بلادهم نغمة نشازاً في السنغال آنذاك، إذ هو نغمة عرفان وود في وقت ساد فيه النكران والحقد. قال الحاج عبدالله للموريتانيين ضمن ما قال: «نحن وأنتم. . شعب واحد. . والروابط التاريخية بين موريتانيا والسنغال تشهد على ذلك، وكنتم نعم الجار، وكنتم تعاملوننا معاملة حسنة، والطيّبون منا يعاملونكم معاملة حسنة، وشاءت الأقدار أن تتدخّل بيننا بشيء يكدّر صفونا وإن شاء الله لن تدوم، لأنّ السنغال لا يمكن أن تنقطع عن موريتانيا، وموريتانيا لا يمكن أن تنقطع عن السنغال فالحمد لله بين الشعبين

(1) حلمي شعراوي، م س ـ ص 345 .

روابط متينة (. . .) شاهدنا في كل بيوتات العلم هنا آثاركم الطيبة». ونحن «نرى أنّ كثيرين منكم ينتسبون إلى أعقاب النبي ﷺ بالسند الصادق، وذلك يجعل علينا أمانة في أن نحسن معاملتكم. وغير من ينتسب منكم إلى رسول الله ﷺ فعلى الأقل ينتسب إلى العرب (. . .) لا تؤاخذونا بما فعل السفهاء منا (. . .) فالصالحون من الشعبين يحب بعضهم بعضاً ويحن بعضهم إلى بعض».

ولخصوصية هذه العلاقة التي وصفها الحاج عبد الله أنياس كان حجم المؤامرة كبيراً. وكانت للسفهاء جولة في موريتانيا وجولات في السنغال لضرب التعاون العربي الإفريقي في أهم مفاصله، ولوقف مسيرة الإسلام الزاحف انطلاقاً من موريتانيا عبر السنغال باتجاه إفريقيا كلها، وغربها بوجه خاص. ولم يكن بغريب البتة على عمل هذه نتائجه أو غاياته أن يكون صنيعة أياد أجنبية تلتقي فيها الموساد وبعض الهيئات الكنسية والقوى الاستعمارية المتمكنة في السنغال على مصالح مشتركة، ضد شعبين عاشا بأمان وحسن جوار منذ مئات السنين.

وإذا كان الدور الصهيوني مقنّعاً في هذه الحالة، فإنّه يبدو شبه سافر في حالة أخرى، فهناك علاقة استراتيجية تاريخية معلومة بين النظام الذي يضطهد العرب وينتهك حرماتهم في فلسطين وذاك الذي اضطهد ـ طويلاً ـ الأفارقة السود في جنوب إفريقيا. وترجع تلك العلاقة، بوجه خاص، إلى عهد نشأة الكيان الصهيوني في فلسطين، فقد حيّت جنوب إفريقيا ميلاد الدولة الصهيونية سنة 1948م. وقال، يومئذ، لسلي روبين، أحد زعماء اليهود في جنوب إفريقيا : إن جنوب إفريقيا ترى في انتصار اليهود على العرب انتصاراً للبيض على السود[1]. فكانت هذه الكلمات إعلاناً بليغاً عن التوأمة القائمة بين عقيدتين تظلمان الإنسان: الصهيونية في فلسطين، والعنصرية (الأبارتاييد) في جنوب إفريقيا.

ولم تكن تلك العلاقة مجرد صلة فكرية، تقوم على أساسين عقديّين

(1) ن م، ص 365 .

بينهما تشابه كبير، وإنما كانت علاقة تعاون وطيد، وتكامل وثيق. وقد بلغ التعاون بين الدولتين مداه في المجال العسكري، فكان بين الطرفين من الأخذ والعطاء ما به كان كل منهما سنداً للآخر في سياساته القمعية، وفي حروبه على أصحاب الأرض الشرعيين وعلى الجيران، من العرب والأفارقة.

ولقد اشتركت « إسرائيل » ووكالة المخابرات المركزية والبنتاغون، ووزارة الخارجية الأمريكية جميعاً في مجهود سرّي منظم، لمدة ثلاث سنوات، حتى تم شحن نظام [مدفعية متطوّر] والأجهزة والنظم التكنولوجية الخاصة بتصنيعه إلى جنوب إفريقيا بطريقة غير قانونية[1] في فترة كانت الأمم المتحدة تفرض فيها حظراً على تصدير السلاح إلى جنوب إفريقيا وبلغت قيمة صادرات السلاح الإسرائيلي إلى جنوب إفريقيا 20 مليون دولار أمريكي سنة 1973 .

وبالإمدادات الإسرائيلية، أصبحت ترسانة السلاح في جنوب إفريقيا تشتمل على الرشاش عوزي وطائرات «آرافا» وصواريخ «غابرييل» بحر ـ بحر وسفن ريشيف المزوّدة بتلك الصواريخ وطائرات «كفير» المقاتلة النفاثة، وكلها من أسلحة الترسانة الصهيونية. وبالمقابل قدمت جنوب إفريقيا إلى إسرائيل دبابات «تشفتين» وطائرات «ميراج» ورخصت لها في انتاج قنبلة النابالم التي سبقت جنوب إفريقيا إلى تصنيعها. وقد رصد القمر الصناعي الأمريكي «فيلا» في 1979/9/22 تفجيراً نووياً في المحيط الهادي، أكدت مصادر أمريكية عديدة أنه ثمرة تعاون مشترك بين إسرائيل وجنوب إفريقيا[2]. وقد أبرم النظامان في السنة ذاتها معاهدة للتعاون الذرّي وكانت إسرائيل قد حصلت من جنوب إفريقيا على كميات من اليورانيوم استخدمتها في مفاعل ديمونه الذري.

وفي الحروب العربية ـ الاسرائيلية الكبرى كانت جنوب إفريقيا إلى جانب إسرائيل؛ فقد شارك منها طيارون متطوّعون في حرب 1948م. وكان

---

(1) مجدي حماد ـ في إفريقيا، كتاب غير دوري ـ عدد 1 ـ اكتوبر 1986.
(2) ن. م.

1500 عسكري جنوب إفريقيا يقاتلون بجانب الصهاينة في حرب 1967م. وفي حرب رمضان / اكتوبر 1973م أرسلت جنوب إفريقيا إلى إسرائيل سرباً من طائرات الميراج يقودها طيارون جنوب إفريقيون. وتمكن المقاتلون المصريون من إسقاط بعضها.

هل لنا بعد هذا كله أن نصدق دعوى الصهاينة بأنّهم أصدقاء لإفريقيا، وأنّ شغلهم الشاغل هو تحرير إفريقيا وتخليص الأفارقة؟

إنّ الأمر لا يعدو أن يكون خدعة مكشوفة ما كان ينبغي للأفارقة أن يتقبّلوها ويصدّقوها بكل بساطة، فالذي تريده إسرائيل في حقيقة الأمر هو إخضاع الأفارقة لا تحريرهم، وهو تفجير الخلافات، وإذكاء نيران الفتنة بينهم، وإقامة سد من الحزازات والدعايات المضللة بينهم وبين العرب الذين اختلطت دماؤهم بدمائهم، في ساحات الجهاد المشترك وانتظمتهم وإياهم دائرة الإسلام الذي يلغي عصبية الاستعلاء وحمية الجاهلية وبه اشتبكت الأرحام ووشائج القربى بين العرب والأفارقة وعاشوا معاً في وئام وجوار حميد منذ أربعة عشر قرناً أو تزيد.

كان هدف إسرائيل، وما يزال، هو أن تقطع الجسور بين العرب والأفارقة، وتمنع التواصل أن يستمر، وتستميل الأفارقة ليكونوا في صفها وهي في حالة عدوان دائم على العرب.

وجلي أنّ إسرائيل إنما تبحث في ذلك عن مصالحها لا عن مصالح الأفارقة، وأنها تكيد للأفارقة مثلما تكيد للعرب. وتنظر إليهم جميعاً بعين العداء، ورغم كل احتياطات الدعاية الصهيونية، فإنّ هذه النظرة لا يمكن أن تبقى سرّاً مغلقاً على الأفارقة.

لقد شعر الطلاب الأفارقة في «إسرائيل» منذ الستينيات بأن المجتمع اليهودي ينظر إليهم نظرة احتقار، وأنهم ينادون الإفريقي بلقب «كوشي» الذي تنادى به الكلاب السوداء إمعاناً في تحقيره. وقد أدرك يهود الحبشة (الفلاشا) أنّ «أرض الميعاد» التي سيقوا إليها لم تستقبلهم بالترحيب الذي يتوقعه اليهودي من اليهودي.. فلمجرّد أن بشرة هؤلاء سوداء، وأنهم آتون من

إفريقيا ، كان عليهم أن يقبلوا النزول إلى الدرك الأسفل من سلم المجتمع اليهودي الذي يتدرّج فيه اليهود تبعاً للـون بشرتهم وللمواطن التي هـاجروا منها . .

لقد أصابت «الأمم المتحدة» حين قررت اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية . ولقد أخطأت حين قرّرت إلغاء ذلك القرار . والحقيقة أن أي قرار لا يمنح ولا يلغي صفة العنصرية . . وإنما هي الوقائع والحقائق التي كانت وما تزال شاهدة على أن الحركـة الصهيونيـة حركـة عنصريـة . وكأن «المجتمع الدولي» قد قرأ الأحداث على نحو خاطىء؛ ففي جنوب إفريقيا أخذ النظام منحىً جديداً في اتجاه تحقيق المساواة والتخلّص من العنصرية ، أما في «إسرائيل» فالممارسات هي هي . وما نحسب أن طاولة مفاوضات في مدريد أو غيرها يمكن أن تغطي واقع الاحتلال ، ونشر المستوطنات ، وممارسة القمع والارهاب حتى ضد الأطفال داخل الأرض المحتلة .

المبحث الثاني

العون العربي لإفريقيا: عمل أبتر؟

إنّ النجاح الكبير الذي حقّقته إسرائيل في إفريقيا، خلال عقود قليلة من الزمن يطرح تساؤلات مشروعة حول مدى نجاعة العلاقات العربية ـ الإفريقية المستندة إلى قرون طويلة من الحياة المشتركة، تاريخاً وثقافة، وتجارة وحضارة.

ومن المهم بدءاً، في سياق البحث لهذه التساؤلات عن إجابات شافية، التسليم بأنّ أشياء كثيرة تغيّرت في الدائرة العربية الإفريقية. وقد بدأ هذا التغيّر يظهر تدريجياً مع تحول أنماط التجارة ومسالكها، فبعد أن كانت طرق القوافل الرابطة بين شرق القارة وغربها وشمالها وجنوبها جسور تواصل وثيق بين العرب والأفارقة، جاءت تجارة المحيطات، منذ القرن الخامس عشر الميلادي لتقضي تدريجياً على قوافل سفن الصحراء (الإبل)، وتفتح أفق تبادل اقتصادي جديد، لم يحد من غلوائه اعتماده النخّاسة في مراحل طويلة، أسلوباً أساسياً للمقايضة مع الأفارقة الذين يشترون السلع والمنتوجات الغربية، وكان دخول الاستعمار، وتمكنه في البلاد عاملاً فاصلاً، إذ انضافت به شبكة متكاملة من الأسس الثقافية ـ العقدية والسياسية، لتكون مع العامل الاقتصادي حاجزاً جديداً بين العرب والأفارقة. ومع تقدّم الزمن، وتكاثر أعداد خرّيجي المدرسة الاستعمارية أخذت إفريقيا تخضع لنظم سياسية جديدة (حتى بعد الاستقلال) تستند في تصوّراتها ورؤاها التاريخية إلى شريط زمني محدود لا يكاد يتعدّى فترة الحكم الاستعمازي. ولم يكن العرب، ولا المسلمون، يشغلون حيّزاً ذا شأن في هذا الشريط، ولم تكن ثقافة الساسة والحكام والمثقفين الجدد لتنفذ في الغالب إلى الأعماق البعيدة لتاريخ القارة، حيث يستطيع المرء أن يستمد وعياً مناقضاً للوعي «الاستعماري»؛ وعياً يحيل على الوحدة البعيدة الغور للمحيط العربي ـ الإفريقي، خاصة منذ أن نسج الإسلام بين الطرفين خيوط حضارة مشتركة في أساسياتها.

بدا العرب والمسلمون إذن، وكأنهم يدخلون ساحة المنافسة على إفريقيا بعد إسرائيل وليس قبلها، بفعل شطب القرون الطويلة والعوامل المشتركة من ميزان السياسة الإفريقية المعاصرة. ولا سبيل لتبرئة ساحة العرب والمسلمين أيضاً من مسؤوليات هذا الواقع، فقد تكالبت عليهم الأمم الغربية كما تكالبت على إفريقيا أو أشد وأنكى. ولم تستطع الخلافة الإسلامية أن تنهض بعد سقوطها ، واقتسام الغرب تركتها. وظلت الوحدة العربية حلماً يراود الأجيال في ظل التجزئة والتناحر اللذين فتا في عضد العرب وحملا بعضهم على بعض.

وانغرست إسرائيل نفسها في قلب الوطن العربي لتكون رأس حربة للقوى الاستعمارية، ولم ينجح العرب ـ وهم على شقاق ووهن ـ في اعتراض مشروع قيام دولة إسرائيل سنة 1948 م، ولا في الاحتفاظ بالبقية الباقية، من أرض فلسطين التي لم تكن إسرائيل قد احتلتها عامذاك. . ورغم استقلال المزيد من الدول العربية في الخمسينيات والستينيات، فإنّ الخطب لم يفتأ يستفحل، وإذا بإسرائيل تنجح في ضرب العرب واحتلال المزيد من أراضيهم، ملحقة بذلك هزيمة قاسية بثلاث دول عربية.

إنّ ذلك ـ وعلى خلاف منطق القيم والمثل ـ لم يكن ليلمع وجه العرب في إفريقيا أو ليجلب لهم التعاطف أو المعية التي افتقدوها من قبل. بل كان لا بدّ للدبلوماسية العربية من سند عسكري، لم يتحقّق إلاّ بالانتصار في حرب رمضان / اكتوبر 1973 م، لتقنع الأفارقة بأنّ العرب مظلومون، وأنّ حرمة إفريقيا ذاتها قد استبيحت (باحتلال سيناء)، وأنّ الدولة الصهيونية ليست حَمَلاً وديعاً بين ذئاب وإنّما هي وحش يفترس الضعاف. وكان ممّا يقوّي حجة العرب تلك، علاوة على انتصارهم العسكري، أنّهم ظهروا ـ ربما للمرة الوحيدة في تاريخهم المعاصر ـ أمة موحّدة الصف، ذات ثروة نفطية تستطيع أن تحجبها عن أعدائها متى شاءت، وذات مال تستطيع أن تحبو به أصدقاءها. عندئذٍ فقط انقلبت الموازين، ولنتأمل الوقائع :

ـ بعد حرب حزيران يونيو 1967 التي اعتدت فيها إسرائيل على العرب، واحتلت أراضي إفريقية ، كانت غينيا الدولة الإفريقية الوحيدة طيلة سنة 1967

التي قطعت علاقاتها مع إسرائيل؛ بينما نجد 17 دولة إفريقية تقطع علاقاتها مع إسرائيل في شهر أكتوبر 1973، واحدة فقط قبل الحرب بيومين (زائير) وواحدة يوم اندلاع الحرب (بنين) والبقية بعدها (رواندا، بوركينافاسو، الكاميرون، تنزانيا، غينيا الاستوائية، مدغشقر، جمهورية إفريقيا الوسطى، أثيوبيا، نيجيريا، غامبيا، زامبيا، غانا، السنغال، الغابون، سيراليون). وفي الشهر الموالي (نوفمبر 1973) سلكت كينيا وليبيريا وساحل العاج وبوتسوانا وموريشيوس نفس المسلك.

لقد ذكّرت حرب أكتوبر ولواحقها الأفارقة بأنّ لهم، والعرب، مصالح مشتركة، وشهد التضامن العربي ـ الإفريقي عهداً ذهبياً (دبلوماسياً على الأقل). ويبدو أنّ العرب تحركوا بحافز المكافأة المادية، أو اعتبروا العون الاقتصادي أهم ضمانات الحفاظ على المكاسب في إفريقيا، فقرّروا في قمة الجزائر، أواخر 1973 إنشاء مؤسسات مشتركة لدعم إفريقيا، وتمويل مشاريع التنمية فيها، فكان من هذه المؤسسات:

ـ المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في إفريقيا.

ـ الصندوق العربي للمعونة الفنية للدول العربية والإفريقية. (وقد تمحض هذا الصندوق من بعد للدول الإفريقية غير العربية).

ـ الصندوق العربي الخاص لتقديم المعونة للدول الإفريقية.

ولم يلبث البنك الإسلامي للتنمية (1975 م) أن التحق بهذه المؤسسات رافداً هاماً من روافد التعاون العربي ـ الإفريقي.

وقد قدّمت هذه المؤسسات، وقدّمت الدول العربية، مساعدات سخية للدول الإفريقية، فخلال 11 عاماً (1975 ـ 1985) قدّم المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في إفريقيا نحو 900 مليون دولار أمريكي إلى 40 دولة إفريقية غير عربية، لتمويل نحو 100 مشروع في ميادين الصناعة والزراعة والمواصلات وغيرها.

وإلى غاية 1988 قدّم البنك الإسلامي للتنمية نحو 767 مليون دولار أمريكي للدول الإفريقية الأعضاء فيه، وامتدت مساعداته إلى الدول الإفريقية

غير الأعضاء مثل أثيوبيا وتنزانيا والتوغو وكينيا والكونغو وغانا وموزمبيق وزيمبابوي وليبيريا وزامبيا.

وفي الفترة ما بين 1973 ـ 1980 بلغ مجموع المساعدات المالية التي قدمتها الدول أو المؤسسات العربية لإفريقيا 5 مليارات و 706,892 دولار[1] .

وعلى سبيل المثال توزّعت المساعدات العربية، فيما بين 1973 ـ 1981 على الدول التالية وبالمبالغ المحددة: مالي: 249 مليون دولار، السنغال: 230 مليون، النيجر 194 ، موريشيوس 186، كينيا 172، أوغندا 171، غينيا 130، غانا 108، زائير101 [2].

وقد ذكر الشاذلي العياري أنّ العون العربي لإفريقيا، باختلاف مصادره، قد بلغ حتى سنة 1985 نحو 9,5 مليار دولار، وأنّ هناك 800 ـ 900 مليون دولار تتدفق سنوياً من مصادر التمويل العربية باتجاه إفريقيا.

ومن شأن إجراء مقارنات بسيطة أن يوضح مدى أهمية العون العربي لإفريقيا. فقد بلغت التمويلات الدولية المشتركة للمشروعات الإنمائية الإفريقية في النصفين الثاني من السبعينيات والأول من الثمانينيات نحو 5,17 مليار دولار، أسهم العرب فيها بمبلغ 1,5 مليار دولار، أي بنسبة 28,6% من إجمالي التمويلات الدولية المشتركة. ولا يدخل العون الثنائي في حساب هذا المبلغ. وبذلك كان العرب في مقدمة شركاء إفريقيا في تمويل عمليات التنمية، بينما ساهمت بلدان الغرب الصناعية بمبلغ 780 مليون دولار، ومجموعة البنك الدولي بمبلغ 670 مليون، والسوق الأوروبية المشتركة بمبلغ 305 مليون، ومجموعة بنك التنمية الإفريقي بمبلغ 396 مليون، والقطاع

---

(1) M.O. Beshir / Terramedia - P. 164.

(2) العرب وإفريقيا (ندوة ـ مركز دراسات الوحدة العربية) ص 380.

الخاص والمصارف التجارية بمبلغ 291 مليون[1]. ولم تتعد التمويلات الإسرائيلية قياساً إلى التمويلات الدولية نسبة 0,5٪[2]، هذا على الرغم من أنّ الولايات المتحدة كانت تمنح إسرائيل مخصصات إضافية لتمويل عملياتها في إفريقيا[3]. وقد ارتفع إجمالي تمويلات المؤسسات العربية لمشاريع التنمية الإفريقية في الفترة ما بين 1975 ـ 1990 إلى 2061,295 مليون دولار، وهو ما يعادل 28,5% من مجمل التمويلات الدولية. (راجع تقرير المصرف العربي للتنمية الاقتصادية بإفريقيا 1990).

وبقياس آخر يبلغ العون المالي العربي لإفريقيا مقيساً بالناتج القومي للدول العربية نحو عشرة أضعاف العون الذي قدّمته الدول الصناعية المتقدّمة لإفريقيا. وقد قدمّ العرب نحو ثلثي مساعداتهم المالية لإفريقيا بشروط تفضيلية ميسّرة جداً، غير مرهونة بأي قيود اقتصادية أو سياسية، خلافاً للعون الأوروبي المشروط غالباً[4].

ورغم هذا المجهود الكبير الذي بذله العرب من مال يحتاجونه أو يحتاجه بعضهم، فإنّ النتيجة لم تكن بمستوى التوقعات؛ فقد رأينا أنّ التعاون الإسرائيلي الإفريقي لم يتوقف رغم القطيعة الدبلوماسية، لسنوات معدودة، ما لبثت إسرائيل أن عادت بعدها إلى القارة من أوسع الأبواب الدبلوماسية. ورأينا كيف رفض هفوت بوبنيه بتشنج بعض مبالغ العون العربي انتصاراً لكرامة إسرائيل، معتقداً أنّه إنّما ينتصر لكرامة ساحل العاج. وكانت زائير التي قادت الركب الإفريقي سنة 1982 باتجاه إسرائيل، أكثر تشنجاً في مواقفها.

فقد تنكر موبوتو لأيادي العرب (وكان نصيب بلاده من المساعدات

---

(1) القبس (كويتية) عدد 1985/6/6.

(2) Jeune Afrique magazine - N° 45 - Fev. 1988.

(3) المجاهد (جزائرية) عدد 1486 في 1989/1/27.

(4) المجاهد. . . في 1988/4/28 .

العربية نحو 440 مليون دولار)، وشن حملة واطئة على العرب معلناً عدم استعداد زائير للخضوع «لنظام الرق العربي الجديد»، واصفاً التضامن العربي بأنّه «فخ» والزعماء العرب بأنهم «قادة قوافل الرقيق يلبسون العمائم ويقعدون على الثروات»![1] ثمّ انطلق فى دعوته الشهيرة لإنشاء جامعة دول إفريقيا السوداء لتكون قسيماً لجامعة الدول العربية، وكأنّه اعتبرها جامعة بيضاء. والواقع أنّ في العرب سوداً وبيضاً أو سمراً، وليسوا كلّهم بيضاً، ولم تجمعهم الجامعة على عرق، فضلاً عن لون واحد، وإنّما جمعتهم على هوية ثقافية حضارية مشتركة.

ولا يلطف من جفوة هذا الكلام إلاّ حديث الرئيس الغيني أحمد شيخوتوري، الذي بدا نغمة نشازاً في أحاديث الساسة الأفارقة؛ فقد قال الرئيس الغيني: «إنّما ينبع تأييدنا للقضايا العربية من التضامن الإفريقي - العربي الذي كان وما زال بالنسبة لنا في غينيا موضوعاً مبدئياً لا يقوم على أيّة مكافآت مالية يقدّمها لنا العرب، لقد أيّدنا العرب لإيماننا أنّهم على حق، لا ابتغاء أي كسب مالي. لقد قطعت غينيا علاقاتها مع إسرائيل عام 1967، منذ أول يوم بدأت فيه الدولة الصهيونية عدوانها على العرب. لقد فعلنا ذلك فوراً ودون أي تفكير في أية مساعدات مالية يمكن أن تقدّمها لنا الدول العربية الغنية بالنفط . ولا شك أننا كنا سنفعل نفس الشيء لو أن العدوان وقع على أية دولة أخرى، بل ولقطعنا العلاقات مع إسرائيل حتى ولو كان العرب أنفسهم قد طلبوا منا ألاّ نفعل ذلك. إنني أقول لأؤلئك الذين يزعمون أنّنا نتعاون مع العرب بسبب أموالهم: «إنّنا أناسٌ متديّنون نؤمن بالله العظيم»[2].

إنّ لهذا الكلام مصداقيته وقيمته الخاصة. أمّا مصداقيته فتنبع خاصة من كون غينيا البلد الإفريقي الوحيد الذي بادر إلى قطع علاقاته الدبلوماسية

---

(1) حلمي شعرواي - في (العرب وإفريقيا - م س - ص 356).

(2) دراسات أفريقية (سودانية) عدد 2 في شعبان - 1406 ص 18.

مع إسرائيل خلال حرب حزيران 1967. وأمّا قيمته الخاصة فتتمثل في صدوره عن قائد إفريقي كان يناصب القومية العربية العداء في سني حكمه الأولى. ولقد أوضح شيخوتوري سر تحوّله عندما قال: «إنّنا أناسٌ متديّنون، نؤمن بالله العظيم». ولعلّه كشف بالكلمة ذاتها سر اهتزاز التعاون العربي الإفريقي وانقلاب عدد من القادة الأفارقة على العرب، مولين وجههم شطر إسرائيل.

إنّ تجلّيات النفور الإفريقي من العرب لتكشف عن خلل كبير وتغيّر خطير في الأوضاع، حديثة العهد، فقدْ فقدَ العرب حالة التضامن التي بها كسبوا القارة لقضيتهم بعد حرب رمضان، وكسبوا من ورائها الساحة الدولية، حتى أُتيح لمنظمة التحرير الفلسطينية أن تدخل الأمم المتحدة (1974) دخولاً مشهوداً. ولعلّهم إلى ذلك، بنوا صرح التعاون الجديد مع إفريقيا على أساس غير متين. صحيح أنّ العلاقات الاقتصادية مهمة، في بناء المصالح التي تصوغ جل المواقف في العالم المعاصر، لكنها - إنْ انفردت - تفتح باب المزايدة على مصراعيه، وتضفي على التعاون طابعاً مادياً نفعياً يجعله ريشة في مهب رياح العرض والطلب. ولم يكن العرب، وراء ذلك، مهما بلغوا من السخاء، بقادرين، بالمال وحده، على كسب معركة حضارية كبيرة تدور بأسلحة شتى وعلى أصعدة مختلفة، وتستهدف سمعتهم ومكانتهم الخاصة في إفريقيا، هذا إلى أنّ المال مورد فانٍ لا يؤسس عليه عمل باقٍ.

لقد أخطأ العرب حين رجّحوا الأساس الاقتصادي على غيره من الأسس (الثقافية الإعلامية السياسية الشعبية... إلخ)، بل كادوا يهملونها.

وعلى ما كان من سخاء العرب في المجال الاقتصادي، فإنّهم فيه وفي غيره لم يظهروا دائماً المرونة والنجاعة اللازمتين في التحرّك.

إنّ بعض الحكايات الصغيرة توضح جانباً من الخلل الذي نراه. فقد رغب أحد الزعماء الأفارقة في اقتناء غرفة نوم فرعونية من مصر، ورغم الاتصالات التي جرت مع شركة النصر المصرية للاستيراد، فإنّ الزعيم الإفريقي لم يحصل على بغيته إلّا بواسطة السفارة الإسرائيلية في بلده[1].

---

(1) ن.م.

وفي مجال آخر، يذكر الشاذلي العياري، وهو رئيس واحدة من أهم المؤسسات الاقتصادية العربية العاملة في إفريقيا، أنّه اجتمع مرة في ميناء مومباسا بمسلمين من أصل عربي، أخبروه أنّ الإسرائيليين كانوا قد اتصلوا بهم وسألوهم: ما هي أمنيتكم في الحياة؟ فأجابوا: أن نزور الأماكن المقدسة، فقدّم الإسرائيليون لهؤلاء المسلمين العون اللازم حتى يحجّوا![1]

كذلك بادر الإسرائيليون، حيث تقاعس العرب، إلى إعلان استعدادهم لمساعدة بعض الهيئات الإفريقية في تعليم اللغة العربية (كينيا.. سيراليون)!

والحق أنّ حصر العلاقات في القنوات الرسمية (الحكومية)، جماعية أو ثنائية، لا ينتج إلّا تعاوناً سطحياً ـ «مراسيمياً» ليس من شأنه أن ينفذ إلى العمق، فينغرس في الأرض، ويستمد فيها ومنها أسباب النماء والبقاء.

لقد فشلت القنوات الرسمية في تحقيق الحد الأدنى ممّا تحقّقه قنوات شعبية، مهملة في الغالب، مبتوتة الصلات، لكنّها واعية بالحق العربي، تدافع عنه بصوتها الخافت، لا تريد من أحد جزاء ولا شكوراً.. ولو أنّ الدوائر الرسمية نجحت في الربط بين المنظمات والهيئات الشعبية في الجانبين، وتركتها وشأنها، لسارت العلاقات العربية ـ الإفريقية على نحو أفضل، ولكتب لها من النجاح ما لم يكتب بعد.

إنّ من شأن القنوات الشعبية أن تحرك نوازع الأخوّة العميقة وتوظفها، فتقوم من الدين والفكر والثقافة على أساس متين، تأتي العلاقات الاقتصادية من بعد لتدعمه، وسيلة لا غاية، وتوسيعاً لا تأسيساً.

ولعلّ استعراض مسيرة العلاقات الإفريقية ـ الإسرائيلية، في مدّها وبعض جزرها يعزّز انطباعنا بوجود خلل خطير في نظرة الساسة الأفارقة إلى إخوانهم العرب، وفهمهم للأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه العلاقات العربية الإفريقية.

---

(1) فلسطين الثورة - 1986/2/8 .

أفلا يكفي أن نراجع المعطيات السابقة لنلاحظ أنّ احتلال إسرائيل لأرض عربية ـ إفريقية (سيناء)، ولأراضي عربية أخرى بالقوّة الغاشمة لم يغيّر من موقف الساسة الأفارقة تجاهها، بل إنّ التعاون معها استمرّ واتسع، بينما نجدهم ينخرطون في حركة واسعة لقطع العلاقات (الدبلوماسية فقط غالباً) مع إسرائيل، عندما كان العرب منتصرين في حرب 1973، وكان نفطهم بأيديهم، يحاصرون به أعداءهم وكان في أموالهم حق لأصدقائهم.

إنّ خذلان المهزوم والانتصار للمنتصر يشهدان على أنّ العلاقة بين الطرفين لم تبن على أساس سليم، بل كانت محكومة بمنطق أسياد الأمس واليوم (المستعمرين) الذين ألفوا، في تعاملهم مع خصومهم ألاّ ينصتوا إليهم إلاّ إذا كانوا (الخصوم) على جانب من القوّة. وقد كان العرب بتضامنهم آنذاك على جانب من القوّة، وكان لموقفهم من التأثير في أرجاء العالم ما لا انفكاك لإفريقيا عنه.

ولأنّ الأساس لم يكن سليماً البتّة، كان لا بدّ للعرب ـ حتى يحفظوا ود الأفارقة ذلك ـ أن يدفعوا ثمناً اقتصادياً متصلاً غير منقطع، ولئن كان الأفارقة من أولى الناس بالعون العربي، فإنّ التعاون على هذا النحو لم يُمَكِّن من إبراز الأسس الثابتة ـ الكامنة ـ لعلاقة تستند إلى رصيد حضاري مشترك، ترفده القيم والمثل والمبادىء التي تهدي البشر إلى نصرة الحق. . . ولم تمض سنوات حتى تبيّن أنّ العرب إنّما دخلوا في إفريقيا مزاداً لا يكفل المال وحده الفوز فيه.

أفليس من القصور في ترتيب الأولويات، أو وضع الأشياء مواضعها أن يكون العرب مع الأفارقة عاجزين حتى الآن ـ وقد أنشأوا مؤسسات تعاون اقتصادية منذ سنين ـ عن إنشاء مؤسسة ثقافية عربية إفريقية مشتركة!

لقد فكر الطرفان فعلاً في إنشاء معهد ثقافي عربي ـ إفريقي. . . ولكن متى؟ ـ بعد أن تأسّس معهد العالم العربي في باريس! حينذاك فقط، وبعقلية المحاكاة الآسرة، انتبه الطرفان إلى أنّ إنشاء معهد ثقافي عربي ـ إفريقي هو فكرة جميلة. . ورغم أنّ تنفيذها لا يتطلب إلاّ نحو 3 ملايين دولار، فقد مرّ نحو عشر سنوات والفكرة الجميلة تعرض على كلّ دورة من دورات اللجنة

الدائمة للتعاون العربي - الإفريقي (تجتمع مرتين في السنة رسمياً) لتصدر توصيات تتبعها أو تنسخها توصيات دورة لاحقة.. وهلمّ قولاً بلا عمل..

ذلك وجه من وجوه الخلل في بناء أقيم على أساس غير أساسه..

خاتمة

كنّا في طريقنا من دمشق إلى القنيطرة، في آب / أغسطس 1974م، عندما التفت إليّ الكاتب المفكّر اللبناني الكبير منح الصلح قائلاً: ما عساك تقول، لو قيل لك إنّ إفريقيا ستتعرّب خلال 50 سنة؟ لقد بدا لي السؤال يومئذٍ حالماً، وكان يحلو لي أن أحلم ولعلّي يومئذٍ لم أبلغ العشرين سنة. وإذْ أستعيد ذلك السؤال اليوم فإنّني أستحضر التطابق الغريب بين هذا الرقم (50) والرقم الذي أعلنه هرتزل بعد مؤتمر الوكالة اليهودية سنة 1898 م. لقد قال الزعيم الصهيوني يومها إنّ الدولة اليهودية ستقوم، لا يدري هل في خمس سنوات أو خمسين سنة، ولكنّها حتماً ستقوم. وفعلاً قامت الدولة اليهودية بعد خمسين سنة (1948 م). ولعلّ قيام دولة يتطلّب تكوينها تجميع مئات آلاف الناس من أطراف العالم، وإخلاء أرض من سكانها لإيوائهم، في صمت من العالم أو تواطؤ، كان حلماً أكبر وأغرب من حلم منح الصلح. ومع ذلك، فلست متمسكاً بالأرقام ولا بأمثال هذه التنبؤات، ولم أسق ما سقته توطئة، للحلم باحتمال تعرّب إفريقيا خلال بضعة عقود من الزمن. وإنّما أريد التنبيه على أنّ الأمر ممكن لو توفرت همة ولوازم معينة، وتحدّدت طبيعة الهدف على نحو آخر. أمّا النحو الذي نرى تعرّب إفريقيا عليه ممكناً في أمد غير بعيد، فهو أن تُسْلِم، إذ ليست العروبة في مقامنا عرقاً ولا لوناً. بل هي عندنا هوية حضارية، أعمق ركائزها أن تتلو القرآن بلسان عربي مبين، وأنت تفهم من معانيه ما يفهم العربي. وأمّا اللوازم فليست ضرورة من نوع تلك التي توفرت لإقامة الدولة الصهيونية. لسنا ننتظر وعداً من بريطانيا أو فرنسا بتعريب

إفريقيا أو أسلمتهـا، ولا قراراً من الأمم المتحـدة بذلـك، ولا حمايـة من أمريكا. وإنّما ننتظر أن نغيّر ما بأنفسنا ونصلح من شأننا، ونستعيد دورنا في الإشعاع. إنّ ذلك الأمر غير سهل ولكنّه غير مستحيل. ولنا في القوة الذاتية للإسلام، وفيما كتب له من انتشار أيام حصاره، وفي التقلّبات التي يموج بها العالم من حولنا موارد أمل ينبغي أن نرِدها غير متواكلين.

لقد رأينا كيف جاء الاستعمار مسبوقاً أو متبوعاً، معزّزاً في كل الأحوال بالبعثات التنصيرية، وكيف قاوم المستعمرون انتشار الإسلام بمـا أوتوا من قوة. ومع ذلك ظل الإسلام يقاوم ويتقدّم حتى إنّه حقّق أكبر طفرة له في أيام الصبر والتحدي، تلك الأيام. . .

ولنسق أرقاماً ونسباً ناطقة، فقد ذكر تريمنغام Trimingham أنّ الهوسا في شمال نيجيريا كانوا قد أسلموا بنسبة 50% حتى عام 1900 م وفي سنة 1952 كـانوا قـد أسلموا بنسبـة 75-80% ، واستمر هـذا المدد قـوياً بعيـد الاستقلال، ففي عامي 1964-1965 اعتنق الإسـلام نحو 430,000 هـوسي، حسبما ذكر السيد أحمد بلّو رئيس وزراء شمال نيجيريا آنذاك.

ويشير الدكتور زويمر باندهاش إلى نهضة الإسلام في جنوب إفريقيا ففي مدينة الكاب وحدها شاهد ما يربو على 13 مسجداً ومدرسة يدرس فيها 400 طالب اللغة العربية. وقد تضاعف عدد المسلمين في إفريقيا بين عامي 1931 و1951، فارتفع من 40 مليوناً إلى 80 مليون شخص.

وفي سنة 1944 لاحظ الحاكم العام لغرب إفريقيا كورناي Corneille بقلق أنّ عدد المسلمين في المنطقة (إفريقيا الغربية) قد تطوّر بسرعة مذهلة، حيث ارتفع من 3,875,000 شخص سنة 1924 إلى 6,241,000 سنـة 1936، وتحدّث عن انهيار سمعة فرنسا وهيبتها. وقـال إنّ المستقبل ينـذر بانتشـار الإسلام في عموم المنطقة.

كان ذلك، أيام الحصار والمطاردة، أحد مظاهر القوة الذاتية للإسلام التي تبرز ناصعة جلية عندما يأخذ المسلمون كتابهم بقوة، فيمارسون الدعوة إلى دينهم في حال الحل والترحال وبأحوالهم وأعمالهم قبل أقوالهم.

وإنّ من قـوة الإسلام الكـامنة، ذلـك الوهن الـذي يـدبّ في جسم الحضارة الغربية المعاصرة، وقد رأينا كيف تفعل المفاجأة (وليست العوامل الغيبيـة بغائبـة) فعلها في تـاريخ الإنسـان مع الانهيـار المفاجىء لـلاتحاد السوفياتي، والكتلة التي كانت تدور في فلكه. وليس ببعيد أن يدرك الحضارة الغربية، وقصورها المشيّدة، ما أدرك الكتلة الشرقية، وتكون العاقبة للإسلام والمسلمين.

لا نقول ذلك لنغطي الحقيقة التي عالجناها في فصول الكتاب، بل لنراها بأبعادها المختلفة.

فمن الحق أنّ الاستعمار أثّر تأثيراً كبيراً في القارة الإفريقية، ووجدت النحل المنحرفة تربة خصبة في بلادنا، فراح دعاتها يجوسون خلال الديار، محاطين برعاية السلطات الاستعمارية وبتواطؤ ـ ساذج في أحسن الحالات ـ من سلطات الإدارة الوطنية في عهد الاستقلال.

ومن الحق أيضاً أنّ الإسلام قاوم طويلاً، وما زال يقاوم، فقد ناهض بالسلاح، وبالعلم وبالدعوة الصالحة، جيـوش الاحتلال وإداراتـه، وتمكن الدعاة إلى الله وهم مطاردون محاصرون، من نشر الإسلام في ربوع القارة، دون أن تكون هناك أجهزة للدعوة، أو دول ترعاها، أو صناديق تنفق عليها. ولم تُخْفِ السلطات الاستعمـارية قلقهـا واستغـرابهـا من تضـاعف أعـداد المسلمين في ظل سلطانها وسطوتها. لكن ليس لنا أن نطلب سلوة بملاحظة هذا الواقع واستعراض شهـادات رجال الاستعمـار واعترافـاتهم، أحْرَى أن نباهي بذلك، فالتحديات التي تواجه الإسلام والمسلمين في القارة اليوم، أولى بأن تستحوذ على اهتماماتنا.

لقد دخل الإسلام القارة، منساباً في يسر وسهولة، وتلقّته بقبول حسن، فصار ـ وكأنه نَبَتَ فيها ـ دماً يسري في عروق الإنسان الإفـريقي، وأعطى الإسلام القارة أعـظم أمجادهـا، وحفظ لها تـاريخها، ويسّـر للغاتهـا سبل التدوين، وأمدّها ـ علاوة على ذلك ـ بلغة من لغاتها، سيّارة، هي لغة دين وحضـارة، لا لغة جنس أو عـرق، ووفّـرت لها مـزيـداً من أسبـاب الأخُـوَّةِ والتقارب، فقد كانت اللغة العربية ـ كما صرّح بذلك ذات يوم ليبولد سدار

سنغور (طبعاً قبل أن يكون رئيساً للسنغال) ـ أداة وحدة في إفريقيا الغربية، (بل في إفريقيا المسلمة عامة).

وبالمقابل اجتاح الاستعمار القارة بالقوة والقهر، فاختطف رجالها ونساءها بالملايين واسترقهم بوحشية فظيعة، ثم بثّ أجناده في أطراف القارة، فاستغلّ أهلها، ميدانياً، واستنزف مواردها، ووضع جداراً من حروف وكلمات ودعايات سامة بينها وبين تاريخها المضيء، فلبس عليها ذاتها الأصيلة، وسامها بثمن بخس، في سوق النخاسة الفكرية فنجح في استيطان عقول ساستها ومثقفيها واستلاب جمهور كبير من سكانها.

أفلا نجد في هذه المفارقة الغريبة، وهذا الواقع المر دعوة جفلى إلى مواجهة حازمة حتى لا يجتاحنا التغريب بأمواجه العاتية: التنصير، التهويد أو الدعاية الصهيونية، التمزق والتناحر لأتفه الأسباب، الاستغراب الفكري والخلقي، والحضاري إجمالاً.

إنّ المسلمين بحاجة إلى تجاوز خلافاتهم الهامشية وتوحيد كلمتهم ورصّ صفّهم، لسد الثغرات التي يتسلّل منها دعاة التغريب، وهم بحاجة إلى تنشيط حركة الدعوة ونشر العلم، باستخدام كافة أساليب العصر، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإعلامية، وبالتركيز على وسيلة الوسائل: القدوة الحسنة، فلعلّ داعياً واحداً يدعو إلى الله بحاله قبل مقاله وماله ويجسد في شخصه وسيرة حياته هدي النبوّة الناصع يكون أندى صوتاً وأبلغ دعوة وأجدى تأثيراً من آلاف ينفقون الأموال الطائلة، يرومون أن يعطوا شيئاً هم أحياناً فاقدوه.

قد نكون محقين في شكوانا من الاستعمار، وتنديدنا بجرائمه فينا وهي فظيعة، وجناياته علينا وهي كبيرة ولكن من أوهن الوهن أن نتكّىء على هذه المعاذير، ونركن إلى الاستكانة منتظرين أن يتكرّم الاستعمار ـ الذي نهول من شأنه أحياناً ـ برفع ظلمه عنا!! إن الاستعمار لن يفعل طواعية، ونحن مسؤولون عن منازلته ومقارعته، بإصلاح شأننا، وتقويم اعوجاجاتنا أولاً، فمن قِبَلِها أُتينا.

﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.

وقد كتب الخليفة عمر الفاروق، في رسالة إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد:

«إني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإنّ تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوّكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأنّ عددنا ليس كعددهم، ولا عدّتنا كعدّتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة. وإلاّ ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوّتنا»[1].

وقد ردّد صدى هذه الدعوة الصادقة، في العصر الحاضر الأستاذ ت ب ايرفنج، الأستاذ بجامعة نِنسي الأمريكية حين خاطب جمعاً من المسلمين بمدينة غلاغسو ببريطانيا قائلاً:

«إنكم لن تستطيعوا أن تنافسوا الدول الكبرى علمياً أو تقنياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو عسكرياً، ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا تلك الدول تجثو على ركبها أمامكم بالإسلام. أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذي تحملون، والذي تتعطّش إليه أرواح الناس من مختلف جنبات الأرض.. تعلموا الإسلام وطبقوه واحملوه لغيركم من البشر تنفتح أمامكم الدنيا ويَدِن لكم كل ذي سلطان. أعطوني أربعين شاباً ممن يفهمون هذا الدين فهماً عميقاً ويطبقونه على حياتهم تطبيقاً دقيقاً، ويحسنون عرضه على الناس بلغة العصر وأسلوبه، وأنا أفتح بهم الأمريكتين»[2].

إنّ إفريقيا المسلمة منذ قرون بحاجة اليوم إلى فتح جديد. وعلى المسلم الإفريقي في قارّته من المسؤولية أكثر مما على غيره، فهو ـ كما يقول الشيخ إبراهيم نياس ـ «مدعو إلى أن يفكّر في موضوعات ذات أهمية ملموسة، فأمامه مشاكل معقدة في ميادين الفكر والثقافة والاجتماع والاقتصاد والسياسة، والمسلم الإفريقي مدعو إلى أن يخوض معارك الجهاد الأكبر لوقاية

(1) ابن عبد ربه / العقد الفريد ـ 92/1 .
(2) د. زغلول النجار / قضية التخلّف... ص 137، 138

نفسه وأهله من النار وليستمر تقدّمه الروحي وليزداد إيماناً مع إيمانه، وعليه أن يقوم بالدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ليهدي الله به من حوله من الوثنيين [الذين] تخطفهم المبشّرون المسيحيون من الأفارقـة، بل ومن غيرهم، وليهدي الله به الشاردين من أبناء المسلمين الذين هجروا المساجد ومدارس العلم وانجرفوا مع تيارات الظلام الوافد من أوروبا وأمريكا بأشكاله المتعددة وتخطيطه المحكم الخداع. (...) أجل، إن أمام المسلم الإفريقي مجالاً واسعاً للتفكير والعمل (...) فإنّ أعداء الإسلام من المغضوب عليهم [اليهـود] ومن الضالّين [النصـارى] ومن الماركسيين اللينينيين والـوجوديين والبهائيين والقاديانيين ومن لَفَّ لفّهم... إن هؤلاء يمثّلون في كل مكان في إفريقيا تحدّياً سافراً، فهل من مدّكر؟»[1].

---

(1) الشيخ إبراهيم: رسالة نيامي...

انظر أيضاً: الحاج عبدالله المشري / إنذار وإفادة ص 22و 23

مراجع

1 ـ نـظرات في مسيـرة العمـل الإسـلامي / عمـر عبيـد حسنـة / كتـاب الأمة1405 هـ.

2 ـ الإسلام اليوم وغداً في نيجيريا / آدم عبدالله الألوري / مكتبة وهبة ـ القاهرة 1405 هـ / 1985 م.

3 ـ المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري / د. محسن عبد الحميد / كتاب الأمة 1404 هـ.

4 ـ الحلول المستوردة / يوسف القرضاوي / مكتبة وهبة ـ القاهرة 1397 هـ 1977 هـ.

5 ـ كفاح دين / محمد الغزالي / دار الكتب الحديثة (الطبعة الثالثة) القاهرة 1385 هـ/1965 م.

6 ـ شبهات التغريب / أنور الجندي / المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ دمشق 1398 هـ/1978 م.

7 ـ حدائق الأنوار / ابن الديبع الشيباني / تحقيق عبدالله الأنصاري ـ قطر 1403 هـ/1982 م.

8 ـ إمتاع الأسماع / المقريزي / الشؤون الدينية بقطر (الطبعة الثانية).

9 ـ تاريخ الخلفاء / السيوطي / دار الفكر.

10 ـ العقد الفريد / ابن عبد ربه / دار الفكر.

11 ـ إنذار وإفادة / الحاج عبدالله المشري / 1977 م.

12 ـ جاهلية القرن العشرين / محمد قطب / دار الشروق 1395 هـ/1975 م.

13 ـ تاريخ الشعوب الإسلامية / كارل بروكلمان ـ تعريب نبيه أمين فارس

ومنير البعلبكي / دار العلم (الطبعة الثامنة) ـ بيروت.
14 ـ الماسونية في العراء / د. محمد علي الزغبي / مطابع معتوق.
15 ـ القاديانية / مجموعة علماء / رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرّمة.
16 ـ القاديانية . . دارسات وتحليل / إحسان إلهي ظهير / الرياض 1404 هـ/1984 م.
17 ـ المقدمة / ابن خلدون / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
18 ـ القاديانية والاستعمار الانجليزي ـ عبدالله سلوم السامرائي ـ منشورات وزارة الاعلام بالعراق ـ 1981 م.
19 ـ الغزو الفكري / د. عبد الستار فتح الله سعيد / دار الأنصار ـ القاهرة.
20 ـ قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر / د. زغلول راغب النجار / كتاب الأمة.
21 ـ العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي / أنور الجندي / دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري ـ 1979 م.
22 ـ المُغرِب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب / البكري.
23 ـ تاريخ الفتاش / القاضي الفقيه محمود كعت / المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية.
24 ـ سيرة ابن اسحاق / دار الفكر 1398 هـ/ 1978 م.
25 ـ العرب وإفريقيا / د. محيي الدين صابر / المكتبة العصرية / بيروت 1987م.
26 ـ العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات، الافريقية / المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم / تونس 1985 م .
27 ـ رسائل الشيخ إبراهيم نياس الكولخي.
28 ـ بلاد شنقيط ـ المنارة والرباط ـ الخليل النحوي / المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم / تونس 1987م.
29 ـ العرب وإفريقيا (ندوة) مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1984 .
30 ـ سياسة إسرائيل في إفريقيا الاستوائية / تأليف ديمتري ك. بونوماريوف /

ترجمة د. عماد الدين حاتم / مركز البحوث والدراسات الافـريقية ـ سبها 1984.
31 ـ المسلمون في السنغال / عبد القادر محمد سيلا ـ كتاب الأمة (12) ـ شوال 1406 هـ.
32 ـ مدغشقر على خارطة الثقافة العربية / حلمي الشعراوي.
33 ـ الأدب السنغالي العربي / د. عامر صمب / الشركة الـوطنية للنشـر والتوزيع ـ الجزائر 1978.
34 ـ العربية في اللغات الإفريقية (ندوة) / المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1992 م.
35 ـ مسألة الرق في إفريقيا (ندوة) / المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم / تونس 1989.
36 ـ حياة موريتانيا (جـ 2) / المختار بن حامد ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس 1990.
37 ـ بحث عن أثر الحركات التنصيرية في إفريقيا قدمـه د. كامـل سلامـة الدقس إلى ندوة الإخاء الإسلامي بكوناكري (دجمبر 1989).
38 ـ المؤثرات العربية في الثقافة السواحيلية / سيد حامد حريز.
39 ـ اللغة العربية بين حماتها وخصومها / أنور الجندي.
40 ـ وثائق ندوات رعتها الايسيسكو والبنك الإسلامي للتنمية واليونسكو ومركز الأبحاث والدراسات للتعريب.
41 ـ دراسات إفريقية / الأعداد 1 بتاريخ رجب 1405 هـ/ ابريل 1985م.
2 بتاريخ شعبان 1406 هـ/ ابريل 1986م.
5 بتاريخ ربيع الأول 1410 هـ/ اكتوبر 1989م.
42 ـ إفريقيا، كتاب غير دوري / العدد 1 بتاريخ اكتوبر 1986م.
العدد 2 بتاريخ يوليو 1988م.
43 ـ الصباح (تونسية) / عدد 1988/12/27 م.
عدد 1990/1/14 م.
44 ـ صوت البلاد (قبرص) / عدد 1990/4/7 م.

45 ـ المسلمون عدد 220 بتاريخ 16 - 22 رمضان 1409 هـ/ 21 - 27 ابريل 1989 م.
46 ـ المجاهد (جزائرية) / عدد 1988/4/22م.
عدد 1989/1/27م.
47 ـ فلسطين الثورة / عدد 1986/2/8م.
48 ـ اللسان العربي / العدد 34 - 1410 هـ/ 1411 هـ ـ 1990 م.
49 ـ القبس (كويتية) عدد 1985/6/6م.
50 ـ أوراق (إماراتية) العدد 23 بتاريخ 1985/8/20م.
51 ـ البصائر (موريتانية) / العدد 2 بتاريخ جمادى الثانية 1412 هـ/ دجمبر 1991م.

52 - Vincent Monteil / L'Islam noir / Ed du Sail - Paris 1980.
53 - Joseph Cuop/ Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest / Geuthner - Paris 1984.
54 - Mamadou Dia Islam, Sociètes africaines et culture industrielle / les Nouvelles editions africaines - 1975.
55 - Joseph Ki - Zerbo / Histoire de l'Afrique noire/ Hatier - Paris 1972.
56 - M. Cornevin / Histoire de l'Afrique contemporaine / Pay - Paris 1978.
57 - Mamadou Dia / Islam et civilisations Negro - Africaines / Les Nouvelles edtitions africaines - 1980.
58 - Mohamed Omer Beshir / Terramedia - Themes in Afro-Arab Relations, IAAS Khartoum - Ithaca Press London 1982.
59 - Jean et Simon La couture / L'Egypte en mutation.
60 - Jeune Afrique du 8 Mai 1985.
61 - Jeune Afrique Magazine - N° 45 - Fev. 1988.
62 - Le matin (France) - 26/8/1986.
63 - Defense Nationale - Juillet 1987.
64 - La Presse (Tunisie) - 23/2/1990.

فهرس

الرقم	:	1993 - 2 - 2000 - 235
التنضيد	:	اورينت ستار سنتر
الطباعة	:	دار صادر – بيروت

favorisé une large stabilité humaine donnant la création des grandes agglomérations et centres commerciaux animés.

Au niveau social, l'Islam a transformé le continent en une seule grande famille qui n'a cessé de se fusionner: **déferlement** des immig**rants.** de l'est, mouvement des caravanes et voyages des pélerins. Les sangs Arabes et africains se sont rapprochés par les affinités au sein d'une religion qui abolit toutes les barrières afin de favoriser l'égalité entre les êtres humains sans distinction raciale ou éthnique.. tout en renforçant la solidarité et la concorde entre les peuples du continent.

Au niveau politique, le continent africain a connu l'éclosion et la création de nouveaux états et grandes MAMALIK très prospères comme résultat de l'unification des petites unités.

D'une manière générale, l'histoire du continent africain, celle des états, hommes et peuples de grandes gloires, de culture et de pensée, est en premier lieu, l'histoire de l'Islam dans le continent, non pas seulement puisque les musulmans l'avaient noté, mais plutôt par ce que l'Islam l'avait **fabriqué** et abrité les plus éminents faits et évenements de l'Afrique et ses mutations culturelles économiques et sociales depuis de très longs siècles.

Cependant, depuis cinq siècles avec le démarrage du commerce des océans - de toute mauvaise notoriété - l'Afrique a vécu le deux**ième** grand évenement **civilisationnel,** mais le plus dangereux; il s'agissait du phénomène de la colonisation occidentale, qui est en toute évidence, la campagne de croisade la plus réussite mais surtout la plus pernicieuse pour l'Islam et les musulmans.

L'objet de ce travail est de refléter l'effet de cette colonisation après avoir présenté brièvement l'histoire de la religion Islamique et la gestation de l'arabisation en afrique. Ainsi en passant d'une étape ou d'un évenement à l'autre, nous n'oeuvrons que pour authentifier la personnalité africaine en quête d'une identité perdue.

Qu'Allah le tout puissant, nous accorde le succès afin de stimuler l'ardeur, eclairer les voies et mettre en valeur les réalités.

D'un point de vue purement historique, l'Islam était, sans doute, le grand évenement de l'histoire du continent Africain.

L'Afrique avait accueilli l'Islam durant les premiers temps de la mission du prophète avant de l'embrasser pendant et après la Khilafat du deuxième Khalife OMAR IBN ALKHATAB; la propogation de la nouvelle religion s'était poursuivie des siècles plus tard à travers tout le continent, favorisant ainsi les plus grandes mutations.

Sur le plan spirituel et culturel, les africains s'étaient défaits de l'animosité de l'atheisme, en s'accoutimant avec la nouvelle foi comme issue de l'ignorance obscure vers la lueur de la connaissance.

La langue arabe, langue du Coran, avait prédominé en permettant aux africains de puiser les sciences et les connaissances de la religion, les littératures et autres arts divers.

Ainsi avait commencé l'écriture de l'histoire du continent.. Les grands voyageurs et géographes arabes ont noté l'histoirs des pays, des sociétés africaines, et des notables retraçant tous les faits et grands évenements et décrivant les limites géographiques de chaque contrée.

L'Afrique n'est donc plus une denegation et le besoin de recours aux faits naturels pour s'éclaircir sur l'histoire des hommes et de la terre, s'était nettement amenuisé.

La langue arabe en facilitant un dialogue direct, avait unifié les éthnies et les tribus africaines, elle avait enrichi ou favorisé l'émergence des nouvelles langues afraicaines trés répandues, elle avait favorisé également l'écriture des ces langues en caractères arabes, et l'évolution de leurs littératures. En un mot la langues arabe garantissait ces langues contre la dispatition.

Sur le plan économique, les échanges commerciaux s'étaient intensifiés entre la péninsule arabique et l'afrique de l'est, d'une part et, entre l'est l'ouest, le nord et le sud du continent d'autre part. Le commerce des caravanes a connu une euphorie singulière, ce qui avait

L'AFRIQUE MUSULMANE

UNE IDENTITE PERDUE

PAR

KHALIL ENNAHOUI



DAR AL GHARB AL ISLAMI

l'afrique musulmane

UNE IDENTITE PERDUE

PAR

KHALIL ENNAHOUI

